

نفس البغوي

«معالم التنزيل»

للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي
(المتوفى - ٥١٦هـ)

المجلد الرابع

حقيقه وخارج أحاديثه

محمد عبد الله النفر عثمان جعفرية سليمان مسلم الخرس



دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض - شارع عسير - ص. ب : ٧١١٢

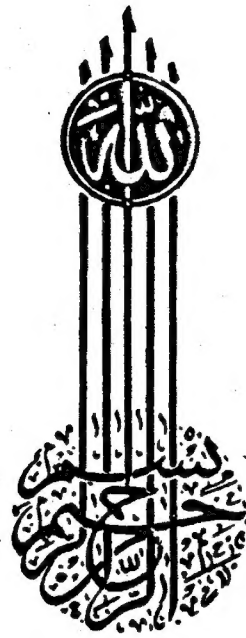
تليفون : ٤٧٥٩٩٧ / ٤٧٥٩٧٤٠

مفتوحه الإتياع وخصه

العام

نَفْسِ الْبَغْوِي

«مَعَالِمُ النَّزِيلِ»



سُورَةُ التَّوْبَةِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

قال مقاتل : هذه السورة مدنية إلا آيتين من آخر السورة .

قال سعيد بن جبیر : قلت لابن عباس سورة التوبة؟ قال : هي الفاضحة مازالت تنزل : «ومنها» ، «ومنها» حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها ، قال : قلت سورة الأنفال؟ قال : تلك سورة بدر ، قال : قلت سورة الحشر؟ قال : قل سورة بني النضير^(١)

أخبرنا أبو سعيد ، أحمد بن إبراهيم الشريحي ، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي ، أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين الجرجاني ، أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ ، أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى ، حدثنا عبيد الله القواريري ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي ، حدثني يزيد الفارسي ، حدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة ، وهي من المثين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتوها في السبع الطوال؟

فقال عثمان : إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان ، وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فإذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب عنده ، فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال مما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن ثم قرنتم بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال^(٢) .

(١) عزاه للسيوطي في الدر المنثور : (١٢٠/٤) لأبي عبيد وابن المنذر وابن مردويه ، مختصراً .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ، باب من جهر بها (بسم الله الرحمن الرحيم) : ٣٨٠/١ ، والترمذي في التفسير : ٤٧٧/٨ - ٤٨٠ ، وقال : هذا حديث حسن (وفي نسخة : حسن صحيح) لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ، ويزيد الفارسي روى عن ابن عباس غير حديث ، ويقال : هو يزيد بن هرمز . وأخرجه ابن حبان ص (١٢٥) من موارد الظمان ، والحاكم : ٢٢١/٢ ، ٣٣٠ ، وقال :

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٨﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿براءة من الله ورسوله﴾، أي: هذه براءة من الله. وهي مصدر كالنشأة والدناءة.
قال المفسرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل
المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم، وذلك
قوله عز وجل: «وإما تخافن من قوم خيانة» الآية (الأنفال - ٥٨).

قال الزجاج: براءة أي: قد برىء الله تعالى ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا
نكثوا.

﴿إلى الذين عاهدتكم من المشركين﴾، الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو
الذي عاهدهم وعاقدهم، لأنه عاهدهم وأصحابه راضون بذلك، فكانهم عاقدوا وعاهدوا.

﴿فسيحوا في الأرض﴾، رجع من الخبر إلى الخطاب، أي: قل لهم: سيحوا، أي سيروا في
الأرض، مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين. ﴿أربعة أشهر واعلموا أنكم غير
مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، أي: غير فائتين ولا سابقين، ﴿وأن الله مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾، أي: مدْلُهُم بالقتل في
الدنيا والعذاب في الآخرة.

واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذي برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت
بينهم وبين رسول الله ﷺ:

فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالى / للمشركين، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة

١/١٥٢

صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والإمام أحمد في المسند: ٥٧/١، ٦٩. وعزاه ابن كثير للنسائي (تفسير ابن كثير: ٥٨٨/٤)

ورواه الحافظ ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» ص ٦٨، ٦٩ بإسناده إلى أبي داود وحسنه، وقال: رجاله رجال الصحيح إلا يزيد
الفارسي، وضعف أحمد شاكر هذا الحديث في تعليقه على المسند: ٣٢٩/١، وقال: هو حديث ضعيف، بل هو حديث لا أصل له،
يدور في كل رواياته على يزيد الفارسي الذي رواه عن ابن عباس، تفرد به عنه عوف بن أبي جميلة الأعرابي وهو ثقة.
ومن قبل: ضعفه ابن عطية فقال: هذا القول يضعفه النظر أن يختلف في كتاب الله هكذا. انظر: المحرر الوجيز: ٣٩٨/٦. وانظر
أيضاً: تفسير ابن كثير: ٣٣٢/٢، ١٠٦/٤، ٥٨٨، فضائل القرآن (الملحق بالتفسير لابن كثير: ص ١٧ - ١٨)، شرح السنة للبغوي:
٥١٨/٤، والدر المنثور: ١١٩/٤، فتح القدير للشوكاني: ٣٣١/٢ - ٣٣٢.

أشهر: رفعه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر: حطّه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده بغير أجل محدود: حدّه بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيقتل حيث أدرك ويؤسر إلا أن يتوب^(١).

وابتداء هذا الأجل: يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر.

فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك خمسون يوماً. وقال الزهري: الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم^(٢)، لأن هذه الآية نزلت في شوال، والأول هو الأصوب وعليه الأكثرون.

وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان له عهد دون أربعة أشهر، فأتّم له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده بقوله تعالى: «فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ»^(٣). قال الحسن: أمر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ بقتال من قاتله من المشركين، فقال: «قاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم»، فكان لا يقاتل إلا من قاتله، ثم أمره بقتال المشركين، والبراءة منهم، وأجلهم أربعة أشهر، فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر، لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد، فكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر، وأحلّ دماء جميعهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل.

وقيل: نزلت هذه قبل تبوك.

قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة، وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشاً عام الحديبية على: أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش، ثم عدّت بنو بكر على خزاعة فنالت منها، وأعانتهم قريش بالسلح، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا * حَلَفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا

(١) تفسير الطبري: ٩٧-٩٦/١٤.

(٢) تفسير الطبري: ١٠١/١٤.

(٣) تفسير الطبري: ١٠٢/١٤.

- | | |
|-----------------------------------|--|
| فانصر هداك الله نصراً أبداً * | وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا |
| أبيض مثل الشمس يسمو صعداً * | إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرْتَدَا |
| هم يَتَوْنَا بالهَجِير هُجَّداً * | وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجَّداً |
| كنت لنا أباً وكننا ولداً * | ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ تَنْزِعْ يَدَا |
| فيهم رسول الله قد تجرداً * | فِي قَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِداً |
| إن قريشاً أخلفوك الموعداً * | وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا |
| وزعموا أن لست تنجي أحداً * | وَهُمْ أَذُلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا |

فقال رسول الله ﷺ: «لا نصرت إن لم أنصركم»، وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة.

فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج، ثم قال: إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة، فبعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم ليقم للناس الحج، وبعث معه بأربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده علياً، كرم الله وجهه، على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة: أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله ﷺ من كل مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي، أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنت صاحبني على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله.

فسار أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج، وعلي رضي الله عنه ليؤذن ببراءة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحديثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحج، والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فأذن في الناس بالذي أمر به، وقرأ عليهم سورة براءة.

وقال زيد بن يثيع^(١) سألنا علياً بأي شيء بعثت في تلك الحجة؟ قال: بعثت بأربع: لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٣٩٤/٢ - ٣٩٦، ٥٤٥ - ٥٤٦، تفسير الطبري: ٩٦/١٤ - ٩٧.

(٢) زيد بن يثيع - بضم التحتانية، وقد تبدل همزة، بعدها مثناة ثم تحتانية ساكنة ثم مهملة، الهمداني الكوفي - ثقة، مخضرم - من الثانية (التقريب) وفي الأصل كانت «تبيع».

وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا^(١).
ثم حج النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع.

فإن قال قائل: كيف بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ثم عزله وبعث علياً رضي الله عنه؟

قلنا: ذكر العلماء أن رسول الله لم يعزل أبا بكر رضي الله عنه، وكان هو الأمير، وإنما بعث
علياً رضي الله عنه لينادي بهذه الآيات، وكان السبب فيه: أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود
ونقضها، أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم، أو رجل من رَهْطِهِ، فبعث علياً رضي الله عنه إزاحةً للعلَّة،
لئلا يقولوا: هذا خلاف ما نعرفه فَيَنَافِي نَقْضَ الْعَهْدِ.

والدليل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان هو الأمير: ما أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا
أحمد بن عبدالله النعمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسحاق،
حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي ابن شهاب، عن عمه، أخبرني حميد بن عبدالرحمن أن
أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر نُوذْنُ بَمْنَى: ألا لا
يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد بن عبدالرحمن: ثم أردف رسول الله ﷺ
علياً فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر: ألا لا يحج بعد العام
مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ﴾ عطف على قوله: «براءة» أي: إعلام. ومنه الأذان بالصلاة، يقال:
أذنته فأذن، أي: أعلمته. وأصله من الأذن، أي: أوقعته في أذنه.

﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ واختلفوا في يوم الحج الأكبر: روى عكرمة
عن ابن عباس: أنه يوم عرفة، وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير. وهو قول عطاء وطاؤوس

(١) تفسير الطبري: ١٠٦/١٤، ورواه الترمذي في الحج: ٦١٠/٣، وفي التفسير: ٤٨٨/٨ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه
الإمام أحمد في المسند برقم (٤) ورقم (٥٩٤) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر. وانظر: فتح الباري: ٣١٩/٨.
(٢) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما يستر من العورة: ٤٧٧/١ - ٤٧٨، ومسلم في الحج، باب لا يحج بالبيت مشرك.. برقم
(١٣٤٧): ٩٨٢/٢.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٢﴾

ومجاهد وسعيد بن المسيب .

وقال جماعة : هو يوم النحر، روي عن يحيى بن الجزار قال : خرج علي رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء، يريد الجبانة، فجاءه رجل وأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر؟ فقال : يومك هذا، خلّ سبيلها . ويروى ذلك عن عبدالله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة . وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي .

وروي ابن جريج عن مجاهد : يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها، وكان سفيان الثوري يقول : يوم الحج الأكبر أيام منى كلها، مثل : يوم صفين ويوم الجمل ويوم بُعث، يُراد به : الحين والزمان، لأن هذه الحروب دامت أياماً كثيرةً .

وقال عبدالله بن الحارث بن نوفل : يوم الحج الأكبر اليوم الذي حج فيه رسول الله ﷺ . وهو قول ابن سيرين، لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين، / ولم يجتمع قبله ولا بعده .

١٥٢ / ب

واختلفوا في الحج الأكبر : فقال مجاهد : الحج الأكبر : القرآن، والحج الأصغر : إفراد الحج .

وقال الزهري والشعبي وعطاء : الحج الأكبر : الحج، والحج الأصغر : العمرة ؛ قيل لها الأصغر لتقصان أعمالها .

قوله تعالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ، أي : ورسوله أيضاً بريء من المشركين . وقرأ يعقوب «ورسوله» بنصب اللام أي : أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَرِيٌّ، ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ : رجعتُم من كفركم وأخلصتم التوحيد، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ : أعرضتم عن الإيمان، ﴿فَاعْلَمُوا أَنكُمُ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، هذا استثناء من قوله : «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين» إلا من عاهد الذين عاهدتم من المشركين، وهم بنو ضمرة، حي من كنانة، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه: أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾، من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾، لم يعاونوا، ﴿عَلَيْكُمْ أَهْدًا﴾، من عدوكم. وقرأ عطاء بن يسار: «لم ينقضوكم» بالضاد المعجمة من نقض العهد، ﴿فَاتَّمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾، فأوفوا لهم بعهدهم، ﴿إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾، إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ﴾، انقضى ومضى ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾، قيل: هي الأشهر الأربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وقال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد، فمن كان له عهد فعهد أربعة أشهر، ومن لا عهد له: فأجله إلى انقضاء المحرم خمسون يوماً، وقيل لها «حُرْمٌ» لأن الله تعالى حرّم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم.

فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحرم والله تعالى يقول: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ»؟. قيل: لما كان هذا القدر متصلاً بما مضى أطلق عليه اسم الجمع، ومعناه: مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحرم.

قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، في الحل والحرم، ﴿وَتُخْذُواهُمْ﴾، وأسروهم، ﴿وَأَحْصُرُوهُمْ﴾، أي: احبسوهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد إن تحصنوا فاحصروهم، أي: امنعوا من الخروج.

وقيل: امنعوا من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾، أي: على كل طريق، والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، من رصدت الشيء أرصده: إذا ترقبته، يريد: كونوا لهم رسداً لتأخذوهم من أي وجه توجهوا.

وقيل: اقعدوا لهم بطريق مكة، حتى لا يدخلوها.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ
 وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ
 فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾، من الشرك، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، يقول: دعوهم
 فليتصرفوا في أمصارهم ويدخلوا مكة، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، لمن تاب، ﴿رَحِيمٌ﴾ به.
 وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على
 أذى الأعداء^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾، أي: وإن استجارك أحد من المشركين
 الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله، ﴿فَأَجِرْهُ﴾،
 فأعذه وآمنه، ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، فيما له وعليه من الثواب والعقاب، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، أي:
 إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي: الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فَقَدِرْتَ
 عليه فاقتله، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون دين الله تعالى وتوحيده فهم محتاجون
 إلى سماع كلام الله. قال الحسن: وهذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾، هذا على وجه التعجب،
 ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند الله، ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم
 استثنى فقال جلّ وعلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، قال ابن عباس: هم قريش.
 وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾، أي: على العهد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، فلم يستقيموا،
 ونقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر
 يختارون من أمرهم: إمّا أَنْ يُسَلِّمُوا، وإمّا أَنْ يَلْحَقُوا بِأَيِّ بِلَادٍ شَاؤُوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر.

(١) تقدم في مناسبة سابقة أن بعض العلماء رحمهم الله قد توسع في هذه القضية، فجعل آية السيف ناسخة لكل آية في القرآن فيها أمر
 بالصبر أو الصفح أو المسالمة، ولا يسلم لهم ذلك فإنه لا تنافي بينها، وهي من «المنساء» كما يقول الزركشي وغيره، وليست من المنسوخ.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٨﴾

قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم من قبائل بكر: بنو خزيمة وبنو مُذَلِّج وبنو ضُمرة وبنو الدَّيْل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الدليل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة.

وهذا القول أقرب إلى الصواب؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة، فكيف يقول شيء قد مضى: «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم»؟ وإنما هم الذين قال عز وجل: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا» كما نقصكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ. ﴿إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، هذا مردود على الآية الأولى تقديره: كيف يكون لهم عهد عند الله [كيف] (١) وإن يظهروا عليكم! ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً﴾، قال الأخفش: كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم أي: يظفروا بكم، لا يرقبوا: لا يحفظوا؟ وقال الضحاك: لا ينتظروا. وقال قطرب: لا يراعوا فيكم إلا. قال ابن عباس والضحاك: قرابة. وقال يمان: رحماً. وقال قتادة: الإل الحلف. وقال السدي: هو العهد. وكذلك الذمة، إلا أنه كرر لاختلاف اللفظين. وقال أبو مجلز ومجاهد: الإل هو الله عز وجل. وكان عبيد بن عمير يقرأ: «جبر إل» بالتشديد، يعني: «عبدالله». وفي الخبر أن ناساً قدّموا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذاب، فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا الكلام لم يخرج من إل، أي: من الله.

والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة «لا يرقبون في مؤمن إلا» بالياء، يعني: الله عز وجل. مثل جبرائيل وميكائيل. ولا ذمة أي: عهداً. ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: يُعْطُونَكُمْ بِالسُّنْتِمْ خلاف ما في قلوبهم، ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾، الإيمان، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال: «وأكثرهم فاسقون»؟

(١) ساقط من «ب».

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿٢﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

قيل : أراد بالفسق : نقض العهد ، وكان في المشركين من وفى بعهده ، وأكثرهم نقضوا ، فلهذا قال : «وأكثرهم فاسقون» .

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ، وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان . قال مجاهد : أطعم أبو سفيان/ حلفاء ، ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ، فمنعوا الناس من الدخول في دين الله . وقال ابن عباس رضي الله عنه : وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقوؤهم على حرب رسول الله ﷺ ، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ﴾ بشئ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ، يقول : لا تُبْقُوا عليهم أيها المؤمنون . كما لا يُبْقُونَ عليكم لو ظهروا ، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ، بنقض العهد .

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ ، من الشرك ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي : فهم إخوانكم ، ﴿فِي الدِّينِ﴾ ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبين الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ، قال ابن عباس : حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة . قال ابن مسعود : أمرتهم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي ، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي ، أخبرنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن الزهري ، حدثنا عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : لما توفي رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضي الله عنه بعده ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكر : كيف تقتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسُهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» ؟ فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعتها. قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق^(١).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عمرو بن عباس، حدثنا ابن المهدي، حدثنا منصور بن سعد عن ميمون بن سيابة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا: فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾، نقضوا عهودهم، ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾، عقدهم، يعني: مشركي قريش، ﴿وطعنوا﴾، قدحوا ﴿في دينكم﴾ عابوه. فهذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام ظاهراً لا يبقى له عهد، ﴿فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام: «أئمة» بهمزتين حيث كان، وقرأ الباقر بتلحين الهمزة الثانية. وأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم من أهل مكة.

قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وأبي جهل بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش يومئذ الذين نقضوا العهد، وهم الذين هموا بإخراج الرسول ﷺ وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم^(٣).

وقال حذيفة بن اليمان: ما قُوتِلَ أهل هذه الآية ولم يأت أهلها بعد^(٤) ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، أي: لا عهود لهم، جمع يمين. قال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد. وقرأ ابن عامر: «لا إيمان لهم» بكسر الألف، أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم. وقيل: هو من الأمان، أي لا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾، أي: لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم. وقيل:

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: ٢٥٠/١٣، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله... برقم (٢٠): ٥١/١ - ٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة، باب فضل استقبال القبلة: ٤٩٦/١.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير: ١٥٤/١٤، وينحوه مطولاً: البخاري: ٣٢٢/٨. وانظر: الدر المنثور: ١٣٦/٤.

(٤) في الدر المنثور: عن مجاهد قال أبو سفيان.

(٥) انظر: الطبري: ١٥٥/١٤ - ١٥٦، فتح الباري: ٣٢٣/٨.

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
 بَدَءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
 قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
 قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

عن الكفر، ثم حض المسلمين على القتال، فقال جلّ ذكره: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾،
 نقضوا عهودهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على قتال خزاعة. ﴿وَهُمُّوا
 بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾، من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة، ﴿وَهُمْ بَدَءُكُمْ﴾، بالقتال، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾،
 يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سَلِمَ العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه.

وقال جماعة من المفسرين: أراد أنهم بدأوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، أتخافونهم فتركوا قتالهم؟ ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾، في ترك قتالهم، ﴿إِنْ
 كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، يقتلهم الله بأيديكم، ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾، ويذلهم بالأسر
 والقهر، ﴿وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾، ويرى داء قلوب قوم، ﴿مُؤْمِنِينَ﴾، مما كانوا
 ينالونه من الأذى منهم. وقال مجاهد والسدي: أراد صُدُورَ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت
 قريش بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، كَرَبَّهَا وَوَجَدَهَا بِمَعُونَةِ قَرِيشَ بَكَراً عَلَيْهِمْ، ثم قال مستأنفاً: ﴿وَيَتُوبُ
 اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن
 عمرو، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وروى أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السيف إلا خزاعة من بني
 بكر إلى العصر». (١)

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ٤٨٧/١٤، وأبو عبيد في الأموال ص (١٣١).

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَّةً وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ
 لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ
 حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أظنتم ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾، قيل: هذا خطاب للمنافقين. وقيل:
 للمؤمنين الذين شق عليهم القتال. فقال: أم حسبتم أن تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد، ولا تُمْتَحِنُوا، ليظهر
 الصادق من الكاذب، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾، ولم ير الله ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَّةً﴾، بطانة وأولياء يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة
 خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس
 منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة. فوليجة الرجل: من يختص بدخيلة أمره
 دون الناس، يقال: هو وليجتي، وهم وليجتي، للواحد والجمع. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسر العباس يوم بدر غيره المسلمون بالكفر وقطيعة
 الرحم، وأغلظ علي رضي الله عنه له القول. فقال العباس: مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون
 محاسننا؟.

فقال له علي رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ فقال نعم: إِنَّا لَنَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَنَحْبِبُ
 الْكَعْبَةَ وَنَسْقِي الْحَاجَّ، فأنزل الله عز وجل رداً على العباس: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ
 اللَّهِ»^(١)، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله.

أوجب على المسلمين منعهم من ذلك، لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمن كان
 كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمرها. فذهب جماعة إلى أن المراد منه: العمارة المعروفة من بناء
 المساجد / ومرمته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا تمتثل. وحمل بعضهم

(١) أسباب النزول للواحدي ص (٢٧٨).

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

العمارة هاهنا على دخول المسجد والقعود فيه . قال الحسن : ما كان للمشركون أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام .

قرأ ابن كثير وأهل البصرة : «مسجد الله» على التوحيد، وأراد به المسجد الحرام، لقوله تعالى : «وعماره المسجد الحرام»، ولقوله تعالى «فلا يقربوا المسجد الحرام»، وقرأ الآخرون : ﴿مساجد الله﴾ بالجمع والمراد منه أيضاً المسجد الحرام . قال الحسن : إنما قال مساجد لأنه قبله المساجد كلها . قال الفراء : ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول : أخذت في ركوب البراذين؟ ويقال : فلان كثير الدرهم والدينار، يريد الدراهم والدنانير؟ .

قوله تعالى : ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾، أراد : وهم شاهدون، فلما طرحت «وهم» نصبت، قال الحسن : لم يقولوا نحن كفار، ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر .

وقال الضحاك عن ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، كلما طافوا شوطاً سجدوا لأصنامهم، ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بُعداً .

وقال السدي : شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يُسأل من أنت؟ فيقول : أنا نصراني، واليهودي يقول : أنا يهودي، ويقال للمشرك : ما دينك؟ فيقول : مشرك . قال الله تعالى : ﴿أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، لأنها لغير الله عز وجل، ﴿وفي النار هم خالدون﴾ .

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : معناه شاهدين على رسولهم بالكفر؛ لأنه ما من بطن إلا ولدته، ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ولم يَخَفْ في الدين غير الله، ولم يترك أمر الله لخشية غيره، ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، «وعسى» من الله واجب، أي : فأولئك هم المهتدون، والمهتدون هم المتمسكون بطاعة الله عز وجل التي تؤدي إلى الجنة .

أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبدالرحمن النسوي، حدثنا محمد بن الحسين الحيري، حدثنا محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن الفرج الحجازي، حدثنا بقية، حدثنا أبو الحجاج، المهدي، عن عمرو بن الحارث، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» فإن الله قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، أنبأنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن مطرف، عن يزيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نَزْلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا عَدَا أَوْ رَاحَ»^(٢).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، حدثني أبي عن محمود بن لبيد، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك، وأحبوا أن يدعوه، فقال عثمان: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ كَهَيْئَتِهِ فِي الْجَنَّةِ»^(٣).

وأخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر الزیادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، حدثنا علي بن الحسين الدار أبجردي، حدثنا أبو عاصم بهذا الإسناد، وقال: «بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة: ٣٦٦/٧، وقال: هذا حديث حسن غريب، وفي تفسير سورة التوبة: ٤٩٠/٨ وقال: حسن غريب، وابن ماجه في المساجد، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، برقم (٨٠٢): ٢٦٣/١، والدارمي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات: ٢٢٢/١، وصححه ابن حبان، ص (٩٩) من موارد الظمان، والحاكم: ٢١٢/١، ٢٣٢/٢ وتعبه الذهبي فقال: دراج كثير المناكير. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٧٦، ٦٨/٣ وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة: ٢٢٤/١ وسلسلة الضعيفة: ١٧٨/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صلاة الجماعة، باب فضل من غدا إلى المسجد أرواح: ١٤٨/٢، ومسلم في المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا... برقم (٦٦٩): ٤٦٣/١، والمصنف في شرح السنة: ٣٥٢/٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من بنى مسجداً: ٥٤٤/١، ومسلم في المساجد، باب فضل بناء المساجد برقم (٥٣٣): ٣٧٨/١ بنحوه. والمصنف في شرح السنة: ٣٤٧/٢.

(٤) انظر: المراجع السابقة نفسها.

﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)

قوله عز وجل: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، حدثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، حدثنا عبدالله بن حامد بن محمد الوزان، حدثنا أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبيدالله المعافري، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام، حدثنا النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أسقي الحاج. وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمر المسجد الحرام. وقال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، إلى قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أُسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنّا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ خيرٌ مما هم عليه^(٣).

وقال الحسن، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، نزلت في علي بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب، وطلحة بن شيبه، افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي: ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾^(٤).

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله، برقم (١٨٧٩): ١٤٩٩/٣، والواحد في أسباب النزول ص (٢٧٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٧٠/١٤، أسباب النزول للواحد ص (٢٧٩).

(٣) أخرجه الطبري: ١٧١/١٤، والواحد ص (٢٧٩ - ٢٨٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية»: (١٨/٥ - ١٩) =

والسقاية : مصدر كالرعاية والحماية .

قوله : ﴿وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ ، فيه اختصار تقديره : أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله وجهاد من جاهد في سبيل الله ؟ .

وقيل : السقاية والعمارة بمعنى الساقى والعامر . وتقديره : أ جعلتم ساقى الحاج و عامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجهاد في سبيل الله ؟ وهذا كقوله تعالى : «والعاقبة للمتقوى» أي : للمتقين ، يدل عليه قراءة عبدالله بن الزبير وأبي بن كعب «أ جعلتم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام» ، على جمع الساقى والعامر .

﴿كمن آمن بالله واليوم الآخر وجهاد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي ، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي ، أنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثني إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا يحيى بن مهلب ، عن حسين ، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى ، فقال العباس : يا فضل اذهب إلى أمك فات رسول الله ﷺ بشراب من عندها ، / فقال : اسقني ، فقال : يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه ، قال : اسقني ، فشرب منه ، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها ، فقال : اعملوا فإنكم على عمل صالح ، ثم قال : لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه ، وأشار إلى عاتقه^(١) .

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر ، أنا عبدالغافر بن محمد ، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ، عن مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن منهال الضرير ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حميد الطويل عن بكر بن عبدالله المزني قال : كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال : ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أم من حاجة بكم؟ أم من بخل؟ فقال ابن عباس : الحمد لله ما بنا حاجة ولا بخل ، قدم رسول الله ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى ، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة ، وقال : أحسستم وأجملتم كذا فاصنعوا ، فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ .^(٢)

= من طبعة جامعة الإمام : «هذا اللفظ لا يعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة ، بل ودلالات الكذب عليه ظاهرة . منها : أن طلحة بن شيبه لا وجود له ، وإنما خادم الكعبة هو شيبه بن عثمان بن أبي طلحة ، وهذا مما يبين لك أن الحديث لم يصح . . . و قول علي : «صليت ستة أشهر قبل الناس» فهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة ، فإن بين إسلامه وإسلام زيد وأبي بكر وخديجة يوماً أو نحوه فكيف يصلي قبل الناس ستة أشهر ؟ .

(١) أخرجه البخاري في الحج ، باب سقاية الحاج : ٤٩١/٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الحج ، باب وجوب المبيت بمنى ليالي أيام التشريق . . . برقم (١٣١٦) : ٩٥٣/٢ .

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢١﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا أَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ
عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً﴾
فضيلة، ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، من الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ﴾، الناجون من النار.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما
قبلها، نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة^(١).

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: قال: لما أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة إلى
المدينة، فمنهم من يتعلق به أهله وولده، يقولون: ننشدك بالله أن لا تضيعنا. فبرق لهم فيقيم عليهم
ويدع الهجرة، فأنزل الله عز وجل هذه الآية^(٢).

وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم،
فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(٣) بطانة وأصدقاء فتفشون إليهم
أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة، ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا﴾، اختاروا ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، ومن

(١) تفسير الطبري: ١٧٦/١٤. وعزاه السيوطي لابن أبي شبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. انظر: الدر المنثور: ١٥٧/٤.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨٠)، وعزاه ابن حجر للثعلبي من رواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس. انظر: الكافي
الشاف ص (٧٤).

(٣) عزاه ابن حجر للثعلبي. المرجع السابق.

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
 اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ
 مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
 أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ
 الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

يتولهم منكم ﴿٢٤﴾، فيطلعهم على عورة المسلمين ويؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾، وكان في ذلك الوقت لا يقبل الإيمان إلا من مهاجر، فهذا معنى قوله: ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلفين عن الهجرة: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾، وذلك أنه لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إِنْ نَحْنُ هَاجِرْنَا ضَاعَتْ أَمْوَالُنَا وَذَهَبَتْ تِجَارَاتُنَا وَخَرِبَتْ دُورُنَا وَقَطَعْنَا أَرْحَامَنَا، فنزل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: «عشيراتكم» بالالف على الجمع، والآخرين بلا ألف على التوحيد، لأن جمع العشيرة عشائر: ﴿وأموال اقترفتُموها﴾ اكتسبتموها ﴿وتجارة تخشون كسادها ومسكن ترضونها﴾، أي: تستطيبنها يعني القصور والمنازل، ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترَبَّصُوا﴾، فانتظروا، ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾، قال عطاء: بقضائه. وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة وهذا أمر تهديد، ﴿والله لا يهدي﴾ لا يوفق ولا يرشد ﴿القوم الفاسقين﴾، الخارجين عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ﴾، أي مشاهد، ﴿كثيرة ويوم حنين﴾، وحنين وإد بين مكة والطائف. وقال عروة: إلى جنب ذي المجاز.

وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة^(١): أن رسول الله ﷺ فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان، ثم خرج إلى حنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً، - عشرة آلاف من المهاجرين

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٤٣٧/٢ وما بعدها، الدر المنثور: ١٥٨/٤ وما بعدها.

وَأَلْفَانٍ مِنَ الطَّلَقَاءِ، قَالَ عَطَاءٌ كَانُوا سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا.

وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط، والمشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف النَّصْرِي، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل الثقفي، فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلامة بن وقش: لن نُغْلِبَ اليومَ عن قلة، فساء رسول الله ﷺ كلامه، ووكّلوا إلى كلمة الرجل. وفي رواية: فلم يرض الله قوله، ووكّلهم إلى أنفسهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وخلّوا عن الذراري، ثم نادوا: يا حِمَاة السَّوَادِ اذْكُرُوا الْفَضَائِحَ، فتراجعوا وانكشف المسلمون.

قال قتادة: وذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، [أخبرنا عبد العزيز^(١)] أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو خيثمة عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء بن عازب: يا أبا عُمارة فررتُم يومَ حنين؟ قال: لا والله ما وُلّي رسولُ الله ﷺ، ولكنه خرج شُبَّانُ أَصْحَابِهِ وَأَخْفَاءُهُمْ وَهُمْ حُسْرٌ لَيْسَ عَلَيْهِمْ سِلَاحٌ، أَوْ كَثِيرٌ سِلَاحٌ، فَلَقُوا قَوْمًا رِمَاةً لَا يَكَادُ يَسْقُطُ لَهُمْ سَهْمٌ، جَمَعَ هَوَازَنُ وَبَنِي نَضَرَ، فَرَشَقُوهُمْ رَشَقًا مَا يَكَادُونَ يَخْطِئُونَ، فَأَقْبَلُوا هُنَاكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَأَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ يَقُودُ بِهِ، فَنَزَلَ وَاسْتَنْصَرَ وَقَالَ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، ثُمَّ صَفَّهُمْ^(٢).

ورواه محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق. وزاد قال: فما رُؤِيَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مِنْهُ^(٣).

ورواه زكريا عن أبي إسحاق. وزاد قال البراء: كنا إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به - يعني النبي ﷺ^(٤) - .

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة حنين، برقم (١٧٧٦): ٣/١٤٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من قال: خذها وأنا ابن فلان... ٦/١٦٤.

(٤) أخرجه مسلم في الموضع السابق: ٣/١٤٠١.

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: قال البراء: إن هوازن كانوا قوماً رماة، وإنّا لما لقيناهم حملنا عليهم، فانهزموا، فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، فأما رسول الله ﷺ فلم يفرّ.

قال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلاثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس.

وقال آخرون: لم يبق مع النبي ﷺ يومئذ غير: العباس بن عبدالمطلب، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، فقتل يومئذ بين يدي رسول الله ﷺ.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان / حدثنا مسلم بن الحجاج، قال: حدثنا أبو طاهر، أحمد بن عمرو بن سرح، حدثنا ابن وهب، أخبرنا يونس عن ابن شهاب، قال: حدثني كثير بن عباس بن عبدالمطلب قال: قال عباس: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطلق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان أخذ بركابه، فقال رسول الله ﷺ أيّ عبّاس: ناد أصحاب السّمرة، فقال عباس - وكان رجلاً صيّتاً - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السّمرة؟ قال: فوالله لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يالبيك يالبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يامعشر الأنصار يامعشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاوّل عليها إلى قتالهم، فقال: هذا حين حمي الوطيس^(١)، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا وربّ محمد، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حدّهم قليلاً، وأمرهم مدبراً^(٢).

وقال سلمة بن الأكوع: غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً قال فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال «شاهت الوجوه»، فما خلق

(١) لم تسمع هذه الكلمة إلا من رسول الله ﷺ. والوطيس: حفرة تحتفر تحت الأرض، فتوقد فيها النار، ويصغر رأسها، ويخرق فيها خرق للدخان، ثم يوضع فيها اللحم ويسدّ، ثم يؤتى من الغد واللحم غاب لم يحترق. ولحمها شواء. وهي مجاز في شدة الحرب.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، برقم (١٧٧٥): ٣/ ١٣٩٨ - ١٣٩٩، والمصنف في شرح السنة: ٣١/ ٣٢ - ٣٢.

الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فهزمهم الله عزَّ وجلَّ فقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين^(١).

قال سعيد بن جبير: أمدَّ الله تعالى نبيَّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين^(٢).

وفي الخبر: أن رجلاً من بني نضر يقال له شجرة، قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البُلُق والرجال الذين عليهم ثياب بيض، ما كنا نراكم فيهم إلا كهَيْئَةَ الشَّامَةِ وما كان قتلنا إلا بأيديهم؟ فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: تلك الملائكة.

قال الزهري: وبلغني أن شيبة بن عثمان بن طلحة قال^(٣): استدبرتُ رسولَ الله ﷺ يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلنا يوم أحد، فأطلع الله رسوله ﷺ على ما في نفسي فالتفت إليَّ وضرب في صدري وقال أعيذك بالله يا شيبة، فأرعدت فرائصي، فنظرت إليه فهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنك رسول الله، وأن الله قد أطلعك على ما في نفسي.

فلما هزم الله المشركين وولَّوْا مدبرين، انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم، فبعث رسول الله رجلاً من الأشعرين يقال له أبو عامر وأمره على جيش المسلمين إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وقتل: دريد بن الصِّمَّة، وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم، وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري، فأتى الطائف فتحصَّن بها وأخذ ماله، وأهله فيمن أخذ. وقتل أميرُ المسلمين أبو عامر^(٤).

قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبي، ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، فأتى الجعرَّانَه فأحرم منها بَعْمَرَةَ وقَسَمَ فيها غنائم حنين وأوطاس، وتآلف أناساً، منهم: أبو سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، والأقرع بن حابس، فأعطاهم^(٥).

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق، برقم (١٧٧٧): ١٤٠٢/٣.

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم. الدر المنثور: ١٦١/٤.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام: ٤٤٤/٢.

(٤) سيرة ابن هشام: ٤٤٩/٢، ٤٥٣، طبقات ابن سعد: ١٥١/٢ - ١٥٢.

(٥) انظر: إمتاع الأسماع للمقرئ: ٤٢٢/١ - ٤٢٣.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا الزهري، أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أن أناساً من الأنصار قالوا لرسول الله - حين أفاء الله على رسوله من أموال هو ازن ما أفاء، فطَفِقَ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل - فقالوا: يَغْفِرُ الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدْعُنَا وسيوفنا تقطُرُ من دمائهم؟ قال أنس: فَحَدَّثَ رسولُ الله ﷺ بمقاتلتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قُبَّةٍ من آدمٍ ولم يدْعُ معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما كان حديثٌ بلغني عنكم؟ فقال له فقهاؤهم أما ذوو رأينا يارسول الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منا حديثُ أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: إني لأعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رجالكم برسول الله ﷺ؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: بلى يارسول الله قد رضينا، فقال لهم «إنكم سترون بعدي أثرٌ شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض»^(١).

وقال يونس عن ابن شهاب: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتالفهم»، وقال: «فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض»، قالوا: سنصبر»^(٢).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا عمرو بن يحيى عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكانهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصابه الناس، فخطبهم فقال: «يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فالفكم الله بي وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّنٌ قال: ما يمنعكم أن تُجيبوا رسولَ الله كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّنٌ؟ قال: لو شئتم قلتم كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رجالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً أو شُعْباً لسلك وادي

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة: ٦/ ٢٥٠ - ٢٥١، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، برقم (١٠٥٩): ٢/ ٧٣٣ - ٧٣٤.

(٢) في رواية مسلم، في الموضع السابق.

الأنصار وشعبهم، الأنصار شعارٌ والناسٌ دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(١).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن / أبي عمر المكي، حدثنا سفيان عن عمر بن سعيد بن مسروق عن أبيه عن عباية بن رفاع، عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس ذلك، فقال عباس بن مرداس:

فَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ * يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبْ * يَدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَفْرَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا * وَمَنْ تَخْفِضِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

قال: فأتى له رسول الله ﷺ مائة^(٢).

وفي الحديث: أن ناساً من هوازن أقبلوا مسلمين بعد ذلك، فقالوا: يا رسول الله أنت خيرُ الناس وأبرُّ الناس، وقد أخذت أبنائنا ونسائنا وأموالنا^(٣).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا سعيد بن عفير، حدثني الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير: أن مروان والمِسُور بن مَخْرَمَةَ أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردَّ إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن معي من ترون وأحبُّ الحديث إليَّ أصدقه، فاخترُوا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال. قالوا: فإننا نختر سبينا. فقام رسول الله ﷺ فأثنى على الله عزَّ وجلَّ بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين، وإنني قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يُطَيَّبَ ذلك لهم فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظ حتى نعطيه إياه من أول ما يفِيء الله علينا، فليفعل فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف: ٤٧/٨، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفات قلوبهم على الإسلام، برقم (١٠٦١): ٧٣٨/٢، والمصنف في شرح السنة: ٣٤/١٤.

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم (١٠٦٠): ٧٣٧/٢.

(٣) ذكره الثعلبي بغير سند، وذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة في المغازي مطولاً. انظر: الكافي الشاف ص (٧٤)، فتح الباري: ٣٨/٨.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً
فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

يارسول الله فقال رسول الله ﷺ: إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى
يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس، فكلهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم
قد طيبوا وأذنوا^(١). فأنزل الله تعالى في قصة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
أَعْتَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ﴾، حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلة، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾، كثرتم، ﴿شَيْئاً﴾،
يعني إن الظفر لا يكون بالكثرة، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي برحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ
وَلَّيْتُمْ مَدْبِرِينَ﴾، منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ بعد الهزيمة، ﴿سَكِينَتَهُ﴾، يعني: الأمانة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون
﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، يعني: الملائكة. قيل: لا للقتال، ولكن
لتجيبين الكفار وتشجيع المسلمين، لأنه يُروى: أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾، بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، فيهديه إلى الإسلام، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة:
نجس: قدر. وقيل: خبيث. وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع، فأما النجس:
بكسر النون وسكون الجيم، فلا يقال على الانفراد، إنما يقال: رَجَسَ نَجَسٌ، فإذا أفرد قيل: نَجَسُ،
بفتح النون وكسر الجيم، وأراد به: نجاسة الحكم لا نجاسة العين، سُمُوا نَجَسًا عَلَى الدِّم. وقال
قتادة: سماهم نجساً لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون ويُحْدِثُونَ فلا يتوضؤون.

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب قوله تعالى: «ويوم حنين». ٣٣/٨ - ٣٢.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به الحرم وهذا كما قال الله تعالى: «سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» [الإسراء - ١]، وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أم هانئ.

قال الشيخ الإمام الأجل: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام: أحدها: الحرم، فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال، ذمياً كان أو مستأثماً، لظاهر هذه الآية، وإذا جاء رسول من بلاد الكفار إلى الإمام والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم، بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم. وجوز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم.

والقسم الثاني من بلاد الإسلام: الحجاز، فيجوز للكافر دخولها بالإذن ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام، لما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشتُ إن شاء الله تعالى لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»^(١). فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»^(٢)، فلم يتفرغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، وأجل لمن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً. وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدة وما والآها من ساحل البحر إلى أطراف الشام.

والقسم الثالث: سائر بلاد الإسلام، فيجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة وأمان، ولكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم.

قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، يعني: العام الذي حج فيه أبو بكر رضي الله عنه بالناس، ونادى علي كرم الله وجهه ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة.

قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، وذلك أن أهل مكة كانت معاشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون، فلما منعوا من دخول الحرم خافوا الفقر، وضيق العيش، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقراً وفاقاً. يُقال: عال يعيل عيلةً، ﴿فسوف

(١) أخرجه مسلم في الجهاد، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، برقم (١٧٦٧): ١٣٨٨/٣، والمصنف في شرح السنة: ١٨٢/١١.

(٢) أخرجه البخاري في باب إخراج اليهود من جزيرة العرب من كتاب الجزية: ٢٧١/٦، مطولاً، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، برقم (١٦٣٧): ١٢٥٧/٣ - ١٢٥٨، والمصنف في شرح السنة: ١٨٠/١١ - ١٨١.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾، قال عكرمة: فأغناهم الله عز وجل بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجريش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون. وقال الضحاك وقتادة: عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها. وذلك: قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك^(١).

وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول دُلَّ أصاب أهل الكتاب / بأيدي المسلمين.

٨٥٥/ب

قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فإن قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيماناً بالله. ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، أي: لا يدينون الدين الحق، أضاف الاسم إلى الصفة. وقال قتادة: الحق هو الله، أي: لا يدينون دين الله، ودينه الإسلام. وقال أبو عبيدة: معناه لا يطيعون الله تعالى طاعة أهل الحق. ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، يعني: اليهود والنصارى. ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾، وهي الخراج المضروب على رقابهم، ﴿عَنْ يَدٍ﴾، عن قهر وذُلِّ. قال أبو عبيدة: يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس: أعطاه عن يدٍ. وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم. وقيل: عن يدٍ أي: عن نقد لا نسيئة. وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، أذلاء مهضومون. قال عكرمة: يعطون الجزية عن قيام، والقابض جالس. وعن ابن عباس قال: تؤخذ منه ويؤطأ عنقه.

وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه.

وقيل: يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمته.

(١) انظر: الدر المنثور: ١٦٧/٤.

وقيل : يُلَبَّب ويُجَر إلى موضع الإِطاء بعنف .

وقيل : إعطاؤه إياها هو الصغار .

وقال الشافعي رحمه الله : الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم .

واتفقت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتابين ، وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عرباً .

واختلفوا في الكتابي العربي وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم ، فذهب الشافعي : إلى أنَّ الجزية على الأديان لا على الأنساب ، فتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماء ، ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال ، واحتج بأن النبي ﷺ أخذها من أكيدر دومة ، وهو رجل من العرب يقال : إنه من غسان ، وأخذ من أهل ذمة اليمن ، وعامتهم عرب .

وذهب مالك والأوزاعي : إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد .

وقال أبو حنيفة تؤخذ من أهل الكتاب على العموم ، وتؤخذ من مشركي العجم ، ولا تؤخذ من مشركي العرب . وقال أبو يوسف : لا تؤخذ من العربي ، كتابياً كان أو مشركاً ، وتؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً .

وأما المجوس : فاتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم .

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال ، أخبرنا أبو العباس الأصم ، أخبرنا الربيع ، أخبرنا الشافعي ، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع بَجَّالة يقول : لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هَجَر^(١) .

أخبرنا أبو الحسن السرخسي ، أخبرنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي ، أخبرنا أبو مصعب ، عن مالك ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال : ما أدري كيف أصنع

(١) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة - باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب : ٢٥٧/٦ .

في أمرهم؟ فقال عبدالرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُئِلُوا بِهِمْ سُئِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ»^(١).

وفي امتناع عمر رضي الله عنه عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن [بن عوف] أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر، دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تُؤخذ^(٢) من كل مشرك، وإنما تُؤخذ من أهل الكتاب.

واختلفوا في أن المجوس: هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ فروي عن علي رضي الله عنه قال: كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا، وقد أسري على كتابهم، فرفع من بين أظهرهم^(٣).

واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتابين.

أما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين نُظِرَ: إن دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل يُقَرَّونَ بالجزية، وتحل مناكحتهم وذبائحهم، وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ بمجيء محمد ﷺ لا يُقَرَّونَ بالجزية، ولا تحل مناكحتهم وذبائحهم، ومن شككنا في أمرهم أنهم دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله: يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم، ولا تحل مناكحتهم وذبائحهم تغليبا للتحريم، فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبنو تغلب، أقرهم عمر رضي الله عنه على الجزية، وقال: لا تحل لنا ذبائحهم.

وأما قدر الجزية: فأقله دينار، لا يجوز أن ينقص منه، ويقبل الدينار من الفقير والغني والوسط لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عبدالرزاق أخبرنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

(١) أخرجه مالك في الموطأ، باب الزكاة: ٢٧٨/١، والشافعي: ١٣٠/٢ (ترتيب المسند)، وأبو عبيد في الأموال ص(٤٢)، وابن أبي شيبة في المصنف: ٢٢٤/٣، والخطيب في تاريخ بغداد: ٨٨/١٠، والبيهقي في السنن: ١٨٩/٩، والمصنف في شرح السنة: ١٦٩/١١. وقال ابن عبدالبر: هذا حديث منقطع، لكن معناه يتصل من وجوه حسن. وانظر: نصب الراية: ٤٤٨/٣ - ٤٤٩، مجمع الزوائد: ١٣/٦، إرواء الغليل: ٨٨/٥.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) جاء ذلك في خبر عن علي رضي الله عنه أخرجه الشافعي في المسند: ١٣١/٢، وفيه سعيد بن المرزبان: مجروح. قال يحيى بن سعيد القطان: لا أستحل أروى عنه. وانظر: نصب الراية: ٤٤٩/٣ - ٤٥٠.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله مَعَاْفِرٌ^(١). فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل حالم، أي بالغ ديناراً ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط، وفيه دليل على أنها لا تجب على الصبيان وكذلك لا تجب على النسوان، إنما تؤخذ من الأحرار العاقلين البالغين من الرجال. وذهب قوم إلى أنه على كل موسر أربعة دنائير، وعلى كل متوسط ديناران، وعلى كل فقير دينار، وهو قول أصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، روى سعيد بن جبيرة وعكرمة عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود: سلام بن مشكم، والنعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٢).

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿عزير﴾ بالتنوين والآخرين بغير تنوين؛ لأنه اسم أعجمي ويشبه اسماً مصغراً، ومن نون قال: لأنه اسم خفيف، فوجهه أن يصرف، وإن كان أعجمياً مثل نوح وهود ولوط. واختار أبو عبيدة التنوين وقال: لأن هذا ليس بمنسوب إلى أبيه، إنما هو كقولك زيد ابن الأمير وزيد ابن أختنا، فعزير مبتدأ وما بعده خبر له.

وقال عبيد بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء^(٣).

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر: ٢٥٧/٣ وقال: هذا حديث حسن. وأبو داود في الامارة، باب في أخذ الجزية: ٢٤٩/٤، والنسائي في الزكاة: ٢٥/٥ - ٢٦، وابن حبان في موارد الظمان ص (٧٩٤) والإمام أحمد في المسند: ٢٣٠/٥، ٢٣٣، وصححه الحاكم: ٣٩٨/١، وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١٧٢/١١.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ٢٠٢/١٤، وابن اسحاق في السيرة: ٥٧٠/١، وعزه السيوطي أيضاً مع الرواية الأخرى لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه. الدر المنثور: ١٧٠/٤ - ١٧١.

(٣) تفسير الطبري: ٢٠١/١٤، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. الدر المنثور: ١٧١/٤.

وهو الذي قال: «إن الله فقير ونحن أغنياء» «آل عمران - ١٨١».

وروى عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما قالت اليهود عزيز ابن الله من أجل أن عزيزاً كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزيزاً وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه التوراة فأذن في قومه، وقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها إليّ! فعلق به / الناس ١٥٦ / أ يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله تعالى، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزيز فوجدوه مثله، فقالوا: ما أوتي عزيز هذا إلا أنه ابن الله^(١).

وقال الكلبي: إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل منهم من قرأ التوراة، وكان عزيز إذ ذاك صغيراً فاستصغره فلم يقتله، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيزاً ليجدد لهم التوراة وتكون لهم آية بعد مائة سنة، يقال: أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم قال أنا عزيز فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة، فكتبها لهم، ثم إن رجلاً قال: إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم، فانطلقوا معه حتى أخرجوها، فعارضوها بما كتب لهم عزيز فلم يجدوه غادر منها حرفاً، فقالوا: إن الله لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا لأنه ابنه، فعند ذلك قالت اليهود: عزيز ابن الله.

وأما النصاري فقالوا: المسيح ابن الله، وكان السبب فيه أنهم كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفِعَ عيسى عليه السلام يُصَلُّون إلى القبلة، ويصومون رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له «بولص» قتل جملة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا به والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، فإني أحتال وأضلُّهم حتى يدخلوا النار، وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرقب فرسه وأظهر الندامة، ووضع على رأسه التراب، فقال له النصاري: من أنت؟ قال: بولص عدوكم، فنوديت من السماء: ليست لك توبة إلا أن تتنصّر، وقد تبت. فأدخلوه الكنيسة، ودخل بيتاً

(١) أخرجه الطبري: ٢٠٢/١٤ - ٢٠٣. وانظر: الدر المنثور: ١٧١/٤.

اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۚ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾

سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً حتى تعلّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت أن الله قبل توبتك، فصّدّقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس، واستخلف عليهم نسطورا وعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنس ولا بجسم، ولكنه ابن الله، وعلم ذلك رجلاً يقال له «يعقوب» ثم دعا رجلاً يقال له ملكا، فقال: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى، فلما إستمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً، وقال لكل واحد منهم: أنت خالصتي، وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني. وقال لكل واحد منهم: إني غدا أذبح نفسي، فادعُ الناس إلى نِحْلَتِكَ. ثم دخل المذبح فذبح نفسه وقال: إِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثلثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نِحْلَتِهِ، فتبع كل واحد طائفة من الناس، فاختلفوا واقتتلوا فقال الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يقولون بألسنتهم من غير علم. قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا كان ذلك زوراً. ﴿يُضَاهَوْنَ﴾، قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزاً، والآخرين بضم الهاء غير مهموز، وهما لغتان يقال: ضاهيته وضاهأته، ومعناهما واحد. قال ابن عباس رضي الله عنه: يشابهون. والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد: يواطؤون. وقال الحسن: يوافقون، ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾، قال قتادة والسدي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالوا: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود: عزيز ابن الله. وقال مجاهد: يضاهون قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون اللات والعزى ومناة بنات الله. وقال الحسن: شبه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة كما قال في مشركي العرب: «كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم» (البقرة - ١٨٨). وقال القتيبي: يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولهم، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾، قال ابن عباس: لعنهم الله. وقال ابن جريج: أي: قتلهم الله. وقيل: ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب، ﴿أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾، أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلة عليه.

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾، أي: علماءهم وقراءهم، والأخبار: العلماء، واحداً حبر،

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
 عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

وحبر بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأبحار والرهبان؟ فلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلوا ما أحلوا وحرّموا ما حرّموا، فاتخذوهم كالآرباب. روي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك»، فطرحت ثم انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾، حتى فرغ منها، قلت له: إنا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحلّون ما حرّم الله فتستحلونه؟» قال قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»^(١).

قال عبد الله بن المبارك:

وهل بدّل الدين إلا الملوك * وأبحار سنوء ورهبانها

﴿والمسيح ابن مريم﴾، أي: اتخذوه إلهاً، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾.

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾، أي: يبتلوا دين الله بالسنتهم وتكذيبهم إياه. وقال الكلبي: النور القرآن، أي: يريدون أن يردوا القرآن بالسنتهم تكديماً، ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾، أي: يُعَلِّي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به محمداً ﷺ، ﴿ولو كره الكافرون﴾.

﴿هو الذي أرسل رسوله﴾، يعني: الذي يأبى إلا إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ، ﴿بالهدى﴾، قيل: بالقرآن. وقيل: ببيان الفرائض، ﴿ودين الحق﴾، وهو الإسلام، ﴿ليظهره﴾،

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٢١٠/١٤. ورواه مختصراً الترمذي في تفسير سورة براءة: ٤٩٢/٨ - ٤٩٤، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. وعزاه السيوطي أيضاً: لابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي. انظر: الدر المنثور: ١٧٤/٤، الكافي الشاف ص (٧٥)، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص (٤٣٧).

ليعليه وينصره، ﴿على الدين كله﴾، على سائر الأديان، ﴿ولو كره المشركون﴾.

واختلفوا في معنى هذه الآية: فقال ابن عباس: الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ أي: ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يُدان الله تعالى إلا به.

وقال أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى بن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام / وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام»^(١). وروى المقداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز أو ذل ذليل»^(٢)، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهله، فيعز به، أو يذلهم فيدينون له.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب، حدثنا أبو جعفر محمد سليمان بن منصور، حدثنا أبو مسلم بن إبراهيم بن عبد الله الكجي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا عبد الحميد، هو ابن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبدَ اللَّاتُ والعُزَّى»، قالت: قلت يا رسول الله ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله تعالى عليك: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». ثم قال: «يكون ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله تعالى ريحاً طيبة، فتقبض من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، ثم يبقى من لا خير فيه، فيرجع الناس إلى دين آبائهم»^(٣).

قال الحسين بن الفضل: معنى الآية ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة.

وقيل: ليظهره على الأديان التي حول النبي ﷺ فيغلبهم.

قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤٣٧/٢. وقال الحافظ ابن حجر: رواه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح من طريق عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤/٦. وذكره الهيثمي من رواية المقداد وتميم الداري وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال الطبراني رجال الصحيح. مجمع الزوائد: ١٤/٦. هذا، وفي نسخة «أ» جاء في الرواية: «يعز عزيزاً ويذل ذليلاً».

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة برقم (٢٩٠٧): ٢٢٣٠/٤ والمصنف في شرح السنة: ٩٢-٩١/١٥.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾

الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال: وأظهره بأن جماع الشرك دينان: دين أهل الكتاب، ودين أميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين، وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾، يعني: العلماء والقراء من أهل الكتاب، ﴿لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، [يريد: ليأخذون] ^(١) الرشا في أحكامهم، ويحرفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتباً يقولون، هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبي ﷺ، يخافون لو صدقوهم لذهبت عنهم تلك المآكل، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾، ويصرفون الناس، ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، دين الله عز وجل.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كل مال تؤدّي زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً. وكل مال لا تؤدّي زكاته فهو كنز، وإن لم يكن مدفوناً. ومثله عن ابن عباس.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني سويد بن سعيد، حدثنا حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن أبا صالح ذكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَبِينُهُ، وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَلَا صَاحِبَ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمَنْ حَقَّهَا حَلَبَهَا يَوْمَ وِرْدِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بُطِّحَ لَهَا بِقَاعٌ قَرَقَرٌ، أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقَدُ مِنْهَا فِصِيلاً وَاحِداً، تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ

(١) في (أ): (يريدون يأخذون).

أُولَاهَا رُدُّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَلَا صَاحِبَ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بُطِّحَ لَهَا بَقَاعٌ قَرَقَرٌ لَا يَفْقَدُ مِنْهَا شَيْئاً لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ، وَلَا جُلْحَاءٌ، وَلَا عُضْبَاءٌ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا، وَتَطْوُهُ بِأُظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا، رُدُّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ^(١).

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثَّلَ له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه، يعني: شدقيه، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ الآية^(٢).

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز، أدَّت منه الزكاة أو لم تُؤدَّ، وما دونها نفقة^(٣).

وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رأيته قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة»، قال: فجئت حتى جلست، فلم أتحار أن قمت فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي، مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليل ما هم»^(٤).

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقول: من ترك بيضاء، أو حمراء، كوي بها يوم القيامة^(٥).

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة - برقم (٩٨٧) : ٦٨٠/٢ - ٦٨١، والمصنف في شرح السنة : ٤٨٠/٥.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة : ٢٦٨/٣، والمصنف في شرح السنة : ٤٧٨/٥.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير : ٢١٩/١٤ - ٢٢٠.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان - باب كيف كان يمين النبي ﷺ : ٥٢٤/١١، ومسلم في الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة - برقم

(٩٩٠) : ٦٨٦/٢.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ١٦٨/٥، والطبري : ٢٢٠/١٤. وعزاه ابن حجر أيضاً للبخاري في التاريخ - وابن مردويه من طريق

عبد الله بن عبد الواحد الثقفي عن أبي النجيب الشامي عن أبي ذر، وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في مسند الشاميين بلفظ آخر.

انظر: الكافي الشاف ص (٧٥ - ٧٦).

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ
هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ ﴿٣٥﴾

ورؤي عن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال النبي ﷺ: «كَيْتَانِ»^(١). ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال النبي ﷺ: «كَيْتَانِ»^(٢).

والقول الأول أصح؛ لأن الآية في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال. قال النبي ﷺ: «نِعَمَ المال الصالح للرجل الصالح»^(٣).

وروي مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية، كَبُرَ ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا أن يدع لولده شيئاً، فذكر عمر ذلك لرسول الله فقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لم يفرض الزكاة إلا لِيُطَيَّبَ بها ما بقي من أموالكم»^(٤).

وسئل ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه الآية؟ فقال: كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طَهْرًا للأموال.

وقال ابن عمر: ما أبالي لو أن لي مثل أحد ذهباً أعلم عدده / أركيه وأعمل بطاعة الله. ١٥٧ / أ

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: وَلَا يُنْفِقُونَهَا، وقد ذكر الذهب والفضة جميعاً. قيل: أراد الكنوز وأعيان الذهب والفضة. وقيل: رد الكناية إلى الفضة لأنها أعم، كما قال تعالى: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ» (البقرة - ٤٥)، رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم، وكقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا» (الجمعة - ١١) رد الكناية إلى التجارة لأنها أعم، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. أي: أنذرهم.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أي: تدخل النار فيوقد عليها أي على الكنوز، ﴿فَتُكْوَىٰ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد: ١٠١/١. قال ابن حجر: رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني والطبري - من طريق شهر بن حوشب... ورواه ابن حبان من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني. انظر: الكافي الشاف ص (٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد: ١٩٧/٤، ٢٠٢، والمصنف في شرح السنة: ٩١/١٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب حقوق المال: ٢/٢٥٠، وصححه الحاكم: ٣٣٣/٢، والبيهقي: ٨٣/٤، وذكره المصنف في المصابيح: ١٠/٢. وذكره الهيثمي في المجمع: ٣٠/٧ وقال: رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن عمير وهو ضعيف. وانظر: الدر المنثور: ١٧٨/٤.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ
وَقِنَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْنِلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ

بها، فتحرق بها، ﴿جباههم﴾، أي: جباه كانزيها، ﴿وجنوبهم وظهورهم﴾، روي عن ابن مسعود
قال: إنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم
في موضع على حدة.

وسئل أبو بكر الوراق: لِمَ خَصَّ الجباه والجنوب والظهر بالكي؟ قال: لأن الغني صاحب
الكنز إذا رأى الفقير قبض وجهه، وزوى ما بين عينيه، وولاه ظهره، وأعرض عنه بكشحه.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا كَنْزُكُمْ﴾، أي: يقال لهم: هذا ما كنزتم، ﴿لأنفسكم فذوقوا ما كنتم
تكنزون﴾، أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم. وقال بعض الصحابة: هذه الآية في أهل
الكتاب. وقال الأكثرون: هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين، وبه قال أبو ذر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾، أي: عدد الشهور، ﴿عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ
اللَّهِ﴾، وهي المحرم وصفر وربيع الأول وشهر ربيع الثاني وجمادى الأول وجمادى الآخرة ورجب
وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة. وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله.
وقيل: في اللوح المحفوظ. قرأ أبو جعفر: اثنا عشر، وتسعة عشر، وأحد عشر، بسكون الشين، وقرأ
العامة بفتحها، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، والمراد منه: الشهور الهلالية، وهي الشهور التي
يعتد بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور الشمسية تكون السنة
ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستين يوماً بنقصان الأهلة.
والغالب أنها تكون ثلاثمائة وأربعاً وخمسين يوماً، ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، من الشهور أربعة حرم وهي:
رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، واحد فرد وثلاثة سُرْد، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أي: الحساب
المستقيم.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، قيل: قوله «فيهن» ينصرف إلى جميع شهور السنة، أي: فلا
تظلموا فيهن أنفسكم بفعل المعاصي وترك الطاعة. وقيل: «فيهن» أي: في الأشهر الحرم. قال
قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن، وإن

اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النِّسْيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَّهُمْ سَوْءٌ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

كان الظلم على كل حال عظيماً. وقال ابن عباس: فلا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حراماً، ولا حرامها حلالاً، كفعل أهل الشرك وهو النسيء.

﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾، جميعاً عامة، ﴿كما يُقاتلونكم كافة﴾ واعلموا أن الله مع المتقين، واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم. فقال قوم: كان كبيراً ثم نسخ بقوله: «وقاتلوا المشركين كافة» كأنه يقول فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهري وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبي ﷺ غَزَا هَوَازِنَ بَحْنِينَ، وثقيفاً بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال آخرون: إنه غير منسوخ: قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يُقاتلوا فيها وما نسخت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النِّسْيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، قيل: هو مصدر كالسعي والحريق. وقيل: هو مفعول كالجريح والقتيل، وهو من التأخير. ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسأ الله في أجله أي أخر، وهو ممدود مهموز عند أكثر القراء، وقرأ ورش عن نافع من طريق البخاري: بتشديد الياء من غير همز، وقد قيل: أصله الهمزة فخفف.

وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي أي: المتروك. ومعنى النسيء: هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معاشهم من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسؤوا أي: أخرّوا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخّرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخرّوه إلى ربيع، هكذا شهراً بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة كلها. فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عز وجل فيه، وذلك بعد دهر طويل، فخطب النبي ﷺ في حجته.

كما: أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف الفريري، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدالواحد حدثنا عبدالوهاب، حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين، عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلقَ السموات والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وقال: «أي شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس البلد الحرام؟ قلنا: بلى، قال: فأَيُّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإنَّ دماءكم وأموالكم، قال محمد: أحسبه قال: وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم، ألا فلا ترجعوا بعد ضلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليلغ الشاهد الغائب فلعلَّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغت ألا هل بلغت»^(١)؟

١٥٧ / ب قالوا: وكان قد استمر النسيء بهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر / ويحجون من قابل في شهر آخر.

قال مجاهد: كانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في شهر ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، فوافقت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل حجة الوداع، فوافق حجة شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة يوم التاسع، وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق الله السموات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدل في مستأنف الأيام.

واختلفوا في أول من نسا النسيء: فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول من نسا النسيء بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة: أبو ثمامة جناد بن عوف بن أمية الكناني. وقال الكلبي: أول

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي - باب من قال: الأضحى يوم النحر: ١٠/٧-٨، ومسلم في القسامة، باب تغليب تحريم الدماء والأعراض، برقم (١٦٧٩): ٣/١٣٠٥، والمصنف في شرح السنة: ٧/٢١٥-٢١٦.

من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال: له نعيم بن ثعلبة، وكان يكون أميراً على الناس بالموسم، فإذا همَّ الناس بالصدر، قام فخطب الناس فقال: لا مردّ لما قضيت، أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، فيقول له المشركون: لبيك، ثم يسألونه أن ينسأهم شهراً يغيرون فيه، فيقول: فإنَّ صفرَ العام حرام، فإذا قال ذلك حلُّوا الأوتار، ونزعوا الأسنة والأزجة، وإن قال حلال عقدوا الأوتار، وشدّوا الأزجة، وأغاروا. وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له: جنادة بن عوف، وهو الذي أدركه النبي ﷺ.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: هو رجل من بني كنانة يقال له: القلمس، قال شاعرهم: «وفينا ناسي الشهر القلمس»، وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم.

وقال جوبير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول من سنَّ النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب، وهو يجر قُصْبَهُ في النار»^(١).

فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، يريد زيادة كفر على كفرهم، ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء وفتح الضاد، كقوله تعالى: «زين لهم سوء أعمالهم»، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد، وهي قراءة الحسن ومجاهد على معنى ﴿يُضِلُّ﴾ به الذين كفروا الناس، وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الضاد، لأنهم هم الضالون لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُ﴾، يعني النسيء ﴿عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُؤَاطِئُوا﴾، أي: ليوافقوا، والمواطأة: الموافقة، ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، يريد أنهم لم يحلوا شهراً من الحرام إلا حرّموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام، لئلا يكون الحرام أكثر من أربعة أشهر، كما حرم الله فيكون موافقة العدد، ﴿فِيحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾، قال ابن عباس: زين لهم الشيطان، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

(١) سبق تخريجه في سورة المائدة ١٠٨/٣. وليس في الحديث ما يدل على أن عمرو بن لحي أول من سنَّ النسيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ
إِلَى الْأَرْضِ ءَأَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ الآية، نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى غيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفاوز هائلة، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ أي: قال لكم رسول الله: ﴿انفروا﴾ اخرجوا في سبيل الله ﴿اتأقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم، ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، أي: بخفض الدنيا ودَعَتْهَا من نعيم الآخرة. ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ثم أوعدهم على ترك الجهاد، فقال تعالى:

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، في الآخرة. وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا. وسأل نجدة بن نفع ابن عباس عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب، فتثاقلوا عليه، فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم^(١). ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم وأطوع. قال سعيد بن جبیر: هم أبناء فارس. وقيل: هم أهل اليمن، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، بترككم النفير. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) انظر، الطبري: ٢٥٣/١٤، أسباب النزول للواحدي ص(٢٨٣)، الدار المشور: ١٩٠/٤.

(٢) أخرجه الطبري: ٢٥٤/١٤ - ٢٥٥، وصححه الحاكم في المستدرک: ١١٨/٢، وأخرجه أبو داود في السنن مختصراً: ٣٦٧/٣،

والبيهقي في السنن: ٤٨/٩. وانظر: الدر المشور: ١٩٣/٤ - ١٩٤.

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، هذا إعلام من الله عز وجل أنه المتكفل بنصر رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء، وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العدَدِ والعدَدِ، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من مكة حين مكروا به وأرادوا تبيسته وهموا بقتله، ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ أي هو أحد الاثنين، والاثنان: أحدهما رسول الله ﷺ، والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، وهو نقب في جبل ثور بمكة، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، قال الشعبي: عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أنبأنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان، أنبأنا خيشمة بن سليمان، حدثنا أحمد بن عبد الله الدُّورقي، حدثنا سعيد بن سليمان، عن علي بن هاشم عن كثير النُّوَّاء عن جُمَيْع بن عُمَيْر قال: أتيت ابن عمر رضي الله عنهما فسمعتة يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض»^(١).

قال الحسين بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر وإنكاره نص القرآن. وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً، لا يكون كافراً.

وقوله عز وجل: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ لم يكن حزن أبي بكر جُبناً منه، وإنما كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ. وقال: إن أقتل فأنا رجل واحد وإن قتلت هلكت الأمة / .

أ. / ١٥٨

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب بشارة لأبي بكر وعمر: ١٥٤/١٠، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. والمصنف في شرح السنة: ٨٢/١٤. وقال: هذا حديث حسن غريب. وفي الحديث: كثير بن إسماعيل أو ابن نافع النُّوَّاء: ضعيف من السادسة. (تقريب).

ورؤي أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، فقال له رسول الله ﷺ: مالك يا أبا بكر؟ قال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فلما انتهيا إلى الغار قال مكانك يا رسول الله حتى استبرئ الغار، فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر^(١).

أخبرنا أبو المظفر التميمي، أخبرنا محمد بن عبدالرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي النظر، أخبرنا خيثمة بن سليمان، حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثنا حيان بن هلال، حدثنا همام بن يحيى، حدثنا ثابت البناني، حدثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدثهم، قال: نظرت إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما^(٢).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، حدثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكراً وعشياً، فلما ابتلي المسلمون.. قال النبي ﷺ للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل، بين لابتين وهما الحرتان». فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر رضي الله عنه قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين - كانتا عنده - ورق السمر، وهو الخبط، أربعة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلكت

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور: (١٩٧/٤ - ١٩٨) للبيهقي في الدلائل، ولابن عساكر عن ضبة بن محسن.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: (١٨٠/٣) في هذا السياق غرابة ونكارة. وأخرجه ابن اسحاق مختصراً: ٤٨٦/١. وقال ابن كثير عن هذه الرواية: وهذا فيه انقطاع من طرفه، وساقه من رواية أبي القاسم البغوي مطولاً، وقال: وهذا مرسل، وقد ذكرنا له شواهد.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين: ٨/٧ - ٩، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه، برقم (٢٣٨١): ٤/١٨٥٤، والمصنف في شرح السنة: ٣٦٥/١٣.

بأبي أنت يا رسول الله، قال: «إني قد أذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله: «بالتَّيْمَن» قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفْرَةً في جِرَابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُميت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة، كبائتٍ فيها، فلا يسمع أمراً يُكَادَانِ به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، مَنَحَهُ من غنمٍ، فِيرِيحُها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِشْلٍ، وهولبن منحتهما ورضيقتُهما حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلَسٍ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خَرِيْتاً، والخَرِيْتُ: الماهر بالهداية، قد غمس حلقاً في آل العاص بن وائل السَّهْمِيَّ، وهو على دين كفار قريش فأَمِنَاهُ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المَدْلِجِي، وهو ابن أخي سراقه بن مالك بن جُعْشَم: أن أباه أخبره أنه سمع سراقه بن مالك بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقه إني قد رأيت أنفاً أسوداً بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقه: فغرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمتُ فدخلت البيت فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزُجَّة الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقامت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام فاستقسمت بها أضرُّهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر يُكثِرُ الالتفات، فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جثتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت

من الحبس عنهم أن سيظهر أمر النبي ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتكم خبراً ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني ولم يسألاني شيئاً إلا أن قالاً: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من آدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطلوا انتظارهم، فلما أَوْوَأَ إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يامعشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مريداً للتمر، لسهيل وسهل، غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فسأوهمهما بالمريد ليتخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يارسول الله، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن:

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالُ خَيْر * هَذَا أَبَرُّ رَيْنَا وَأَطْهَرُ

ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة * فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بيت رجل من المسلمين لم يسم لي.

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الآيات^(١).

قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله تعالى زوجاً من حمام حتى باضا في أسفل النقب، والعنكبوت حتى نسجت بيتاً، وفي القصة أنبت يمامة على فم الغار، وقال النبي ﷺ: اللَّهُمَّ أَعْمِ أَبْصَارَهُمْ / عَنَّا فَجْعَلِ الطَّلَبَ يَضْرِبُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا حَوْلَ الْغَارِ يَقُولُونَ: لَوْ دَخَلْنَا هَذَا الْغَارَ لَتَكْسَرَ بَيْضُ الْحَمَامِ وَتَفْسَخَ بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ^(٢).

قوله عز وجل: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، قيل: على النبي ﷺ. وقال ابن عباس: على أبي بكر رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾، وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته. وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا. وقال مجاهد والكلبي: أعانه بالملائكة يوم بدر، أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾، وكلمتهم الشرك، وهي السفلى إلى يوم القيامة، ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، إلى يوم القيامة. قال ابن عباس: هي قول لا إله إلا الله. وقيل كلمة الذين كفروا: ما قدرُوا بينهم في الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله: وَعَدُ الله أنه ناصرهم. وقرأ يعقوب: ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ﴾ بنصب التاء على العطف ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شُبَّانًا وشيوخاً. وعن ابن عباس: نشاطاً وغير نشاط. وقال عطية العوفي: ركبناً ومشاة. وقال أبو صالح: خِفَافاً من المال، أي: فقراء، وَثِقَالاً أي: أغنياء. وقال ابن زيد: الثقل الذي له الضيعة، فهو ثقل يكره أن يدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له. ويروى عن ابن عباس قال: خِفَافاً أهل الميسرة

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: ٢٣٠/٧ - ٢٣٣ والمصنف في شرح السنة: ٣٥٤/١٣ - ٣٦٢. وقد اختصر جُملاً منه في التفسير، أشرنا إليها بنقاط.

(٢) ذكر ذلك ابن عساكر عن زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة. وهو حديث غريب جداً، من هذا الوجه كما قال الحافظ ابن كثير في البداية: ١٨٢/٣.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ

من المال، وثقالاً أهل العسرة. وقيل: خفافاً من السلاح، أي: مقلين منه، وثقالاً أي: مستكثرين منه. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغل وغير مشاغل. وقال مرة الهمداني: أصحاء ومرضى. وقال يمان بن رباب: عزاباً ومتأهلين. وقيل: خفافاً من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالاً مستكثرين بهم. وقيل: خفافاً مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالاً بعد التروي فيه والاستعداد له.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهب إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع.

وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نسخت هذه الآية بقوله: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) (١). وقال السدي: لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) (٢) الآية.

ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: (٣).

﴿لو كان عرضاً قريباً﴾، واسم كان مضمر، أي: لو كان ما تدعونهم إليه عرضاً قريباً، أي: غنيمة قريبة المتناول، ﴿وسفراً قاصداً﴾، أي قريباً هيناً، ﴿لا تبعوك﴾، لخرجوا معك، ولكن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ أي: المسافة، والشقة: السفر البعيد، لأنه يشقُّ على الإنسان. وقيل: الشقة الغاية التي يقصدونها، ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم﴾، يعني باليمين الكاذبة، ﴿والله يعلم أنهم لكاذبون﴾، في أيمانهم وإيمانهم، لأنهم كانوا مستطيعين.

﴿عفا الله عنك﴾، قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه القدية من أسارى بدر، فجاءته الله كما تسمعون..

(١) انظر: النسخ والمنسوخ لابن سلامة ص (٥٢)، أسباب النزول (٢٨٣ - ٢٨٤) ابن كثير: ٢/ ٣٦٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي. الدر المنثور: ٤/ ٢٠٨.

(٣) أسباب النزول للواحد ص (٢٨٤).

صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
 يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
 فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ
 كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يُعيرَه بالذنب.

وقيل: إن الله عز وجل قره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه
 إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألا زرتني. وقيل معناه:
 أدام الله لك العفو.

﴿لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ﴾، أي: في التخلف عنك ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾، في أَعذارهم،
 ﴿وتعلم الكاذبين﴾، فيها، أي: تعلم من لا عذر له. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن رسول
 الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ.

﴿لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، أي: لا
 يستأذك في التخلف، ﴿والله عليمٌ بالمتقين﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي شَكَّتْ ونافت،
 ﴿فهم في ربهم يترددون﴾، متحيرين.

﴿ولو أرادوا الخروج﴾، إلى الغزو، ﴿لأعدوا له﴾، أي: لهيئوا له ﴿عُدَّةً﴾، أهبة وقوة من
 السلاح والكراع، ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾، خروجهم، ﴿فثبطهم﴾، منعهم وحبسهم عن
 الخروج، ﴿وقيل أقمعدوا﴾، في بيوتكم، ﴿مع القاعدين﴾، يعني: مع المرضى والزمنى. وقيل: مع
 النسوان والصبيان. قوله عز وجل: ﴿وقيل﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا. وقيل: أوحى إلى
 قلوبهم وألهموا أسباب الخذلان.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ
 الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ
 مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
 كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا دُنِيَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ

﴿لو خرجوا فيكم﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك، فضرب رسول الله ﷺ
 عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبدالله بن أبي علي [ذي جُدَّة^(١)] أسفل من ثنية الوداع، ولم
 يكن بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبدالله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين
 وأهل الريب، فأنزل الله تعالى يعزي نبيه ﷺ: ﴿لو خرجوا﴾ يعني المنافقين ﴿فيكم﴾ أي معكم،
 ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾، أي: فساداً وشرّاً. ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل
 الأمر، ﴿ولا أضعفوا﴾، أسرعوا، ﴿خلالكم﴾، وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل
 الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: ﴿لا أضعفوا خلالكم﴾ أي: أسرعوا فيما يخل بكم.
 ﴿يبغونكم الفتنة﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جمع لكم كذا وكذا، وإنكم
 مهزومون وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك. وقال الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العيب والشر. وقال
 الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بُغَاءً إذا التسمته له، يعني: بغيت له.
 ﴿وفيكُم سمّاعون لهم﴾، قال مجاهد: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم.
 ﴿والله عليمٌ بالظالمين﴾.

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾، أي: طلبوا صدّ أصحابك عن الدين وردّهم إلى الكفر، وتخذيل
 الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبدالله بن أبي يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه. ﴿وقلبوا لك
 الأمور﴾ ١٥٩ / أ وأجالوا فيك وفي إبطال دينك الرأي، بالتخذيل عنك / وتشتيت أمرك، ﴿حتى جاء الحق﴾،
 النصر والظفر، ﴿وظهر أمر الله﴾، دين الله، ﴿وهم كارهون﴾.

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾، نزلت في جدّ بن قيس المنافق، وذلك

(١) في «أ»: (ذي حلوة). و«ذو جُدَّة» الطريق الواضح المسلول.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص (٢٨٤).

سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنَّ تُصِيبُكَ
حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبُكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ
قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ
لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ
بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ

أن النبي ﷺ لما تجهز لغزوة تبوك قال: يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر؟ يعني الروم، تتخذ منهم سراري ووصفاء، فقال جد: يارسول الله لقد عرف قومي أنني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بما لي. قال ابن عباس: اعتلَّ جد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: أذنت لك فأنزل الله عز وجل^(١): ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني من المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتَنِي﴾ بينات الأصفر. قال قتادة: ولا تؤثمني: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمر الله وأمر رسوله، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، [مطبقة بهم]^(٢) وجامعة لهم فيها.

﴿إِنْ تُصِيبُكَ حَسَنَةٌ﴾، نصرة وغنيمة، ﴿تَسُوءُهُمْ﴾، تحزنهم، يعني: المنافقين، ﴿وَإِنْ تُصِيبُكَ مُصِيبَةٌ﴾، قتل وهزيمة، ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾، حذرنا، أي: أخذنا بالحزم في القعود عن الغزو، ﴿مَنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾، ويدبروا ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾، مسرورون بما نالك من المصيبة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، أي: علينا في اللوح المحفوظ، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾، ناصرنا وحافظنا. وقال الكلبي: هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾، تنتظرون بنا أيها المنافقون، ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾، إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة. وروينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تَكْفُلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٧/١٤ - ٢٨٨، أسباب النزول للواحدي ص (٢٨٤ - ٢٨٥).

(٢) في «ب»: (مطبقة بهم).

عِنْدِهِ أَوْ يَأْيِدِنَا فَتَرْبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرِبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ
تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

سبيله لا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ: أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ
الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ^(١).

قوله عز وجل ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾، إحدى السواتين إما: ﴿أَنْ يَصِيْبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ
عِنْدِهِ﴾، فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في
قلوبكم، ﴿فَتَرْبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَبِّصُونَ﴾، قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون
مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أمرٌ بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً. نزلت
في جد بن قيس حين استأذن في القعود، قال أُعِينُكُمْ بِمَالِي، يقول: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿لَنْ
يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ﴾، أي: لأنكم، ﴿كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿يُقَبَلُ﴾ بالياء لتقدم الفعل، وقرأ الباقون
بالتاء لأن الفعل مسند إلى جمع مؤنث وهو النفقات، فأنث الفعل ليعلم أن الفاعل مؤنث،
﴿نَفَقَاتُهُمْ﴾، صدقاتهم، ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم،
﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾، متشاقلون لأنهم لا يرجون على أدائها ثواباً، ولا يخافون على
تركها عقاباً، فإن قيل: كيف [ذم] ^(٢) الكسل في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على
الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مكسل، والإيمان منشط، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ
كَارِهُونَ﴾، لأنهم يعدونها مغرمًا ومنعها مغنماً.

(١) أخرجه البخاري في الخمس، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم»: ٢٢٠/٦، ومسلم في الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج

في سبيل الله، برقم (١٨٧٦): ١٤٩٦/٣.

(٢) في «أ»: ذكر.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ
وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوْلُوا
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، والإعجاب هو السرور بما يتعجب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثر الله ماله وولده، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فإن قيل: أي تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟

قيل: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره. فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد.

وقال الحسن: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة في سبيل الله. وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه، والوجل في حفظه، والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده، ثم يُقدم على مَلِكٍ لا يُعذره. ﴿وَتَزْهَقُ أَنْفُسُهُمْ﴾، أي: تخرج، ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، أي: يموتون على الكفر. ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾، أي: على دينكم، ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [يخافون أن يظهروا ما هم عليه] (١).

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾، حرزاً وحصناً ومعقلاً. وقال عطاء: مهرباً. وقيل: قوماً يأمنون فيهم. ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾، غير أنما في الجبال، جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه، أي يستتر. وقال عطاء: سرايب. ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾، موضع دخول فيه، وأصله: مدخل مفتعل، من أدخل يدخل. قال مجاهد: محرزاً. وقال قتادة: سرباً. وقال الكلبي: نفقاً في الأرض كنفق اليربوع. وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ. وقرئ: (مَدْخَلًا) بفتح الميم وتخفيف الدال، وكذلك قرأ

(١) ساقط من دا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

يعقوب، ﴿لَوْلُوا إِلَيْهِ﴾، لأدبروا إليه هرباً منكم، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، يسرعون في إنباء ونفور لا يردّ وجوههم شيء. ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصاً منكم ومهرباً لفارقوكم.

قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، الآية نزلت في ذي الخويصرة التميمي، واسمه حرقوص بن زهير، أصل الخوارج.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبدالرحمن أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً فينا، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول اعدل، فقال: «وَيْلَكَ فَمَنْ يَعْدُلُ إِذَا لَمْ أَعْدُلْ، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نضله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه، وهو قدح، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قدذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم آيتهم، رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدرّر، يخرجون على حين فرقة من الناس». قال أبو سعيد: فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فَأَلْتَمَسَ، فَوُجِدَ، فَأَتَيْتُ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي نَعْتُهُ^(١).

وقال الكلبي: قال رجل / من المنافقين يقال له [أبو الجواظ]^(٢) لرسول الله ﷺ: لم تقسم بالسوية، فأنزل الله تعالى^(٣): ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يعيبك في أمرها وتفريقها

ب / ١٥٩

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: ٦١٧/٦ - ٦١٨، ومسلم في الزكاة، باب ذكر قتال الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٤): ٧٤٤/٢ - ٧٤٥. والمصنف في شرح السنة: ٢٢٤/١٠.

(٢) في «ب»: (أبو الجواظ).

(٣) أسباب النزول للواحدى ص (٢٨٦).

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوجِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

ويطعن عليك فيها. يُقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني أن المنافقين كانوا يقولون إن محمداً لا يعطي إلا من أحب. وقرأ يعقوب ﴿يلمرك﴾ حيث كان. وقال مجاهد: يلمرك أي: يروذك يعني: يختبرك. ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾، قيل: إن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا.

﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾، أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله ﴿وقالوا حسبنا الله﴾، كافينا الله، ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾، ما نحتاج إليه ﴿إنا إلى الله رَاغِبُونَ﴾، في أن يوسع علينا من فضله، فيغنيننا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس. وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي: لكان خيراً لهم وأعود عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ الآية، بين الله تعالى في هذه الآية أهل سهمان الصدقات وجعلها لثمانية أصناف. وروى عن زياد بن الحارث الصَّدَائِي قال: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل وقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حُكِمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أُعْطِيَتْكَ حَقُّكَ»^(١).

قوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾. فأحد أصناف الصدقة: الفقراء، والثاني: المساكين.

واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل، والمسكين: الذي يسأل.

وقال ابن عمر: ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن من أنقى

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة: ٢٣٠/٢ - ٢٣١، والدارقطني في الزكاة ١٣٧/٢، والبيهقي في السنن: ١٧٤/٤. وقال المنذري: في إسناده عبدالرحمن بن زياد الأفرقي وقد تكلم فيه غير واحد.

نفسه وثيابه لا يقدر على شيء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

وقال قتادة: الفقير: المحتاج الزَّمْنُ، والمسكين: الصحيح المحتاج.

وروي عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين، والمساكين من أهل الكتاب.

وقال الشافعي: الفقير من لا مال له ولا حِرْقَة تقع منه موقِعاً، زَمِناً كان أو غير زَمِن، والمسكين من كان له مال أو حِرْفَة ولا يغنيه، سائلاً أو غير سائل. فالمسكين عنده أحسن حالاً من الفقير لأن الله تعالى قال: «أما السفينة فكانت لمساكين» (الكهف - ٧٩) أثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة.

وعند أصحاب الرأي: الفقير أحسن حالاً من المسكين.

وقال القتيبي: الفقير: الذي له البُلْغَة من العيش، والمسكين: الذي لا شيء له.

وقيل: الفقير من له المسكن والخادم، والمسكين من لا ملك له. وقالوا: كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً عن غيره، قال الله تعالى: «أنتم الفقراء إلى الله» (غافر - ١٥)، والمسكين المحتاج إلى كل شيء ألا ترى كيف حض على إطعامه، وجعل طعام الكفارة له ولا فاقة أشد من الحاجة إلى سدّ الجوعة.

وقال إبراهيم النخعي: الفقراء هم المهاجرون، والمساكين من لم يهاجروا من المسلمين.

وفي الجملة: الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فقار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، حدثنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا الربيع، أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة عن هشام، يعني: ابن عروة، عن أبيه، عن عبيد الله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله فسألاه عن الصدقة [فصعد فيهما وصوب] (١)، فقال: «إِنْ شِئْتُمَا أُعْطِيتُمَا ولاحظَ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب» (٢).

واختلفوا في حدّ الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة: فقال الأكثرون: حدّه أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي.

وقال أصحاب الرأي: حدّه أن يملك مائتي درهم.

(١) ما بين القوسين من مسند الشافعي.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب فيمن يعطي من الصدقة: ٢٣٣/٢، والنسائي في الزكاة، باب مسألة الغني المكتسب: ٩٩/٥ - ١٠٠،

والشافعي في المسند: ٢٤٤/١، والطحاوي في شرح معاني الآثار: ١٥/٢، والمصنف في شرح السنة: ٨١/٦.

قال الإمام أحمد: ما أجوده من حديث! انظر: التلخيص الحبير: ١٠٨/٣.

وقال قوم: من ملك خمسين درهماً لا تحل له الصدقة، لما روينا عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ أَوْ خَدُوشٌ أَوْ كَدُوحٌ»، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب»^(١). وهو قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل من الزكاة أكثر من خمسين درهماً. وقيل: أربعون درهماً لما روى أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ أَوْقِيَةٌ أَوْ عِدْلُهَا فَقَدْ سَأَلَ الْخَافَ»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾. وهم السعاة الذين يتولون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيعطون من مال الصدقة، فقراء كانوا أو أغنياء، فيعطون أجر مثل عملهم.

وقال الضحاك ومجاهد: لهم الثمن من الصدقة.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم: المؤلفة قلوبهم، وهم قسمان: قسم مسلمون، وقسم كفار. فأما المسلمون: فقسمان، قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم تألفاً كما أعطى عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام، وهم شرفاء في قومهم مثل: عدي بن حاتم، والزبير بن بدر، فكان يعطيهم تألفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة، والفىء سهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات.

والقسم الثاني من مؤلفة المسلمين: أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع متناط^(٣)، لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إما لضعف نيتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة. وقيل: من سهم المؤلفة. ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام، فيعطيه الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات. وقيل: من سهم سبيل الله.

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى: ٢٢٦/٢، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء من تحل له الزكاة:

٣١٣/٣ - ٣١٤ وقال: حديث حسن، وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير من أجل هذا الحديث. وأخرجه النسائي في الزكاة، باب حد

الغنى: ٩٧/٥، وابن ماجه في الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، برقم (١٨٤٠): ٥٨٩/١، والمصنف في شرح السنة: ٨٣/٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة: ٢٢٨/٢ - ٢٢٩، والنسائي في الزكاة، باب إذا لم يكن له درهم وكان له عدلها:

٩٨/٥ - ٩٩، والمصنف في شرح السنة: ٨٤/٦.

(٣) متناط: متنازع بعيد.

رُوي أنَّ عدي بن حاتم جاء أبا بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بغيراً.

وأما الكفار من المؤلفه: فهم من يُخشى شره منهم، أو يُرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يُعطي هذا حذراً من شره، أو يُعطي ذلك ترغيباً له في الإسلام، / فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لما يرى من ميله إلى الإسلام، أما اليوم فقد أعز الله الإسلام فله الحمد، وأغناه أن يُتألف عليه رجال، فلا يُعطي مشركاً تألفاً بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلفه منقطعة وسهمهم ساقط. رُوي ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثوري، وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهوية.

وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، والصنف الخامس: وهم الرقاب، وهم المكاتبون، لهم سهم من الصدقة، هذا قول أكثر الفقهاء، وبه قال سعيد بن جبير، والنخعي، والزهري، والليث بن سعد، والشافعي. وقال جماعة: يشتري بسهم الرقاب عبيد فيعتقون. وهذا قول الحسن، وبه قال مالك وأحمد وإسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾، الصنف السادس هم: الغارمون، وهم قسمان: قسم دانوا لأنفسهم في غير معصيته، فإنهم يُعطون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاء فلا يُعطون، وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يُعطون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنبأنا زاهر بن أحمد، أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَحِلُّ الصدقة لغني إلا لأخمة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارمٍ، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرجلٍ له جارٌ مسكين فتصدق على المساكين فأهدى المسكين للغني، أو لعاملٍ عليها»^(١).

ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ متصلاً بمعناه^(٢).

(١) رواه مرسلًا: مالك في الموطأ، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة ومن يجوز له أخذها: ٢٦٨/١، وأبو داود في الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني: ٢٣٤/٢ - ٢٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الموضع السابق نفسه، وابن ماجه في الزكاة برقم (١٨٤١): ٥٩٠/١. والمصنف في شرح السنة: ٨٩/٦.

أما من كان دينه في معصية فلا يُدفع إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ ، أراد بها : الغزاة ، فلهم سهم من الصدقة ، يُعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو ، وما يستعينون به على أمر الغزو من : النفقة ، والكسوة ، والسلاح ، والحمولة ، وإن كانوا أغنياء ، ولا يُعطى منه شيء في الحج عند أكثر أهل العلم .

وقال قوم : يجوز أن يصرف سهم في سبيل الله إلى الحج . ويروى ذلك عن ابن عباس ، وهو قول الحسن ، وأحمد ، وإسحاق .

قوله تعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ ، الصنف الثامن : هم أبناء السبيل ، فكل من يريد سفرأ مباحاً ولم يكن له ما يقطع به المسافة يُعطى من الصدقة بقدر ما يقطع به تلك المسافة ، سواء كان له في البلد المتقل إليه مال أو لم يكن .

وقال قتادة : ابن السبيل هو الضيف .

وقال فقهاء العراق : ابن السبيل الحاج المنقطع .

قوله تعالى : ﴿ فريضة ﴾ أي : واجبة ﴿ من الله ﴾ ، وهو نصب على القطع ، وقيل : على المصدر ، أي : فرض الله هذه الأشياء فريضة .

﴿ والله عليم حكيم ﴾ ، اختلف الفقهاء في كيفية قسم الصدقات ، وفي جواز صرفها إلى بعض الأصناف :

فذهب جماعة إلى أنه لا يجوز صرفها كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف ، وهو قول عكرمة ، وبه قال الشافعي ، قال : يجب أن تقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستة ، الذين سُمَّانهم ثابتة قسمةً على السواء ، لأن سهم المؤلفة ساقط ، وسهم العامل إذا قسم بنفسه ، ثم حصة كل صنف منهم لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر ، فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز ، فإن لم يوجد من بعض الأصناف إلا واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حد الاستحقاق ، فإن انتهت حاجته وفضل شيء رده إلى الباقي .

وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف ، أو إلى شخص واحد منهم يجوز ، وإنما سَمَّى الله تعالى هذه الأصناف الثمانية إعلماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه

الأصناف، لا إيجاباً لقسمها بينهم جميعاً. وهو قول عمر، وابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير وعطاء، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وبه قال أحمد، قال: يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى.

وقال إبراهيم: إن كان المال كثيراً يحتمل الإجزاء قسّمه على الأصناف، وإن كان قليلاً جاز وضعه في صنف واحد.

. وقال مالك: يتحرى موضع الحاجة منهم ويُقدم الأولى فالأولى من أهل الخلّة والحاجة، فإن رأى الخلّة في الفقراء في عام أكثر قَدَمَهُم، وإن رآها في عام في صنف آخر حولها إليهم.

وكلُّ من دُفِعَ إليه شيء من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق، فلا يزيد الفقير على قدر غناه، فإذا حصل أدنى اسم الغنى لا يُعطى بعده، فإن كان محترفاً لكنه لا يجد آلة حرفته: فيعطى قدر ما يحصل به آلة حرفته، ولا يزداد العامل على أجر عمله، والمُكاتب على قدر ما يُعتق به، وللغريم على قدر دينه، وللغازي على قدر نفقته للذهاب والرجوع والمقام في مغزاه وما يحتاج إليه من الفرس والسلاح، ولابن السبيل على قدر إتيانه مقصده أو ماله.

واختلفوا في نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر، مع وجود السمتحقين فيه: فكرهه أكثر أهل العلم، لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنبأنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، حدثنا زكريا بن إسحاق المكي، حدثنا يحيى بن عبد الله بن الصيفي عن أبي معبد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١).

فهذا يدل على أن صدقة أغنياء كل قوم تُردُّ على فقراء ذلك القوم.

واتفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر أُدِّيَ مع الكراهة، وسقط الفرض عن ذمته، إلا ما

(١) أخرجه الشيخان، وقد تقدم.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

حُكي / عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه ردَّ صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها ١٦٠ / ب
من خراسان.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون
النبي ﷺ، ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإننا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا.
فقال الجلاس بن سويد منهم: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فننكر ما قلنا، ونحلف فيصدقنا بما نقول،
فإنما محمدٌ أُذُنٌ^(١)، أي: أذن سامعه، يقال: فلانٌ أُذُنٌ وأذنةٌ على وزن فعلة إذا كان يسمع كل ما قيل
له ويقبله. وأصله من أذن يأذن أذنًا أي: استمع. وقيل: هو أذن أي: ذو أذن سامعة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان
رجلاً أذلم، ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوه الخلق، وقد قال النبي ﷺ: «من
أحب أن ينظر إلى الشيطان فليتنظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين،
فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمدٌ أذن فمن حدثه شيئاً صدقه، فنقول ما شئنا، ثم نأتيه ونحلف
بالله فيصدقنا. فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، قرأه العامة بالإضافة، أي: مستمعٌ خيرٌ وصلاحٌ لكم، لا
مستمعٌ شرٌ وفساد. وقرأ الأعمش والبرجمي عن أبي بكر: ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، مرفوعين منونين، يعني:
أن يسمع منكم ويصدقكم خيرٌ لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم، ثم كذبهم فقال: ﴿يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ﴾، أي: لا، بل يؤمن بالله، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يصدق المؤمنين ويقبل منهم لا من
المنافقين. يقال: أمنت وأمنت له بمعنى صدقته. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، قرأ حمزة: «ورحمة» بالخفض على
معنى أذن خير لكم، وأذن رحمة، وقرأ الآخرون: «ورحمة» بالرفع، أي: هو أذن خير، وهو رحمة
﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١) أسباب النزول للواحدي ص (٢٨٦)، سيرة ابن هشام: ٥٢١/١.

(٢) ذكره ابن إسحاق بلاغاً: ٥٢١/١، وانظر: الطبري: ٣٢٤/١٤، أسباب النزول ص (٢٨٦) والدر المنثور: ٢٢٧/٤.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِبْرَاهِيمَ مَخْرُجًا مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾، قال قتادة والسُّدِّي: اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سُوَيْد، ووديعه بن ثابت، فوقعوا في النبي ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرُّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فحقره وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حقٌّ وأنتم شرُّ من الحمير، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أن عامراً كذاب. وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي ﷺ، فجعل عامر يدعو ويقول: اللهم صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب فأنزل الله تعالى هذه الآية (١).

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون إليه ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله، ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، أي: الفضيحة العظيمة.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾، أي: يخشى المنافقون، ﴿أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: تنزل على المؤمنين، ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويسرون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم.

قال قتادة: هذه السورة تُسمى الفاضحة والمبشرة والمثيرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة للمؤمنين، لئلا يعير بعضهم بعضاً، لأن أولادهم كانوا مؤمنين.

(١) انظر: الدر المنثور: ٢٢٨/٤، أسباب النزول ص (٢٨٧)، الطبري: ٣٢٩/١٤.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخَوْضُ وَلَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ
وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾

﴿قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾، مظهر ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾.

قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها، ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكروا له في ليلة مظلمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما قَدَرُوا، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحهم، وعمار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ راحلته، وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحهم فضربها حتى نحاها، فلما نزل رسول الله ﷺ قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «فإنهم فلان وفلان حتى عدَّهم كلهم، فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب. لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدَّبِيلَةِ»^(١).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد قال: قلنا لعمار أرايت قتالكم أرايأ رأيتموه؟ فإن الرأي يُخطيء ويصيب، أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن في أمتي - قال شعبة وأحسبه قال: حدثني حذيفة قال في أمتي - اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يلجَّ الجمل في سمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدَّبِيلَةُ، سراج من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلئن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخَوْضُ وَلَنَلْعَبُ﴾ الآية، وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقاتلة: أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين، اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك.

قيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعد من ذلك! وقيل كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك؛ فقال: احبسوا عليَّ الركب، فدعاهم وقال لهم: قلت

(١) انظر: الدر المنثور: ٢٤٤/٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٧٩): ٢١٤٣/٤.

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦١﴾

كذا وكذا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

١٦١ / أ قال عمر^(١) فلقد / رأيت عبد الله بن أبي يشتد قدام رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون، ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد ﴿أَبَاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾، كتابه، ﴿وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾. ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟.

قيل: معناه: أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان.

﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾، أي: نتب على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحداً، ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، بالاستهزاء. قرأ عاصم: «نَعْفُ» بالنون وفتحها وضم الفاء، «نُعَذِّبْ» بالنون وكسر الدال، «طَائِفَةً» نصب. وقرأ الآخرون: «يُعْفَ» بالياء وضمها وفتح الفاء، «نُعَذِّبْ» بالتاء وفتح الدال، «طَائِفَ» رفع على غير تسمية الفاعل.

وقال محمد بن إسحاق: الذي عفا عنه رجل واحد، هو مخشي بن حمير الأشجعي، يقال هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ أعني بها تقشعروا الجلود منها، وتجب^(٣) منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عرّف مصرعه غيره^(٤).

(١) هكذا في النسختين: «قال عمر». والصواب: «ابن عمر».

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٣/١٤ - ٣٣٤، أسباب النزول للواحدي ص (٢٨٨)، الدر المنثور: ٢٣٠/٤ - ٢٣١.

(٣) وَجِبَ قلبه يَجِبُ وَجِيئاً: خفق واضطرب.

(٤) سيرة ابن هشام: ٥٢٥/٢. وفيه: مخش بن حمير، ويقال: مخشي...

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ
فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّمُوا
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ

قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾، أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾، بالشرك والمعصية، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، أي عن الإيمان والطاعة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، تركوا طاعة الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، كافيتهم جزاءً على كفرهم، ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾، أبعدهم من رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، دائم.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعدول عن أمر الله، فَلَعَبْتُمْ كَمَا لَعَبْتُمْ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾، بطشاً ومنعة، ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ فتمتعوا وانتفعوا بخلاقهم؛ بنصيهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا به عوضاً عن الآخرة، ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾، أيها الكفار والمنافقون، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾، وسلكتهم سبيلهم، ﴿وَخُضِّمُوا﴾ في الباطل والكذب على الله تعالى، وتكذيب رُسله، وبالاستهزاء بالمؤمنين، ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾، أي: كما خاضوا. وقيل: كالذي بمعنى كالذين خاضوا، وذلك أن «الذي» اسم ناقص، مثل «ما» و«من» يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْوَاحِدِ وَالْجَمِيعِ، نظيره قوله تعالى: «كَمِثْلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» ثم قال: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ» (البقرة - ١٧).

هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
 وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
 وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

﴿أولئك حبّطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾، أي: كما حبّطت
 أعمالهم وخسروا كذلك حبّطت أعمالكم وخسرتم.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف،
 حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن عبدالعزيز، حدثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن، عن
 زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَتَتَّبِعَنَّ
 سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَا تَبْعَثُمُوهُمْ»، قلنا: يا رسول الله
 اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية أبي هريرة: «فهل الناس إلا هم»، وقال ابن مسعود رضي
 الله عنه: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سَمَنًا وَهَذِيًّا تَتَّبِعُونَ عملهم حَذَوُ الْقَذَّةِ بِالْقَذَّةِ غَيْرَ أَنِّي لَا أَدْرِي
 أَتَعْبُدُونَ الْعِجْلَ أَمْ لَا؟»^(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾، يعني المنافقين، ﴿نَبَأُ﴾، خبر، ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، حين عصوا
 رُسُلَنَا، وخالفوا أمرنا كيف عذّبناهم وأهلكناهم. ثم ذكرهم، فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، أهلكوا بالطوفان،
 ﴿وَعَادٍ﴾، أهلكوا بالريح ﴿وَتَمُودَ﴾، بالرجفة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾، بسلب النعمة وهلاك نمرود،
 ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾، يعني قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظَّلَّةِ، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المنقلبات التي
 جعلنا عابليها سافلها وهم قوم لوط، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، فكذبوهم وعصَوْهم كما فعلتم يامعشر
 الكفار، فاحذروا تعجيل النِّقْمَةِ، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الدين واتفاق الكلمة والعون
 والنصرة. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، بالإيمان والطاعة والخير، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، عن الشرك

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...» ٣٠٠/١٣، ومسلم في العلم، باب اتباع سَنَنَ
 اليهود والنصارى، برقم (٢٦٦٩): ٢٠٥٤/٤، والمصنف في شرح السنة: ٣٩٢/١٤.

الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي
جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

والمغصية وما لا يعرف في الشرع، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، المفروضة، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، منازل طيبة، ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: بساتين خلد وإقامة، يُقال: عدن بالمكان إذا أقام به. قال ابن مسعود: هي بطنان الجنة، أي: وسطها.

قال عبدالله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصرًا يقال له: «عَدْن» حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وقال الحسن: قصر من ذهب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حَكَمٌ عدل.

وقال عطاء بن السائب: «عدن» نهر في الجنة [جنانه] ^(١) على حافته.

وقال مقاتل والكلبي: «عدن» أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسليم، والجنان حولها، محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها: الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، ومن شاء الله، وفيها قصور الدر واليواقيت والذهب، فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كُثْبَانُ الْمِسْكِ الْأَذْفَرِ الْأَبْيَضِ.

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. أي: رضا الله عنهم أكبر من ذلك، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

روينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل لأهل الجنة يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تُعْطِ أَحَدًا من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» ^(٢).

(١) في «ب»: (جناته).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة: ٤٨٧/١٣، وفي الرقاق أيضاً، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة برقم (٢٨٢٩) ٢١٧٦/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٣١/١٥ - ٢٣٢.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
 إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُؤْمِنُ بِالْمَنَافِقِ أُولَئِكَ أَعْتَبْتُمْ أَلَا إِنَّ أَعْيُنُكُمْ أَلَيْسَتْ بِاللَّهِ
 فَانِ تَوْبُوا أَيْكُمْ خَيْرًا لَهُمْ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾: بالسيف والقتل، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾، واختلفوا في
 صفة جهاد المنافقين، قال ابن / مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلمه، وقال:
 لا تَلَقِ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا بِوَجْهِكَ مَكْفُوهًا^(١). وقال ابن عباس: باللسان وترك الرفق. وقال الضحاك: بتغليط
 الكلام. وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم. ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ﴾ في الآخرة،
 ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. قال عطاء: نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح.

قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة
 فقال: «إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بَعِينِي شَيْطَانٌ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تَكَلِّمُوهُ»، فلم يلبثوا أن طلع رجل
 أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلَامَ تَشْتَمُنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟» فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه،
 فحلفوا بالله، ما قالوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية^(٢).

وقال الكلبي: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك،
 فذكر المنافقين وسماهم رجساً وعابهم، فقال جلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير.
 فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير، فلما انصرف رسول الله
 ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب عليّ يا رسول الله،
 وأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي
 لا إله إلا هو ما قاله، ولقد كذب عليّ عامر، ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما

(١) أخرجه الطبري عن ابن مسعود: ٣٥٨/١٤. ومعنى: بوجه مكفهر: عابس متقبض، لا طلاقة فيه ولا بشر ولا انبساط.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٦٣/١٤، وصحح الشيخ شاكراً إسناده. وزاد السيوطي نسبته للطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه. الدر المنثور:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

كَذَّبْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَى نَبِيِّكَ تَصْدِيقَ الصَّادِقِ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ: آمِينَ. فَنَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا بِهَذِهِ الْآيَةِ، حَتَّى بَلَغَ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾، فَقَامَ الْجُلَاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْمِعْ [اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ] ^(١) قَدْ عَرَضَ عَلَيَّ التَّوْبَةُ، صَدَقَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ فِيمَا قَالَ، لَقَدْ قُلْتَهُ وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ذَلِكَ مِنْهُ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، أَي: أَظْهَرُوا الْكُفْرَ بَعْدَ إِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ. قِيلَ: هِيَ سَبُّ النَّبِيِّ ﷺ. وَقِيلَ: كَلِمَةُ الْكُفْرِ قَوْلُ الْجُلَاسِ: لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. وَقِيلَ: كَلِمَةُ الْكُفْرِ قَوْلُهُمْ «لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ»، (الْمُنَافِقِينَ - ٨) وَسَتَاتِي تِلْكَ الْقِصَّةَ [فِي مَوْضِعِهَا فِي سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ] ^(٢)، ﴿وَهُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ يَقْتُلُ الْمُسْلِمَ الَّذِي سَمِعَ قَوْلَهُمْ: لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، لَكِي لَا يَفْشِيَهُ.

وَقِيلَ: هُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَقَفُوا عَلَى الْعُقْبَةِ فِي طَرِيقِ تَبُوكَ لِيَفْتِكُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْسُلَ إِلَيْهِمْ مِنْ يَضْرِبُ وُجُوهَ رَوَاحِلِهِمْ، فَأَرْسَلَ حَذِيفَةَ لَذَلِكَ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَالُوا إِذَا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ عَقَدْنَا عَلَى رَأْسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي تَاجٍ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ. ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾، وَمَا كَرِهُوا وَمَا أَنْكَرُوا مِنْهُمْ، ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وَذَلِكَ أَنَّ مَوْلَى الْجُلَاسِ قُتِلَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِدَيْتِهِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَاسْتَغْنَى. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانُوا قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ضَنْكٍ مِنَ الْعَيْشِ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ اسْتَغْنَوْا بِالْغَنَائِمِ.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ مِنْ نِفَاقِهِمْ وَكَفَرِهِمْ ﴿يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾، يَعْرِضُوا عَنِ الْإِيمَانِ، ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾، بِالْخِزْيِ، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، أَي: فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الْآيَةُ. أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ الشَّرِيفِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الثَّعْلَبِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَامِدٍ الْأَصْفَهَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة من المطبوع.

محمد بن إبراهيم السمرقندي، حدثنا محمد بن نصر، حدثني أبو الأزهر أحمد بن الأزهر، حدثنا مروان بن محمد بن شعيب حدثنا معان^(١) بن رفاعه عن علي بن يزيد^(٢)، عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تُؤذي شكره خيرٌ من كثير لا تُطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «أمالك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسيّر الجبال معي ذهباً وفضة لَسَارَتْ» ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزُق ثعلبة مالاً».

قال: فاتخذ غنماً فَنَمَتْ كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كاللدود، فكان يصلي مع النبي ﷺ الظهر والعصر، ويصلي في غنمه سائر الصلوات، ثم كَثُرَتْ وَنَمَتْ حتى تباعد بها عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كَثُرَتْ فَنَمَتْ فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره ﷺ ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً ما يسعها وادٍ، فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ ثعلبة يا وَيْحَ ثعلبة يا وَيْحَ ثعلبة». فأنزل الله آية الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جُهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، كيف يأخذان، وقال لهما: «مراً بثعلبة بن حاطب، و[بفلان]، رجل من بني سليم فخذوا صدقاتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ، فانطلقا وسمع بها السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا: ما هذه عليك. قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فمراً على الناس فأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما فقراه، ثم قال: ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي.

قال: فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه قال: يا وَيْحَ ثعلبة يا وَيْحَ ثعلبة، ثم دعا للسلمي بخير، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ / فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة

١٦٢ أ

(١) غي واه (معاذ) (بالذال).

(٢) في الأصل: (زيد) وهو خطأ.

فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: إن الله عز وجل منعني أن أقبل منك صدقتك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك وقد أمرتك فلم تطعني، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته، رجع إلى منزله. وقبض رسول الله ﷺ. ثم أتى أبا بكر فقال: أقبل صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ثم أنا أقبلها؟ فقبض أبو بكر ولم يقبلها. فلما ولي عمر أياه فقال: أقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر، أنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها فلما ولي عثمان أياه فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان^(١).

قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وقتادة: أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه، وتصدقت منه، ووصلت الرحم، وأحسنيت إلى القرابة، فمات ابن عم له [فورثه]^(٢) ما لا فلم يف بما قال، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٣).

وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير، وهما من بني عمرو بن عوف، خرجا على ملا قعود وقالوا: والله لئن رزقنا الله [مألاً]^(٤) لنصدقن، فلما رزقهما الله عز وجل بخلاً به^(٥) فقله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني: المنافقين ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ﴾ ولنؤدين حق الله منه. ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، نعمل بعمل أهل الصلاح فيه؛ من صلة الرحم والنفقة في الخير.

(١) أخرجه الطبري: ٣٧٠/١٤ - ٣٧٢، والواحد في أسباب النزول ص (٢٩٠ - ٢٩٢)، وابن الأثير في أسد الغابة: ٢٨٤/١ - ٢٨٥، وأشار إلى أنه مخرج عن ابن منده وأبي نعيم وابن عبد البر في الاستيعاب ٢١٠/١٠، وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: «فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك». وعزاه السيوطي في الدر: ٢٤٦/٤، والهيثمي في المجمع: ٢١/٧ للحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال وابن مردويه وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن عساكر.

ومعان بن رفاعة السلمي: لئن الحديث، وعلي بن يزيد: ضعيف بمرة. فالخير ضعيف. قال فيه ابن حجر: «وهذا إسناد ضعيف جداً» وقال الشيخ محمود شاكر: «هو ضعيف كل الضعف - ليس له شاهد من غيره - وفي بعض رواته ضعف شديد». وفي كون المراد بالآية ثعلبة بن حاطب. نظر. فإنه بدري. وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية» وحكى ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال لأهل بدر: (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه، وينزل فيه ما ينزل؟ وثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، الذي شهد بدرًا، قتل في غزوة أحد، وفي هذه الرواية أنه هلك في عهد عثمان رضي الله عنه، فتأكد أنه ليس هو ثعلبة بن حاطب البصري.

وانظر: الكافي الشاف ص (٧٧)، الإصابة: ٤٠١/١، الحاوي للفتاوى: ١٨٣/٢.

(٢) في (أ): فورث منه.

(٣) انظر: الطبري: ٣٧٣/١٤ - ٣٧٤، الدر المنثور: ٢٤٧/٤.

(٤) ساقط من (أ).

(٥) الطبري: ٣٧٤/١٤ - ٣٧٥.

فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي
 قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾
 أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾
 الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ
 لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾، فأخلفهم، ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: صير عاقبة أمرهم النفاق، يقال: أعقب فلاناً ندامَةً إذا صير عاقبة أمره ذلك. وقيل: عاقبهم بنفاق قلوبهم. يُقال: عاقبته وأعقبته بمعنى واحد. ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾، يريد حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقى، حدثنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، حدثنا عبدالله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر أخبرنا أبو سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(١).

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، يعني: ما أضمرُوا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية.

قال أهل التفسير: حث رسول الله ﷺ على الصدقة، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمست أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمست»، فبارك الله في

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب علامات المنافق: ٨٩/١، ومسلم في الإيمان، باب خصال المنافق، برقم (٥٩): ٧٨/١، والمصنف في شرح السنة: ٧٢/١.

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٨﴾ فَرِحَ
الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

ماله حتى أنه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمنُ ماله لهما مائة وستين ألف درهم . وتصدق يومئذ
عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسقي من تمر . وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحباب بصاع من
تمر، وقال: يارسول الله بث لي لتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما
لأهلي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن يشره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، فقالوا: ما أعطى
عبدالرحمن وعاصم إلا رياءً، وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل، ولكنه أراد أن يذكر بنفسه
ليعطى من الصدقة، فأنزل الله عز وجل: ^(١)

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتبرعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾
يعني: عبدالرحمن بن عوف وعاصماً. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، أي: طاقتهم، يعني: أبا
عقيل. والجهد: الطاقة، بالضم لغة قريش وأهل الحجاز. وقرأ الأعرج بالفتح. قال القتيبي: الجهد
بالضم الطاقة وبالفتح المشقة. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾، يستهزؤون منهم، ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾. أي:
جازاهم الله على السخرية، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، لفظه أمر، ومعناه خبر، تقديره: أستغفرت لهم أم لم
تستغفر لهم لن يغفر الله لهم. ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، وذكر عدد السبعين
للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة.

قال الضحاك: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ رَخَّصَ لِي فَلَا زِيْدَ عَلَى
السَّابِقِينَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ»، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿سِوَاءَ أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ^(٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن غزوة تبوك. والمخلف: المتروك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي بقعودهم ﴿خِلَافَ

(١) انظر: الطبري: ٣٨٣/١٤ - ٣٨٨، الدر المنثور: ٢٤٩/٤ - ٢٥٠.

(٢) الطبري: ٣٩٥/١٤، الدر المنثور: ٢٥٣/٤.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾
 فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى
 طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ
 عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

رسول الله ﷺ، قال أبو عبيدة: أي بعد رسول الله ﷺ. وقيل: مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار وأقاموا،
 ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر﴾، وكانت غزوة تبوك
 في شدة الحر، ﴿قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾، يعلمون وكذلك هو في مصحف
 عبدالله بن مسعود.

﴿فليضحكوا قليلاً﴾، في الدنيا، ﴿وليبكوا كثيراً﴾، في الآخرة. تقديره: فليضحكوا قليلاً
 فسيكون كثيراً، ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين
 العلوي قال: أخبرنا عبدالله بن محمد الحسين الشرقي، حدثنا عبدالله بن هاشم، حدثنا يحيى بن
 سعيد، حدثنا شعبة عن موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ولو
 تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»^(١).

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، حدثنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارث، حدثنا
 أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي^(٢) حدثنا عبدالله بن محمود، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن
 عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك عن عمران بن زيد الثعلبي، حدثنا يزيد الرقاشي، عن
 أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا، فإن لم تستطيعوا فتابكوا، فإن
 أهل النار يكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، ثم تنقطع الدموع، فتسيل
 الدماء فتقرح العيون، فلو أن سَفْنَا أُجريت فيها لَجَرَّت»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: «ولا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»: ٢٨٠/٨، ومسلم في الفضائل، باب توقيفه
 ﷺ، برقم (٢٣٥٩): ١٨٣٢/٤، والمصنف في شرح السنة: ٣٦٨/١٤ - ٣٦٩.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) قال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وأضعف من فيه يزيد الرقاشي، وقد وثق على ضعفه. انظر: المجمع: ٣٩١/١٠، وأخرجه المصنف في
 شرح السنة: ٢٥٢/١٥.

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردك يا محمد من غزوة تبوك، ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾، يعني: من المخلفين. وإنما قال: «طائفة منهم» لأنه ليس كل من تخلف عن غزوة تبوك كان منافقاً، ﴿فَاسْتَأْذِنُوا لِلْخُرُوجِ﴾، معك في غزوة أخرى، ﴿فَقُلْ﴾، لهم ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ في سفر، ﴿وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، في غزوة تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، أي: مع النساء والصبيان، وقيل مع الزمّنى والمرضى .

ب/١٦٢

وقال / ابن عباس: مع الذين تخلفوا بغير عذر .

وقيل : مع الخالفين. قال الفراء : يقال: صاحب خالف إذا كان مخالفاً .

﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. قال أهل التفسير: بعث عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له أهلكك حب اليهود؟ فقال: يا رسول الله إني لم أبعث إليك لتؤنّبني، إنما بعثت إليك لتستغفر لي، وسأله أن يكفنه في قميصه ويصلي عليه .

أخبرنا عبد الواحد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثني الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دُعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبّت إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي بن سلول وقد قال يوم كذا وكذا وكذا؟ أعدّد عليه قوله، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «أخّر عني يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: إني خيّرْتُ فاخترْتُ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها، قال: فصلّي عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾. قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم^(١).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل في حفرة فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث في فيه من ريقه وألبسه قميصه. فإله أعلم وكان كَسَا عَبَّاسًا قَمِيصًا .

قال سفيان: وقال هارون: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال ابن عبد الله: يا رسول الله [ألبسني] قميصك الذي يلي جلدك^(٢).

وروي عن جابر قال: لما كان يوم بدر أتني بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبد الله بن

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين.. ٢٢٨/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعله؟ ٢١٤/٣ .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

أَبِي يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ، فَلِذَلِكَ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ الَّذِي أَلْبَسَهُ عَبْدُ اللَّهِ. قَالَ ابْنُ عَيْنَةَ: كَانَتْ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَدٌ فَأَحَبَّ أَنْ يُكَافِئَهُ (١).

وَرُوي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَلَّمَ فِيمَا فَعَلَ بَعْدَ اللَّهِ بِنِ أَبِي فَقَالَ ﷺ: «وَمَا يَغْنِي عَنْهُ قَمِيصِي وَصَلَاتِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَاللَّهُ إِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يُسَلَّمَ بِهِ أَلْفٌ مِنْ قَوْمِهِ»، وَرُوي أَنَّهُ أَسْلَمَ بِهِ أَلْفٌ مِنْ قَوْمِهِ لَمَّا رَأَوْهُ يَتَبَرَّكُ بِقَمِيصِ النَّبِيِّ ﷺ (٢).

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ وَلَا تَقِفْ عَلَيْهِ، وَلَا تَتَوَلَّ دَفَنَهُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: قَامَ فُلَانٌ بِأَمْرِ فُلَانٍ: إِذَا كَفَاهُ أَمْرُهُ. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾، فَمَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَهَا عَلَى مَنْفَقٍ وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قُبِضَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، ذُووُ الْغِنَى وَالسَّعَةِ مِنْهُمْ فِي الْقَعُودِ، ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، فِي رَحَالِهِمْ. ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، يَعْنِي النِّسَاءَ. وَقِيلَ: مَعَ أَدْنِيَاءِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ. يُقَالُ: فُلَانٌ تَخَالَفَ قَوْمَهُ إِذَا كَانَ دُونَهُمْ. ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ﴾، يَعْنِي:

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْجِهَادِ، بَابُ الْكِسْبَةِ لِلْأَسَارَى: ١٤٤/٦.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ: ٤٠٩/١٤—٤١٠، وَالْحَازَنُ: ١٠٨/٣، وَعَزَاهُ السَّيُوطِيُّ لِأَبِي الشَّيْخِ. انْظُرْ: الدَّرُ الْمَشْهُورُ: ٢٥٩/٤، أَسْبَابُ النُّزُولِ

لِلْوَحْدِيِّ ص (٢٩٥).

وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

الحسنات، وقيل: الجواري الحسان في الجنة. قال الله تعالى: (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)، جمع خَيْرَةٌ^(١)، وحكى عن ابن عباس: أَنَّ [الخَيْر] ^(٢) لا يعلم معناه إلا الله كما قال جل ذكره: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (السجدة - ١٧). ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية، قرأ يعقوب ومجاهد: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتخفيف وهم المبالغون في العذر، يقال في المثل: «لَقَدْ أُعْذِرَ مِنْ أَنْذَرٍ» أي: بالغ في العذر من قدم النذارة، وقرأ الآخرون ﴿المُعَذِّرُونَ﴾ بالتشديد، أي: المقصرون، يقال: عَذَّرَ أي: قصر، وقال الفراء: المعذرون المعتذرون ادغمت التاء في الذال وثقلت حركة التاء إلى العين.

وقال الضحاك: المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم فقالوا: يا نبي الله إنَّ نحنُ غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قَدْ أَنْبَأَنِي اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ»^(٣).

وقال ابن عباس: هم الذين تخلّفوا بعذر بإذن رسول الله ﷺ^(٤).

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، يعني: المنافقين.

قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئاً قوم تكلفوا عذراً بالباطل، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾، وقوم تخلّفوا عن غير تكلف عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى، وهم

(١) قال الطبري: «الخيرات»: هي خيرات الآخرة، وذلك، نساؤها، وجناتها، ونعيمها. وأحدثها: «خَيْرَةٌ»، كما قال الشاعر:
وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرِّبَالِ رِبَالَاتٍ هُنْدٍ خَيْرَةَ الْمَلِكَاتِ
و«الخيرة» من كل شيء، الفاضلة.

انظر: تفسير الطبري: ٤١٤/١٤-٤١٥.

(٢) في «أه»: (الخيرات).

(٣) انظر: البحر المحيط: ٨٤/٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤١٨/١٤.

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ
حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾

المنافقون فأوعدهم الله بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم ذكر أهل العذر، فقال
جلّ ذكره :

﴿ليس على الضعفاء﴾، قال ابن عباس: يعني الرثمنى والمشايخ والعجزة. وقيل: هم الصبيان وقيل:
النسوان، ﴿ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾، يعني الفقراء ﴿حرج﴾، مأثم.
وقيل: ضيق في القعود عن الغزو، ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾، في مغيهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله
وبايعوا الرسول. ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾، أي: من طريق بالعقوبة، ﴿والله غفور رحيم﴾.
قال قتادة: نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه^(١).

وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضريب البصر^(٢).

قوله تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾، معناه: أنه لا سبيل على الأولين ولا على هؤلاء
الذين أتوك وهم سبعة نفر سُموا البكّائين: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب
الأنصاري، وعُبلبة^(٣) بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة^(٤)، وعبد الله بن مَعْقِل المزني،
أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا^(٥).

واختلفوا في قوله: ﴿لتحملهم﴾ قال ابن عباس: سألوهم أن يحملهم على الدواب.

وقيل سألوهم أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال / المخصوفة، ليغزوا معه فقال النبي ﷺ: «لا
أجد ما أحملكم عليه» تولّوا، وهم ييكون، فذلك قوله تعالى: ﴿تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً
أن لا يجدوا ما ينفقون﴾.

(١) انظر: الطبري: ٤٢٠/١٤.

(٢) قارن بالدر المنثور: ٢٦٢/٤.

(٣) في الأصل: (عُبلبة)، وفي المطبوع: (عُبلبة). والتصويب من الروض الأنف للسيوطي: ٣٢١/٢.

(٤) في (أه) (عشمه).

(٥) أخرجه الطبري: ٤٢٣/١٤، وانظر: السيرة لابن هشام: ٥١٨/٢، أسباب النزول للواحدي ص (٢٩٦)، إمتاع الأسماع للمقريزي:

٤٤٨/١.

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٩٣ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ
 إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ
 وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيَنْبِتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٩٤ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
 لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴾ ٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ
 اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ٩٦

﴿إنما السبيل﴾، بالعقوبة، ﴿على الذين يستأذنونك﴾، في التخلف ﴿وهم أغنياء رضوا بأن﴾
 يكونوا مع الخوالف ﴿مع النساء والصبيان﴾، ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ .
 ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾، يروى أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة
 وثمانين نفراً، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا يعتذرون بالباطل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ
 تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾، لن نصدقكم، ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾، فيما سلف، ﴿وسيرى الله عملكم﴾
 ورسوله، في المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾
 فَيَنْبِتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، ﴿لتعرضوا عنهم﴾،
 لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم، ﴿فأعرضوا عنهم﴾، فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، ﴿إنهم﴾
 رجسٌ ﴿نجس أي: إن عملهم قبيح﴾، ﴿وماؤاھم﴾، في الآخرة، ﴿جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ .
 قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين.
 فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» (١).

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه
 بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، ونزل: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ

(١) انظر الرواية عن ابن عباس مطولة في: الطبري: ٤٢٦/١٤-٤٢٧. وقوله ﷺ: «لا تجالسوهم...» عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي
 الشيخ. انظر: الدر المنثور: ٢٦٦/٤ .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾ .

﴿الأعراب﴾، أي: أهل البدو، ﴿أشدُّ كفرًا ونفاقًا﴾، من أهل الحضر، ﴿وأجدد﴾، أخلق وأحرى، ﴿ألا يعلموا حدودَ ما أنزلَ الله على رسوله﴾، وذلك لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السنن، ﴿والله عليم﴾ بما في قلوب خلقه ﴿حكيم﴾ فيما فرض من فرائضه .

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾. قال عطاء: لا يرجو^(٢) على إعطائه ثواباً، ولا يخاف على إمساكه عقاباً، إنما ينفق خوفاً أو رياءً. والمغرم التزام ما لا يلزم. ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾، ينتظر ﴿بكم الدوائر﴾ يعني: صروف الزمان، التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر. وقال يمان بن رباب: يعني ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون، ﴿عليهم دائرة السوء﴾ [عليهم]^(٣) يدور البلاء والحزن، ولا يرون في محمد ودينه إلا ما يسوءهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرة السوء﴾ هاهنا وفي سورة الفتح، بضم السين، معناه: الضر والبلاء والمكروه. وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر. وقيل: بالفتح الردة والفساد، وبالضم الضر والمكروه .

﴿والله سميعٌ عليم﴾. نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم^(٤). ثم استثنى فقال:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، قال مجاهد: هم بنو مُقَرَّن من مُزينة. وقال الكلبي: أسلم وغفار وجُهيينة .

(١) انظر: البحر المحيط: ٩٠-٨٩/٤ .

(٢) في «ب»: (يرجون... يخافون) .

(٣) ساقط من «أ» .

(٤) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٢٩٧)، الدر المنثور: ٢٦٦/٤ .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنبأنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، أنبأنا عبدالرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُسْلِمَ وَغَفَارٌ وَشِيءٌ مِنْ جُهَيْنَةَ وَمُزَيْنَةَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَمِيمٍ وَأَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ وَهَوَازَنَ وَغُطَفَانَ» (١).

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾، القربات جمع القرية، أي: يطلب القرية إلى الله تعالى، ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾، أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء: يرغبون في دعاء النبي ﷺ. ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾. قرأ نافع برواية ورش «قُرْبَةٌ» بضم الراء، والباقون بسكونها. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، في جنته، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية. قرأ يعقوب بالرفع عطفاً على قوله: «وَالسَّابِقُونَ».

واختلفوا في السابقين الأولين، قال سعيد بن المسيب، وقتادة، وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلّوا إلى القبلتين.

وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر.

وقال الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكانت بيعة الرضوان بالحديبية.

واختلفوا في أول من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة، مع اتفاقهم على أنها أول من آمن برسول الله ﷺ. فقال بعضهم: أول من آمن وصلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قول جابر، وبه قال مجاهد وابن إسحاق، أسلم وهو ابن عشر سنين.

وقال بعضهم: أول من آمن بعد خديجة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي.

وقال بعضهم: أول من أسلم زيد بن حارثة، وهو قول الزهري وعروة بن الزبير.

وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب ذكر أسلم... ٥٤٣/٦، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل غفار، برقم (٢٥٢١): ١٩٥٥/٤، والمصنف في شرح السنة: ٦٥/١٤.

رضي الله عنه، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن العبيد زيد بن حارثة .

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها، وكان تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فأسلم على يديه — فيما بلغني — : عثمان بن عفان، والزيير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلّوا، فكان هؤلاء الثمانية نفر الذين سبقوا إلى الإسلام^(١). ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام، أما السابقون من الأنصار: فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا ستة^(٢) في العقبة الأولى، وسبعين في الثانية، والذين آمنوا حين قدم عليهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن، فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان .

قوله عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا أوطانهم. ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ أي: ومن الأنصار، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة وآووا أصحابه، ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾. قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى / السابقين الأولين.

١٦٣ ب

وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصر إلى يوم القيامة .

وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء.

وقال أبو صخر حميد بن زياد: أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟ فقال: يا هذا اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة .

قال أبو صخر: فكأنني لم أقرأ هذه الآية قط^(٣) .

روينا أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً

(١) انظر: سورة ابن هشام: ٢٤٩/١-٢٥٢ (طبعة الحلبي) .

(٢) في (أ): (سبعة) .

(٣) عزاه السيوطي في الدرر: ٢٧٢/٤ لأبي الشيخ وابن عساكر .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّو أَعْلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

ما أدرك مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» (١).

ثم جمعهم الله عز وجل في الثواب فقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، قرأ ابن كثير: (من تحتها الأنهار)، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾، وهم من مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون، ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾، أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون، ﴿مَرَدُّو أَعْلَى النِّفَاقِ﴾، أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرد فلان على ربه أي: عتا ومرد على معصيته. أي: مرن وثبت عليها واعتادها. ومنه: المرید والمارد. قال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيره.

وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾، أنت يا محمد، ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾، اختلفوا في هذين العذابين. قال الكلبي والسدي: قام النبي ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أَخْرِجْ يَافِلَانِ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ أَخْرَجَ يَافِلَانِ. أَخْرَجَ نَاسًا مِنَ الْمَسْجِدِ وَفَضَحَهُمْ، فَهَذَا هُوَ الْعَذَابُ الْأَوَّلُ. وَالثَّانِي: عَذَابُ الْقَبْرِ» (٢).

وقال مجاهد: الأول: القتل والسبي، والثاني: عذاب القبر. وعنه رواية أخرى: عُدُّبُوا بِالْجُوعِ مَرَّتَيْنِ. وقال قتادة: الدُّبِيلَةُ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْقَبْرِ.

وقال ابن زيد: الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأخرى عذاب الآخرة.

وعن ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم، والأخرى عذاب القبر.

وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسيبة ثم عذاب القبر.

وقيل: إحداها ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأخرى عذاب القبر.

وقيل الأولى إحراق مسجدهم، مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم (٣). ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى

عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، أي: إلى عذاب جهنم يخلدون فيه.

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً...» ٢١/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، برقم (٢٥٤١): ٤/١٩٦٧-١٩٦٨، والمصنف في شرح السنة: ٦٩/١٤.

(٢) أخرجه الطبري من رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس: ٤٤١/١٤، وعزاه الهيثمي للطبراني في الأوسط أيضاً، وقال: فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد: ٣٤/٧.

(٣) انظر هذه الأقوال في: الطبري: ٤٤١/١٤-٤٤٥، الدر المنثور: ٢٧٤/٤.

قال الطبري رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق =

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ﴾، أي: ومن أهل المدينة، أو: من الأعراب آخرون، ولا يرجع هذا إلى المنافقين، ﴿اعترفوا﴾، أقرّوا، ﴿بذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾، وهو إقرارهم بذنوبهم وتوبتهم ﴿وَأَخَرَ سَيِّئًا﴾، أي: بعمل آخر سيء، وضع الواو موضع الباء، كما يُقال: خلطت الماء واللبن، أي: باللبن . والعمل السيء: هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ .

والعمل الصالح: هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري وقيل: غزواتهم مع النبي ﷺ . ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، نزلت هذه الآية في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندموا على ذلك، وقالوا: نكون في الظلال مع النساء، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد والألواء! فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نُطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ويعدّرنّا، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلما رجع رسول الله ﷺ مرّ بهم فرآهم فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله عزّ وجلّ أن لا يُطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين! فأنزل الله هذه الآية فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتُنا عنك فنصدق بها وطهرتُنا واستغفر لنا فقال رسول الله ﷺ: «ما أمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية (١) .

واختلفوا في أعداد هؤلاء التائبين، فروي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانوا عشرة منهم أبو لبابة. وروى عطية عنه: أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال الضحاك وقتادة: كانوا سبعة. وقالوا جميعاً: أحدهم أبو لبابة (٢) . وقال قوم: نزلت في أبي لبابة خاصة. واختلفوا في ذنبه، قال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقة (٣) .

= مرتين، ولم يضع لنا دليلاً يوصل به إلى علم صفة ذنوب العذابين - وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأيّ ذلك من أيّ. غير أن في قوله جلّ ثناؤه: «ثم يردّون إلى عذاب عظيم»، دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر .

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٧/١٤-٤٥٠، أسباب النزول ص (٢٩٧-٢٩٨) .

(٢) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ٤٤٧/١٤-٤٥٠، الدر المنثور: ٢٧٥/٤ وما بعدها .

(٣) الطبري: ٤٥١/١٤-٤٥٢ .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

وقال الزهري: نزلت في تخلفه عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية، وقال والله لا أحل نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً، حتى أموت أو يتوب الله علي! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ف قيل له: قد تيب عليك!، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء النبي ﷺ فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: يُجزيك يا أبا لبابة الثلث^(١).

قالوا جميعاً: فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين، لأن الله تعالى قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، ولم يقل: خذ أموالهم. قال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا.

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾، بها من ذنوبهم، ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، أي: ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين. وقيل: تنمي أموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: آذغ لهم واستغفر لهم. وقيل: هو قول الساعي [للمصدق]^(٢) إذا أخذ الصدقة منه. آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك

فيما أبقيت. والصلاة في اللغة: الدعاء. ﴿إِنْ صَلَاتُكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: / «صلاتك» على التوحيد ١٦٤ / أ.

ونصب التاء هاهنا، وفي سورة هود «أصلاتك» وفي سورة المؤمنين «على صلاتهم» [كلهن على التوحيد]^(٣)، وأفقههما حفص هاهنا وفي سورة هود. وقرأ الآخرون بالجمع فيهن ويكسرون التاء هاهنا.

﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾، أي: إن دعائك رحمة لهم. قاله ابن عباس. وقيل: طمأنينة لهم، وسكون لهم، أن الله عز وجل قد قبل منهم. وقال أبو عبيدة: تثبّت لقلوبهم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة: قال بعضهم: يجب. وقال بعضهم: يستحب. وقال بعضهم: يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوع. وقيل يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله ابن أبي أوفى — وكان من أصحاب الشجرة — قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قومه بصدقة قال: «اللهم صلّ عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»^(٣).

(١) الطبري: ٤٥٢/١٤.

(٢) زيادة من المطبوع، يقتضيا السياق.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة: ٣/٣٦١، ومسلم في الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة،

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ
إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

وقال ابن كيسان : ليس هذا في صدقة الفرض إنما هو في صدقة كفارة اليمين .
وقال عكرمة : هي صدقة الفرض، فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء
كانوا معنا بالأمس لا [يُكَلِّمُونَ] ^(١) ولا يُجَالِسُونَ، فما لهم؟ فقال تعالى :
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾، أي : يقبلها، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس محمد
ابن يعقوب الأصم، أنبأنا الربيع بن سليمان، أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن ابن عجلان،
عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول : «والذي نفسي بيده
ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً ولا يصعد إلى السماء إلا طيب إلا
كأنما يضعها في يد الرحمن عز وجل فيريها له كما يربي أحدكم فلوه، حتى أن اللقمة لتأتي يوم القيامة وإنها
لمثل الجبل العظيم، ثم قرأ : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ^(٢) .
قوله تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، قال مجاهد : هذا وعيد لهم . قيل : رؤية النبي عليه السلام بإعلام الله
تعالى إياه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة هل الفساد .

قوله تعالى : ﴿وَأَخْرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، قرأ
أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر : «مرجون» بغير همز، والآخرون : بالهمز، والإرجاء : التأخير، مرجون :
مؤخرون . لأمر الله : لحكم الله عز وجل فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصتهم من بعد : كعب بن مالك،

= برقم (١٠٧٨) : ٧٥٦/٢-٧٥٧، والمصنف في شرح السنة : ٤٨٥/٥ .

(١) في «ب» : يكلمون .

(٢) أخرجه الشافعي بإسناد حسن : المسند : ٢٢٠/١، والمصنف في شرح السنة : ١٣١/٦، وصححه الحاكم على شرط الشيخين

٣٣٥/٢، وأصل معنى الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه . انظر : تعليق الشيخ شاذلي الطبري :

٢٠-١٨/٦ .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم^(١) ومخالطتهم، حتى شقهم القلق وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، وكانوا من أهل بدر فجعل أناس يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مُرَجَّئِينَ لأمر الله [لا يدرون]^(٢) أيعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، قرأ: أهل المدينة والشام «الذين» بلا واو، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون: «والذين» بالواو. ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين، بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق: وديعة بن ثابت، وجذام بن خالد، ومن داره أُخْرِجَ هذا المسجد، وثعلبة بن حاطب، وجارية بن عامر، وابناه مجمع وزيد، ومعتب بن قشير، وعباد بن حنيفة أخو سهل بن حنيف، وأبو حبيبة بن الأزعر، ونبث بن الحارث، وبجاد ابن عثمان، ورجل يقال له: بَحْرَجُ^(٤) بنوا هذا المسجد ضراراً، يعني: مضارةً للمؤمنين، ﴿وَكُفْرًا﴾، بالله ورسوله، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنهم كانوا جميعاً يصلُّون في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضُّرَّار، ليصلي فيه بعضهم، فيؤدي ذلك إلى الاختلاف واقتراق الكلمة، وكان يصلي بهم مجمع بن جارية.

فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي بنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني على جناح سفر، ولو قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ فصلينا لكم فيه»^(٥).

(١) في «أ»: (مخالطتهم).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) انظر: الطبري: ٤٦٦/١٤، أسباب النزول ص (٢٩٨).

(٤) في «أ»: (بحدج) وفي «ب»: «بخرج» والمثبت من الطبري: ٤٦٩/١٤، ٤٧١ مع تعليق الشيخ محمود شاكر.

(٥) انظر في قصة مسجد الضرار: الطبري: ٤٦٨/١٤-٤٧٥، أسباب النزول ص (٢٩٨-٣٠٠)، سيرة ابن هشام: ٥٣٠/٢، الدر

المشور: ٤٨٢/٤ وما بعدها، وضعفه الألباني في تخریج «فقه السيرة» للغزالي ص (٤٢٧).

وقال ابن حجر: ذكره الثعلبي بغير إسناد.... وفي سياق الطبري: أن النبي ﷺ بعث مالك بن الدخشم ومعن بن عدي. ولم يذكر وحشياً وعامر بن السكن. ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق، قال: ذكر الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري؛ فذكر نحوه.

﴿وَإِصْرَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله. يقال: أرصدت له: إذا أعددت له. وهو أبو عامر الراهب وكان أبو عامر هذا رجلاً منهم، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المُسُوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئت به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال أبو عامر: فإنّا عليها، فقال النبي ﷺ: «إنك لست عليها»، قال: بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبي ﷺ: «ما فعلت ولكني جئت بها ببضاء نقية»، فقال أبو عامر: أمت الله الكاذب متاً طريداً وحيداً غريباً، فقال النبي ﷺ «آمين». وسماه أبا عامر الفاسق.

فلما كان يوم أحد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين، فلما انهزمت هوازن يثس وخرج هارياً إلى الشام فأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وأبثوا لي مسجداً فإني ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم فأت بجندٍ من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِصْرَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهو أبو عامر الفاسق، ليصلي فيه إذا رجع من الشام.

قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يرجع إلى أبي عامر يعني حارب الله وسوله من قبل أي: من قبل بناء مسجد الضرار.

﴿وَلِيُخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾، ما أردنا بينائه، ﴿إِلَّا الْحُسْنَى﴾، إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، في قيلهم وحلفهم. روي أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ٨٦٤ ب ونزل بذي أوان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا / بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُخْشُم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشيّاً قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المساجد الظالم أهلها فاهدموه واحرقوه، فخرجوا سريعاً حتى أتوا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُخْشُم، فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي، فدخل أهلها فأخذ سَعَفاً من النخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجوا يشتدون، حتى دخلوا المسجد وفيه أهلها، فحرقوه وهدموه، وتفرق عنه أهلها، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة. ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً.

= وأما كونهم بنوه بسبب أبي عامر الراهب: فرواه ابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: الكافي الشاف ص (٨١).

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ
رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾

وروي أن بني عمرو بن عوف، الذين بنوا مسجد قباء، أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لجمع بن حارثة فيؤمهم في مسجدهم، فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له جمع: يا أمير المؤمنين: لا تعجل علي، فوالله لقد صليت فيه وإني لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون القرآن فصليت ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله تعالى، ولم أعلم ما في أنفسهم، فعذره عمر وصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء. قال عطاء: لما فتح الله على عمر الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في مدينتهم مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، قال ابن عباس: «لا تُصَلِّ فيه» منع الله تعالى نبيه ﷺ أن يصلي في مسجد الضرار. ﴿الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾، اللام لام الابتداء. وقيل: لام القسم، تقديره: والله لمسجد أسس، أي: بُني أصله على التقوى، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، أي: من أول يوم بُني ووضع أساسه، ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، مصلياً.

واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى: فقال ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري: هو مسجد المدينة، مسجد الرسول ﷺ، والدليل عليه:

ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا يحيى بن سعيد، عن حميد الخراط قال: سمعت أبا سلمة عبد الرحمن قال: مررتي عبد الرحمن بن أبي سعيد، قال: فقلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من الحصباء فضرب به الأرض، ثم قال: هو مسجدكم هذا، مسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره^(١). وأخبرنا أبو الحسن الشيرازي، أنبأنا زاهر بن أحمد، أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي، أنبأنا أبو مصعب، عن مالك عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، برقم (١٣٩٨): ١٠١٥/٢.

(٢) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر: ٧٠/٣، ومسلم في الحج، باب ما بين =

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ
بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾

وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء، وهو رواية عطية عن ابن عباس، وهو قول عروة بن الزبير [وسعيد بن جبيل] ^(١) وفتادة:

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبدالعزيز بن مسلم، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً، وكان عبدالله بن عمر يفعله ^(٢). وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ فيصلي فيه ركعتين ^(٣).

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾، من الأحداث والجنابات والنجاسات. وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة.

أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبدالعزيز القاشاني، أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبدالواحد الهاشمي، أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، أخبرنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء»: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: «كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية» ^(٤). ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾، أي المتطهرين.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ قرأ نافع وابن عامر «أُسَّسَ» بضم الهمزة وكسر السين، «بنيانه» برفع النون فيها جميعاً على غير تسمية الفاعل. وقرأ الآخرون «أُسَّسَ» فتح الهمزة والسين، «بنيانه»: بنصب النون،

= القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، برقم (١٣٩١): ١٠١١/٢. والمصنف في شرح السنة: ٢٣٨/٢.

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري، في الموضع السابق: ٦٩/٣، ومسلم في الحج، باب فضل مسجد قباء، برقم (١٣٩٩): ١٠١٦/٢-١٠١٧.

(٣) في رواية مسلم في الموضع السابق.

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب الاستنجاء بالماء: ٣٩/١، والترمذي في تفسير سورة التوبة: ٥٠٣/٨، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي أيوب وأنس بن مالك ومحمد بن عبدالله بن سلام، وأخرجه ابن ماجه في الطهارة، باب الاستنجاء بالماء، برقم (٣٥٧). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٨٦).

وانظر: تلخيص الحبير: ١١٢/١-١١٣، خلاصة البدر المنير لابن الملقن: ٥٠/١.

لَا يَزَالُ بُنِيَائُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ
 الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنَلُونَ وَيُقْنَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي
 التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
 بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

على تسمية الفاعل. ﴿على تقوى من الله ورضوان خير﴾، أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى
 خير ﴿أم من أسس بنيانه على شقاء﴾: على شفير، ﴿جُرْف﴾؟ قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «جُرْف»
 ساكنة الراء، وقرأ الباقر بضم الراء وهما لغتان، وهي البئر التي لم تُطَو. قال أبو عبيدة: هو الهوة وما يجرفه
 السيل من الأودية فينجرف^(١) بالماء فيبقى واهياً، ﴿هَارٍ﴾، أي: هائرو هو الساقط يقال: هار يهور فهو
 هائر، ثم يقلب فيقال: هار مثل شاك وشائك وعاق وعائق. وقيل: هو من يهار: إذا انهدم، ومعناه:
 الساقط الذي يتداعى بعضه في إثر بعض، كما ينهار الرمل والشيء الرخو. ﴿فأنهار به﴾، أي: سقط
 بالبابي ﴿في نار جهنم﴾، يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها. قال
 ابن عباس رضي الله عنهما: يريد صيرهم النفاق إلى النار.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، قال قتادة^(٢): والله ما تناهى أن وقع في النار، وذكر لنا أنه حفر
 بقعة فيه، فرؤي الدخان يخرج منها. وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار^(٣).
 ﴿لا يزال بنيائهم الذي بنوا ريبة﴾، أي: شكاً ونفاقاً، ﴿في قلوبهم﴾، يحسبون أنهم كانوا في
 بنيانه مُحْسِنِينَ كما حُبب العجل إلى قوم موسى. قال ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الكلبي: حسرة
 وندامة لأنهم ندموا على بنائه. وقال السدي: لا يزال هدم بنائهم ريبة وحزاةً وغيظاً في قلوبهم.

﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾، أي: تتصدع قلوبهم فيموتوا. قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وحمزة، وحفص:
 «تَقَطَّعَ» بفتح التاء أي: تنقطع. والآخرون بضمها. وقرأ يعقوب وحده: «إلى أن» خفيف، على الغاية،
 «تَقَطَّعَ» بضم التاء، خفيف، من القطع يدل عليه تفسير الضحَّاك و قتادة: لا يزالون في شك منه إلى أن

(١) في «ب» (فينحفر). أي: يصير فيها حفرة.

(٢) تفسير الطبري: ٤٩٢/١٤ - ٤٩٣.

(٣) أخرجه الطبري: ٤٩٥/١٤، وصححه الحاكم: ٥٩٦/٤ ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

الدر المنثور: ٢٩٢/٤، وعزاه ابن حجر في المطالب العالية: ٣٤٠/٣ لمُسَدَّدَ بزيادة.

الَّتِي بُونَ الْعِبَادُونَ الْحَمْدُونَ السَّيِّحُونَ الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾
يَمُوتُوا فَيَسْتَيَقِنُوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية. قال محمد بن كعب القرظي: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة / بمكة وهم سبعون نفساً، قال عبدالله بن رواحة: يارسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

فقال: اشترط لربي عز وجل: أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي، أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم .

قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟

قال: الجنة، قالوا: ربيع البيع لانقيلاً ولا نستقيل^(١) فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾^(٢) .
وقرأ الأعمش: ﴿بالجنة﴾ .

﴿يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «فَيَقْتُلُونَ» بتقديم المفعول على الفاعل بمعنى يقتل بعضهم بعضاً، ويقتل الباقون. وقرأ الآخرون بتقديم الفاعل. «وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا» أي: ثواب الجنة لهم وعدّ حقّ ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، يعني أنّ الله عزّ وجلّ وعدهم هذا الوعد، وبينه في هذه الكتب. وقيل^(٣) فيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة، ثم هنأهم فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا﴾، فافرحوا ﴿بِيعْكُمْ﴾ الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم، قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ بايعك وجعل الصفقتين لك .
وقال قتادة ثأمتهم الله عزّ وجلّ فأغلى لهم^(٤) .

وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيعة بايع الله بها كل مؤمن. وعنه أنه قال: إنّ الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها .

ثم وصفهم فقال: ﴿التَّائِبُونَ﴾، قال الفراء: استؤنفت بالرفع تمام الآية وانقطاع الكلام. وقال

(١) «أقاله البيع يقيهله إقالة» و«تقابل البيعان»: إذا فسحوا البيع، وعاد المبيع إلى مالكه، والتمن إلى المشتري، إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما. وتكون «الإقالة» في البيعة والعهد. و«استقاله»: طلب إليه أن يقيهله .

(٢) أخرجه الطبري: ٤٩٩/١٤ . وأنظر: الكافي الشاف ص (٨١) أسباب النزول ص (٣٠٠) .

(٣) قيل: ساقطة من «أ» .

(٤) «ثأمت الرجل في المبيع»: إذا قاولته في ثمنه وفأوضته، وسأومته على بيعه واشترائه وأنظر: الطبري: ٤٩٩/١٤ .

الرَّجَاج: التائبون رفع للابتداء، وخبره مضمر. المعنى: التائبون — إلى آخر الآية — لهم الجنة أيضاً. أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد، لأنَّ بعض المسلمين يُجزّي عن بعض في الجهاد، [فمن كانت هذه صفته] ^(١) فله الجنة أيضاً، وهذا أحسن، فكأنه وعد الجنة لجميع المؤمنين، كما قال: «وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنِي» (النساء — ٩٥)، فمن جعله تابعاً للأول كان الوعد بالجنة خاصاً للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفة ^(٢).

قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾ أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عز وجل ﴿الْحَامِدُونَ﴾، الذين يحمدون الله على كل حال في السراء والضراء. وروينا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يُدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء» ^(٣). ﴿السَّائِحُونَ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: هم الصائمون ^(٤).

وقال سفيان بن عيينة: إنما سُمي الصائم سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح. وقال عطاء: السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله. روي عن عثمان بن مظعون، رضي الله عنه، أنه قال: يارسول الله أئذن لي في السياحة، فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» ^(٥). وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، يعني: المصلين، ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، بالإيمان، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك. وقيل: المعروف السنة والمنكر البدعة. ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾، القائمون بأوامر الله. وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) ما بين القوسين في «ب».

(٢) في «ب»: الصفات.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک: ٥٠٢/١ وصححه على شرط مسلم، وأبو نعيم في الحلية: ٦٩/٥، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الثلاثة، بأسانيد، وفي أحدها: قيس بن الربيع: وثقه شعبة والثوري وغيرهما، وضعفه يحيى القطان وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه، وإسناده حسن، مجمع الزوائد: ٩٥/١٠. وأخرجه المصنف في شرح السنة: ٥٠/٥، وفي مسنده حبيب بن أبي ثابت، مدلس وقد عنعن.

(٤) روي مرفوعاً وموقوفاً. والموقوف صحيح. انظر: الطبري: ٥٠٢/١٤-٥٠٤، الدر المنثور: ٢٩٧/٤-٢٩٨، تفسير ابن كثير: ٣٩٣/٢.

(٥) حديث ضعيف رواه الطبراني، وفيه: معلى بن هلال، وهو متروك. والمصنف في شرح السنة: ٣٧٠/٢-٣٧١، ورواه أبو داود في الجهاد من طريق أبي أمامة. وفي إسناده: رشدين بن سعد. وانظر: مجمع الزوائد: ٢٥٤/٤ فقد روى الهيثمي أوله، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: ٤٧٩/٣.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ
مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية . قال قوم: سبب نزولها: ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه. قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال: أي عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويُعِيدان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: والله لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني ومحمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا يزيد بن كيسان، حدثني أبو حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تُعَيِّرَنِي قريش، فيقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل [ثنا عبد الله بن يوسف]^(٣) حدثني الليث حدثني يزيد بن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ، وذكر عنده عمه فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يلغ كعبه يغلي منه دماغه»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله: ٢٢٢/٣، وفي مناقب الأنصار: ١٩٣/٧، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضو الموت ما لم يشرع في النزاع، برقم (٢٤): ٥٤/١، والمصنف في شرح السنة: ٥٥/٥.

(٢) أخرجه مسلم، في الموضع السابق: ٥٥/١.

(٣) ساقط من «أ» واستدركتاه من الصحيح.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الأنصار، باب قصة أبي طالب: ١٩٣/١، وفي الرقاق: ٤١٧/١١، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب... برقم (٢١٠): ١٩٥/١، والمصنف في شرح السنة: ٢٤١/١٥.

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ
لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

وقال أبو هريرة وبريدة: لما قدم رسول الله ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حمت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (١) الآية .

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، حدثنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنبأنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي عز وجل في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور، فإنها تذكّر الموت» (٢) .

قال قتادة قال النبي ﷺ: «لأستغفرن لأبي. كما استغفر إبراهيم لأبيه» فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٣) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أنزل الله عز وجل خبراً عن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: «سلام عليك سأستغفر لك ربي» سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فقلت له: / تستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ»، إلى قوله: «إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» (٤) (المتحنة - ٤) . قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾، قال بعضهم: الهاء في إياه عائدة إلى إبراهيم عليه السلام. والوعد كان من أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمت .

وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب، وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه. وهو قوله: «سأستغفر لك ربي». يدل عليه قراءة الحسن: «وعدها أباه»، بالباء الموحدة .

(١) أخرجه الطبري عن سليمان بن بريدة عن أبيه: ٥١٢/١٤، والإمام أحمد في المسند: ٣٥٩/٥ مطولاً وبغير هذا اللفظ .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، برقم (٩٧٧): ٦٧٢/٢ .

(٣) أخرجه الطبري مطولاً: ٥١٣/١٤ .

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، سورة التوبة: ٥٠٥/٨، وقال: هذا حديث حسن، وفيه: فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ وصححه الحاكم: ٣٣٥/٢، وأخرجه أحمد والنسائي وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبخاري. انظر: الكافي الشاف ص (٨٢) تحفة الأحوذى: ٥٠٥/٨ .

والدليل على أن الوعد من إبراهيم، وكان الاستغفار في حال شرك الأب، قوله تعالى: «قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم»، إلى أن قال: «إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» (المتحنة - ٤) فصرّح أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار، وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم .
«فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ»، لموته على الكفر، «تَبَرَّأَ مِنْهُ»، وقيل: فلما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه [أي: يتبرأ منه] (١)، وذلك ما:

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن عبدالله، حدثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترَةٌ وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم عليه السلام: يارب إنك وعدتني أن لا تُخزيني يوم يُعْتَنُونَ، فأني خزي أخزي مَنْ أُنْبِيَ الأبعد؟ فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال يا إبراهيم: ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيبح (٢) مُلتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» (٣) وفي رواية: يتبرأ منه يومئذ .

قوله تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ»، اختلفوا في معنى الأواه، جاء في الحديث: «إن الأواه الخاشع المتضرع» (٤).

وقال عبدالله بن مسعود: الأواه الدُّعاء .

وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التواب.

وقال الحسن وقتادة: الأواه الرحيم بعباد الله.

وقال مجاهد: الأواه الموقن .

وقال عكرمة: هو المستيقن بلغة الحبشة .

وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: آه من النار، قبل أن لا ينفع آه .

وقيل: هو الذي يتأوه من الذنوب .

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ» .

(٢) هكذا في الأصل. وفي البخاري «بذبح» وهو كذلك في شرح السنة. والذبح: الضبع الذكر .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب واتخذ الله إبراهيم خليلاً: ٣٨٦/٦-٣٨٧، وفي تفسير سورة الشعراء، والمصنف في شرح السنة: ١١٨/١٥-١١٩ .

(٤) أخرجه الطبري: ٥٣١/١٤، ٥٣٢، وعزه السيوطي أيضاً لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن شداد بن الهاد. وهو تابعي ثقة، فالحديث مرسل، وفي سند الحديث: عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، وهو ثقة، متكلم في روايته عن شهر. انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: ٥٣٢/١٤ .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

وقال عقبة بن عامر: الأَوَّاهُ الكثير الذكر لله تعالى.

وعن سعيد بن جبير قال: الأَوَّاهُ المسبِّح. ورُوي عنه: الأَوَّاهُ: المعلم للخير.

وقال النخعي: هو الفقيه.

وقال عطاء: هو الراجع عن كل ما يكره الله. وقال أيضاً: هو الخائف من النار.

وقال أبو عبيدة: هو المتأَوِّه شَفَقاً وَفَرَقاً المتضرع يقيناً. يريد أن يكون تضرعه يقيناً ولزوماً للطاعة.

قال الزجاج: قد انتظم في قول أبي عبيدة أكثر ما قيل في الأَوَّاه.

وأصله: من التأَوَّه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء، والفعل منه أَوَّه وتَأَوَّه، والحليم الصفوح عمن سبه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه، عند وعيده، وقوله: «لئن لم تنته لأرجمك واهجرني ملياً سلام عليك سأستغفر لك ربّي» (مريم - ٤٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الحليم السيد^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ الآية. معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بترك الأوامر باستغفاركم للمشركين، ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، يريد حتى يتقدم إليكم بالنهي، فإذا تبين ولم تأخذوا به فعند ذلك تُستحقُّون الضلال.

قال مجاهد^(٢): بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا.

وقال الضحاك: ما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون.

وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ وذلك أن قوماً قدموا على النبي ﷺ فأسلموا، ولم تكن الخمر حراماً، ولا القبلة مضروفة إلى الكعبة، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة، ولا علم لهم بذلك، ثم قدموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حُرِّمَتْ والقبلة قد صُرِّفَتْ، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضلَّال؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾^(٣)، يعني: ما كان الله ليبطل عمل قوم قد علموا بالمنسوخ حتى يتبين^(٤) لهم الناسخ. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ثم عظم نفسه فقال:

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ٥٢٣/١٤ وما بعدها - وقد رجح أن الصواب هو ما قاله عبدالله بن مسعود الذي رواه عنه زر: أنه الدعاء - والدر المنثور: ٣٠٧-٣٠٥/٤.

(٢) الطبري: ٥٣٦-٥٣٧/١٤.

(٣) انظر: زاد المسير: ٥١٠/٣، البحر المحيط: ١٠٦/٥.

(٤) في «ب» (يبين).

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يحكم بما يشاء، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ .

قوله عز وجل : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية، تاب الله أي: تجاوز وصفح. ومعنى توبته على النبي ﷺ بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه. وقيل: افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم، كقوله تعالى: «فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ» (الأنفال - ٤١)، ونحوه. ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعة بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة. والعسرة: الشدة، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظهر والزد والماء . قال الحسن: كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه، يركب الرجل ساعة، ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير، وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهما أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها، ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم، ولا يبقى من التمرة إلا النواة، فمضوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك على صدقهم وبقينهم (١) .

وقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع النبي ﷺ إلى تبوك في قيط شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فاذعُ الله لنا.. قال: «أتحب ذلك؟» قل: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت، فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جازت (٢) العسكر (٣) . ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ قرأ حمزة وحفص: «يزيغ» بالياء لقوله: «كاد»

(١) انظر: البحر المحيط: ١٠٨/٥، المحرر الوجيز: ٦٩/٧ .

(٢) في «ب»: (حادث) .

(٣) أخرجه الطبري: ٥٤١/١٤، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: ١٥٩/١، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص (١٩٠) باب ذكر ما

كان في غزوة تبوك .

ولم يقل: كادث. وقرأ الآخرون بالتاء. والريغ: الميل، أي: من بعد ما/كاد تميل، ﴿قلوب فريق منهم﴾، ١٦٦/أ، أي: قلوب بعضهم، ولم يُردِّ الميل عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف للشدة التي عليهم. قال الكلبي: هم ناسٌ بالتخلف ثم لحقوه.

﴿ثم تاب عليهم﴾، فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾؟.

قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عز وجل، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها.

﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾. قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبداً. قوله عز وجل: ﴿وعلى الثلاثة الذين تخلفوا﴾، أي تخلفوا عن غزوة تبوك. وقيل: تخلفوا أي: أرجى أمرهم، عن توبة أبي لبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك الشاعر، ومُرة بن الربيع، وهلال بن أمية، كلهم من الأنصار.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن عبدالله بن كعب بن مالك — وكان قائد كعب من بنيه حين غمى — قال: سمعتُ كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن [غزوة] (١) تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت عن غزوة بدر، ولم يُعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس منها، وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى غيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد واستقبل سفيراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان — قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون

= وقال الميمني في الجمع: ١٩٤/٦-١٩٥: «رواه البزار، والطبراني في الأوسط، ورجال البزار ثقات». وزاد السيوطي نسبه لابن خزيمة،

وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة. انظر: الدر المنثور: ٣٠٨/٤.

(١) في «أ»: (قصة).

معه، فطفقت أَعْدُو لَكي أَتَجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر عليه إذا أردت، فلم يزل يتأذى بي الأمر حتى اشتد بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل يتأذى بي حتى أسرعوا، وتفرط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفقت فيهم أحزني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذَّر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سَلَمَةَ: يارسول الله حبسه بُرداه ونظَّره في عِطْفِيهِ، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، واللَّهِ يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرنني همي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِهِ غداً؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صدقةً، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقيلَ منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمتُ عليه تبسم تبسم المُغْضَبِ، ثم قال: تعال، فجيئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفَكَ أَلَمْ تكن قد ابتهتَ ظهرك؟» فقلت: بلى يارسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرج من سَخَطِهِ بعدر، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولكِنِّي واللَّهِ لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسَخِّطَكَ عليَّ، ولئن حدثتُك حديثَ صدقٍ تجدُّ علي فيه، إني لأرجو فيه عفوَ اللَّهِ، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ أقوى قط ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضيَ الله فيك.

فقمْتُ وثارَ رجالٍ من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: واللَّهِ ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت في أن لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع وأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما قالوا: مُرارة بن الربيع العُمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا

الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه / فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عينا، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا تبطني من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له نحوي، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فقرأته فإذا فيه: أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيق، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمنت به التنور فسجرت. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول لرسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمر أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها ولا تقر بها، وارسل إلى صاحبك بمثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال كعب: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نبى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضائق علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلج، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. فخررت لله ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج، وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس ييشروننا، وذهب قبل صاحبني مبشرون، وركض رجل إلي فرساً وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته ييشرني نزعته له ثوبي فكسوته إياهما

ببشره، ووالله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فلتقاني الناس فوجاً فوجاً يُهنؤنني بالتوبة ويقولون: لِيَهْنِكَ توبةُ الله عليك قال كعب: حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرؤل حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة .

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يَرُقُّ وجهه من السرور: «أُبَشِّرُ بَخِيرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدْتُكَ أَمَكُ»! قال قلت: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قال: لا، بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ حتى كأنه قطعة قمر، وكُنَّا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: [يا رسول الله] ^(١) إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَخْلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، قال رسول الله ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قلت: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ .

فقلت: يا رسول الله إِنَّمَا نَجَانِي اللَّهُ بِالصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي إِلَّا صَدَقًا مَا بَقِيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، ما تعمدت منذ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ^(٢) .

وروى إسحاق بن راشد عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي، فلبثتُ كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت ولا يُصلي عليّ رسول الله ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي عليّ! وأنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ تَيْبٌ عَلَى كَعْبٍ»، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال: إِذَا يَحْطَمُكُمْ النَّاسُ، فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلِ، حَتَّى إِذَا صَلَّى ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا ^(٣) .

(١) ساقطة من «أ» والمثبت من «ب» وصحيح البخاري .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك... ١١٣/٨-١١٦، ومسلم في التوبة، باب حديث توبة كعب بن

مالك وصاحبيه، برقم (٢٧٦٩): ٢١٢٠-٢١٢٨ .

(٣) سيرة ابن هشام: ٥٣٤/٢-٥٣٥ .

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكِ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، اتسعت، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾، غمًا وهماً، ﴿وَوَظَنُوا﴾، أي: تيقنوا، ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾، لا مفرج من الله، ﴿إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، أي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم قد سبقت. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، قال نافع: مع محمد وأصحابه. وقال سعيد ابن جبير: مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن جريج: مع المهاجرين، لقوله تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» إلى قوله «أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» (الحشر - ٨). وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نية. وقيل: مع الذين صدقوا في الإعراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة.

وكان ابن مسعود يقرأ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وقال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيّة شيئاً ثم لا ينجز له، اقرؤا إن شئتم وقرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ظاهره خبر، ومعناه نهي، كقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا / رسول الله» (الأحزاب - ٥٣) ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾، سكان البوادي: مُزَيْنَة، وَجُهَيْنَة، وَأَشْجَع، وَأَسْلَم، وَغِفَار. ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾، إذا غزَا. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾، أي: ولا أن يرغبوا، ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾، في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه. قال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم

وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة، ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومقاساة التعب. ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم﴾، في سفرهم، ﴿ظمأ﴾، عطش، ﴿ولا نصب﴾، تعب، ﴿ولا مخمصة﴾، مجاعة، ﴿في سبيل الله ولا يقطعون موطأ﴾، أرضاً، ﴿يغيظ الكفار﴾، وطوهم إياه ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾، أي: لا يصيبون من عدوهم قتلاً أو أسراً أو غنيمة أو هزيمة، ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي مريم، حدثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ اغْبَرَّتْ قدماء في سبيل الله حرّهما الله على النار» (١).

واختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة: هذه خاصة لرسول الله ﷺ، إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر، فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المسلمين أن يتخلف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة (٢).

وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي، وابن المبارك، وابن جابر، وعمر (٣) بن عبدالعزيز يقولون في هذه الآية: إنها لأول هذه الأمة وآخرها (٤).

وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً، فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباح التخلف لمن يشاء، فقال: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ (٥).

قوله تعالى: ﴿ولا ينفقون نفقة﴾، أي: في سبيل الله، ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾، ولو علاقة (٦) سوط، ﴿ولا يقطعون وادياً﴾، لا يجاوزون وادياً في مسيرهم مقبلين أو مدبرين. ﴿إلا كتب لهم﴾، يعني: آثارهم وخطاهم، ﴿ليجزيهن الله أحسن ما كانوا يعملون﴾. روي عن خريم بن فاتك قال: قال رسول

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب المشي إلى الجمعة...: ٣٩٠/٢، والمصنف في شرح السنة: ٣٥٣/١٠.

(٢) انظر: الطبري: ٥٦٢/١٤، المحرر الوجيز: ٧٦/٧، البحر المحيط: ١١٢/٥.

(٣) في الطبري: «سعيد بن عبدالعزيز».

(٤) الطبري: ٥٦٣/١٤، والمراجع السابقة.

(٥) المراجع السابقة. وقد ردّ الطبري رحمه الله دعوى النسخ. انظر: التفسير: ٥٦٣/١٤-٥٦٤.

(٦) العلاقة: ما يعلق به السيف ونحوه.

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كُتِبَ له سبعمائة ضعف»^(١).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن أبي عمرو الشيباني، عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»^(٢).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا الحسين [حدثني يحيى بن أبي كثير]^(٣) حدثني أبو سلمة، حدثني بسر بن سعيد، حدثني زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جَهَزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية. قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما أنزل الله عز وجل عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبي ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعاً إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، فأنزل الله عز وجل هذه الآية^(٥). وهذا نفي بمعنى النهي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، أي: فهلاً خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة [ويبقى مع رسول الله ﷺ جماعة]^(٦) ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾، يعني الفرقة القاعدين، يتعلمون القرآن والسُنَنَ والفرائض والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل بعدهم، فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم، وتبعث سرايا آخر، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، وليعلموهم بالقرآن ويخوفوهم به، ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ لا يعملون بخلافه.

وقال الحسن: هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، ومعناه: هلاً نفر فرقة ليتفقوها، أي: ليتبصروا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا إليهم.

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله: ٢٥٤/٥ وقال هذا حديث حسن، والنسائي في الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله: ٤٩/٦، وصححه ابن حبان (٣٩٦) من الموارد والحاكم: ٨٧٢/٢، وقال الألباني في تعليقه على المشكاة: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة، باب فضل الصدقة في سبيل الله، برقم (١٨٩٢): ١٥٠٥/٣، والمصنف في شرح السنة: ٣٥٩/١٠.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٤) رواه البخاري في الجهاد. باب: فضل من جهز غازیاً أو خلفه بخير: ٤٩/٦، ومسلم في الإمامة: باب فضل إعانة الغازی في سبيل الله... من طريق بكير بن الأشج عن بسر بن سعيد عن زيد بن خالد الجهني برقم (١٨٩٥): ١٥٠٧/٣ والمصنف في شرح السنة: ٣٥٩/١٠.

(٥) أسباب النزول للواحد ص (٣٠٤).

(٦) ساقط من «أ».

من الجهاد فيخبروهم بنصر الله رسوله ﷺ والمؤمنين لعلهم يحذرون أن يُعادُوا النبي ﷺ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار^(١).

وقال الكلبي: لها وجه آخر وهو أن أحياء من بني أسد من خزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا المدينة فأفسدوا طرقها بالعدرات وأغلوا أسعارها فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾^(٢)، أي: لم يكن لهم أن ينفروا كافة ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا في الدين.

وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي ابتغاء الخير من أهلها فأصابوا منهم معروفاً، ودَعَوْا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم ما نراكم إلا وقد تركتم صاحبكم وجثمتونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً، وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، أي: هَلَّا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَيَسْتَمِعُوا مَا أُنْزِلَ بَعْدَهُمْ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ، يعني: الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الله، لعلهم يحذرون بأس الله ونقمته، وقعدت طائفة يبتغون الخير^(٣).

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقى، أنبأنا أبو الحسن الطيسفوني، حدثنا عبدالله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، حدثنا عبدالله بن أبي سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٤).

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، حدثنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أنبأنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس معادن كعادن الذهب والفضة، فخيرائهم في الجاهلية خيرائهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٥).

والفقه: هو معرفة أحكام الدين، وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، وفرض العين مثل: علم الطهارة، والصلاة، والصوم، فعلى كل مكلف معرفته، قال النبي ﷺ: «طَلِبُ الْعِلْمِ قَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ

(١) وهذا المعنى الذي رجحه الإمام الطبري ووجهه توجهاً سديداً: التفسير: ٥٧٣/١٤-٥٧٤.

(٢) انظر: الطبري: ٥٦٩/١٤، الدر المنثور: ٣٢٣/٤.

(٣) الطبري: ٥٦٦/١٤.

(٤) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين: ١/١٦٤، وفي المناقب، ومسلم في الزكاة، باب النبي عن

المسألة برقم (١٠٣٧): ٧١٨/٢، والمصنف في شرح السنة: ٢٨٥/١.

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى»، ٥٢٥-٥٢٦، ومسلم في فضائل

الصحاب، باب خيار الناس، برقم (٢٥٢٦): ١٩٥٨/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٨٦/١.

يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيُؤْمِنُوا بِالَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

مسلم^(١). وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على كل واحد، يجب عليه معرفة علمها، مثل: علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحج إن وجب عليه .

وأما فرض الكفاية فهو: أن يتعلم حتى يبلغ درجة / الاجتهاد ورتبة الفتيا، فإذا قعد أهل بلد عن ١٦٧ / ب تعلمه عصوا جميعاً، وإذا قام من كل بلد واحد فتعلمه سقط الفرض عن الآخرين، وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث، روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فصل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»^(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»^(٣) .

قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة .

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ الآية، أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس رضي الله عنهما مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها.

(١) في «ب»: (ومسلمة). والحديث رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم (٤٢٤): ٨١/١. قال في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف حفص بن سلمان. وعزاه في كثر العمال: ١٣٠/١٠ لابن عدي والبيهقي والطبراني والخطيب. وقد روي الحديث من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة، وكل طريق منها لا يخلو من ضعف، ولكنها كثرتها تقوي الحديث، لذلك حسنه المزي وابن القطان، وصححه السيوطي لغيره، وذكره في الأحاديث المتواترة . وقال في المقاصد الحسنة: قد ألحق بعض المصنفين بهذا الحديث: «ومسلمة» وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحاً .

انظر: تمييز الطوبى من الخبيث لابن الديبع: ص (١١٦)، كشف الخفاء: ٥٦/٢-٥٧، نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكثاني ص (٣٥-٣٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: ٤٥٦/٧-٤٥٧، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. والدارمي عن مكحول مرسلاً بسند حسن في المقدمة، باب من قال: العلم خشية وتقوى الله: ٨٨/١، وأخرجه أيضاً عن الحسن مرفوعاً في باب فضل العلم والعالم: ٩٧/١-٩٨. والمصنف في شرح السنة: ٢٧٨/١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ٤٦/١ . وانظر: تعليق الألباني على المشكاة: ٧٤/١-٧٥ .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: ٤٥٠/٧ وقال: هذا حديث غريب، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم برقم (٢٢٢): ٨١/١. وفيه رُوح بن جناح، وهو ضعيف جداً، متهم بالوضع .

وأخرجه ابن عبد البر عن ابن عباس، وعن أبي هريرة أيضاً في جامع بيان العلم: ٥٢/١-٥٣. وفيه: يزيد بن عياض، وهو كذاب . انظر: تعليق الألباني على المشكاة: ٧٥/١، وشرح السنة: ٢٧٨/١ .

وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ۖ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ
يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

وقيل: أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام [وكان الشام] (١) أقرب إلى المدينة من العراق، ﴿وَلْيَجِدُوا
فِيكُمْ غُلَظَةً﴾، شِدَّةٌ وَحْمَةٍ. قال الحسن: صبراً على جهادهم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، بالعون
والنصرة .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾، يقيناً. كان المنافقون
يقولون هذا استهزاء، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ يقيناً وتصديقاً، ﴿وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ﴾، يفرحون بنزول القرآن .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، شكٌ ونفاق، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾، أي: كفراً إلى
كفرهم، فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها.
قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلى الإيمان: يزداد وينقص .

وكان عمر: يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزداد إيماناً .
وقال علي بن أبي طالب: إن الإيمان يبدو لُمُظَةً (٢) بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عِظْماً
ازداد ذلك البياض حتى يَبْيِضُ القلب كله، وإن النفاق يبدو لمُظَةً سوداء في القلب فكلما ازداد النفاق
ازداد ذلك السواد حتى يسود القلب كله، وإيَّاهُ الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم
عن قلب منافق لوجدتموه أسود (٣) .

قوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ .

قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾، قرأ حمزة ويعقوب: «ترون» بالتاء على خطاب المؤمنين، وقرأ الآخرون بالياء،
خبرٌ عن المنافقين المذكورين. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يُتْلَوْنَ ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، بالأمراض

(١) ساقط من «أ» .

(٢) في النهاية لابن الأثير: يبدأ لمُظَةً - بالضم - مثل النكتة، من البياض .

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث: ٤٦٠/٣، وابن المبارك في الزهد، وخشيش في الاستقامة، والبيهقي، واللالكائي في السنة،
والأصبهاني في المحجة .

انظر: كنز العمال: ٤٠٦/١-٤٠٧ .

وَإِذَا مَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
 أَنْصَرَفُوا صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بَانَ لَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

والشدائد. وقال مجاهد: بالقحط والشدّة. وقال قتادة: بالغزو والجهاد. وقال مقاتل بن حيان: يفضحون
 بإظهار نفاقهم. وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون. وقال يمان: ينقضون عهدهم في السنة مرة أو
 مرتين. ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، من نقض العهد ولا يرجعون إلى الله من النفاق، ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾، أي: لا
 يتعتلون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾، فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، يريدون
 الحرب يقول بعضهم لبعض إشارة، ﴿هَلْ يَرَأَى مِنْ أَحَدٍ﴾، أي: أحد من المؤمنين، إن قمتم، فإن لم يره
 أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحدا يراهم أقاموا وثبتوا، ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾، عن الإيمان بها. وقيل:
 انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها، ﴿صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾، عن الإيمان. قال أبو إسحاق الزجاج:
 أضلهم الله مجازاة على فعلهم ذلك، ﴿بَانَ لَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، عن الله دينه. قال ابن عباس رضي الله
 عنهما: «لا تقولوا إذا صليتم انصرفنا من الصلاة فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا قد
 قضينا الصلاة» (١).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ تعرفون نسبه وحسبه، قال السدي: من العرب، من
 بني إسماعيل. قال ابن عباس: ليس من العرب قبيل إلا وقد ولدت النبي ﷺ، وله فيهم نسب.
 وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولاد الجاهلية من زمان آدم عليه السلام.
 أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن
 حامد، حدثنا حامد بن محمد، أخبرنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن أبي نعيم، حدثنا هشيم، حدثني
 المدني — يعني: أبا معشر — عن أبي الحويرث، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله
 ﷺ: «ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنيكاح الإسلام» (٢).

وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن «من أنفسكم» بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم.
 ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾، شديد عليه، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾، قيل «ما» صلة أي: عنتكم، وهو دخول المشقة والمضرة

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٥٨٣/١٤، وصححه الحاكم: ٣٣٨/٢، ووافقه الذهبي.

(٢) قال الهيثمي في المجمع ٢١٤/٨: «رواه الطبراني عن المدني عن أبي الحويرث، ولم أعرف المدني ولا شيخه، وبقيّة رجاله وثقوا». وعزاه في كثر العمال ٤٣٠/١١ أيضاً للبيهقي وابن عساکر.

رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

عليكم. وقال القتيبي: ما أعتكم وضركم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ضللتكم.
وقال الضحاك والكلبي: ما أتممت.

﴿حريصٌ عليكم﴾، أي: على إيمانكم وصلاحيكم. وقال قتادة: حريص عليكم أي: على ضالكم
أن يهديه الله، ﴿بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾، قيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين، ﴿فإن تولَّوا﴾، إن
أعرضوا عن الإيمان وناصروك الحرب ﴿فقل حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ﴾.

روي عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان ﴿لقد جاءكم رسولٌ من
أنفسيكم﴾ إلى آخر السورة. وقال: هما أحدث الآيات بالله عهداً^(١).

(١) أخرجه الحاكم: ٣٣٨/٢، والإمام عبد الله بن أحمد في زوائد المسند: ١١٧/٥، وعزاه ابن حجر في المطالب العالية: ٣٣٧/٣

لإسحاق بن راهوية، كلهم دون قوله: «هما أحدث الآيات...».

وقال الهيثمي في المجمع: ٣٦/٧: «رواه عبد الله بن أحمد، والطبراني، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ثقة سيء الحفظ، وبقيته رجاله
نقات».

سُورَةُ يُوسُفَ

1000

سُورَةُ يُونُسَ

سورة يونس عليه الصلاة والسلام مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى آخرها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتْلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

﴿الر﴾ و«آمر» قرأ أهل الحجاز والشام وحفص: بفتح الراء فيهما. وقرأ الآخرون: بالإمالة . قال ابن عباس والضحاك: «الر» أنا الله أرى، و«آمر» أنا الله أعلم وأرى . وقال سعيد بن جبير «الر» و«حم» و«ن» حروف اسم الرحمن، وقد سبق الكلام في حروف التهجي (١) .

﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾، أي: هذه، وأراد بالكتاب الحكيم القرآن. وقيل: أراد بها الآيات التي أنزلها من قبل ذلك، ولذلك قال: «تلك»، وتلك إشارة إلى غائب مؤنث، والحكيم: المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، فعيل بمعنى مفعّل، بدليل قوله: «كتاب أحكمت آياته» (هود — ١) . وقيل: هو بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل، دليله قوله عز وجل: «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس» (البقرة — ٢١٣) .

وقيل: هو بمعنى المحكوم، فعيل بمعنى المفعول. قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه .

(١) راجع فيما سبق: ٥٨/١ - ٥٩ . وانظر هذه الأقوال كلها في: الطبري: ٢٠٥/١ - ٢٢٤ .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾
 رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾، العَجَبُ: حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة .

وسبب نزول الآية: / أن الله عز وجل لما بعث محمداً ﷺ رسولاً، قال المشركون: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾^(١) يعني: أهل مكة، الألف فيه للتوبيخ، ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، أي: أعلمهم مع التخويف، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، واختلفوا فيه: قال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. قال الضحاك: ثواب صدق. وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السعادة في الذكر الأول. وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة الرسول ﷺ. وقال عطاء: مقام صدق لا زوال له، ولا بؤس فيه. وقيل: منزلة رفيعة^(٢).

وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته، كقولهم مسجد الجامع، وحب الحصيد، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم، يقال: لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق وقدم سوء، وهو يؤنث فيقال: قدم حسنة، وقدم صالحة. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. قرأ نافع وأهل البصرة والشام: «لسحر» بغير ألف يعنون القرآن، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: «لساخر» بالألف يعنون محمداً ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، يقضيه وحده، ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، معناه: أن الشفعاء لا يشفعون

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس: ١٣/١٥، وانظر: أسباب النزول ص (٣٠٥)، الدر المنثور: ٣٤٠/٤ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه مطولاً.

(٢) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ١٣/١٥ - ١٦ وقال: «وأول هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب» ثم ساق على ذلك شواهد من الشعر.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا أَعْدَادَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

إلا بإذنه، وهذا ردّ على النَّصْر بن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزى. قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربكم لا رب لكم غيره، ﴿فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾، صدقاً لا خلف فيه. نصب على المصدر، أي: وعدم وعداً حقاً ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، أي: يُحييهم ابتداءً ثم يُميتهم ثم يُحييهم، قراءة العامة: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر «أنه» بالفتح على معنى بأنه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾، بالعدل، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، ماء حار انتهى حره، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾، بالنهار، ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل. وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور، ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: قدر له، يعني: هياً له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قدرهما.

قيل: تقدير المنازل يتصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: «والله ورسوله أحق أن يرضوه» (التوبة — ٦٢).

وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة لأن القمر يُعرف به انقضاء الشهور والسنين، لا بالشمس. ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، وأسمائها: الشرطين، والبطين، والثرياء، والدبران، والبقعة، والهنعة، والذراع، والنسر، والطوف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعام، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع الدلو المقدم، وفرع الدلو المؤخر، وبطن الحوت.

وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل، والثور، والجوزاء، السرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

إِنِّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾

ولكل برج منزلان وثلاث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلاً منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر
ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين فليلة واحدة، فيكون تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة
ثلاثة عشر يوماً، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها .

قوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ﴾، أي: قَدَّرَ المنازل «لتعلموا عدد السنين» دخولها وانقضائها،
﴿وَالْحِسَابَ﴾، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ رَدَّه إلى الخلق
والتقدير، ولو رَدَّه الأعيان المذكورة لقال: تلك. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: لم يخلقه باطلاً بل إظهار الصنعة
ودلالة على قدرته. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص ويعقوب:
«يفصل» بالياء، لقوله: «ما خلق» وقرأ الباقون: «نفصل» بالنون على التعظيم .

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾
يؤمنون .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، أي: لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا. والرجاء يكون بمعنى الخوف
والطمع، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فاختاروها وعملوا لها، ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾: سكنوا إليها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ
عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، أي: عن أدلتنا غافلون لا يعتبرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عن آياتنا عن
محمد ﷺ والقرآن غافلون معرضون .

﴿أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، فيه إضمار، أي:
يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة، ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾. قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة،
يجعل لهم نوراً يمشون به .

وقيل: «يهديهم» معناه يشبههم ويجزيهم .

وقيل: معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه، أي: بتصديقهم هداهم «تجري من تحتهم الأنهار» أي: بين

دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ
 بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

أيديهم، كقوله عز وجل: «قد جعل ربك تحتك سرياً» (مريم - ٢٤) لم يُرد به أنه تحتها وهي قاعدة
 عليه، بل أراد بين يديها.

وقيل: تجري من تحتهم أي: بأمرهم، ﴿فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ﴾.

﴿دَعَاوَهُمْ﴾، أي: قولهم وكلامهم. وقيل: دعاؤهم. ﴿فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، وهي كلمة تنزيه،
 تنزه الله من كل سوء. وروينا: «أن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح، كما يلهمون النفس»^(١).

قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا:
 سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة ميل في ميل، على كل مائدة سبعون
 ألف صَحْفَة، وفي كل صَحْفَة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله،
 فذلك، قوله تعالى: / ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

١٦٨ / ب

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام. وقيل: تحية الملائكة لهم
 بالسلام.

وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يريد: يفتحون كلامهم بالتسبيح، ويختمونه

بالتحميد.

قوله عز وجل: ﴿لَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾، قال ابن عباس: هذا في قول
 الرجل عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله، ولا بارك الله فيكم. قال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه
 وأهله وماله بما يكره أن يستجاب. معناه: لو يعجل الله الناس إجابة دعائهم في الشر والمكروه استعجالهم

(١) عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جُشَاءٌ وَرَشَقٌ كَرَشَحِ الْمَسْكِ. يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ».

رواه مسلم، في الجنة وصفة نعيمها، باب في صفات الجنة وأهلها.. (٣٨٣٥): ٤/٢١٨٠-٢١٨١.

(٢) ساق السيوطي عدة روايات في ذلك. الدر المنثور: ٤/٣٤٥-٣٤٦.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ
كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

بالخير، أي: كما يحبون استعجالهم بالخير، ﴿لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب: «لَقَضَى»
بفتح القاف والضاد، ﴿أَجْلُهُمْ﴾ نصب، أي: لأهلك من دعا عليه وأماته. وقال الآخرون: «لَقَضَى»
بضم القاف وكسر الضاد «أَجْلُهُمْ» رفع، أي: لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً .

وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر
علينا حجارة من السماء»^(١) الآية (الأنفال — ٣٢) يدل عليه قوله عز وجل: ﴿فَقَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَاءَنَا﴾، لا يخافون البعث والحساب، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى، أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، حدثنا
أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، أنبأنا أحمد بن منصور الزياتي، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن
همام بن منبه، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن
تُخْلِفَنِيهِ، فإنما أنا بشر فيصدر مني ما يصدر من البشر، فأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ، أَوْ شَتَمْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ، أَوْ
لَعَنْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً، تَقَرِّبَهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾، الجهد والشدة، ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾، أي: على جنبه
مضطجعاً، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، يريد في جميع حالاته، لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات.
﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾، دفعنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾، أي استمر على طريقته الأولى
قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضُرِّ مَسَّهُ أي: لم يطلب منا
كشف ضُرِّ مَسَّهُ. ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الكفر والمعصية، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾،
من العصيان. قال ابن جريج: كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الدعاء عند البلاء وترك الشكر
عند الرخاء. وقيل: معناه كما زين لكم أعمالكم زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم .

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أشركوا، ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١١٣/٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة»: ١٧١/١١، ومسلم في البر والصلة، باب
من لعنه النبي ﷺ أو سبه... برقم (٢٦٠١): ٢٠٠٨/٤، والمصنف في شرح السنة: ٨/٥ .

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تَنَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِيَّائِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك﴾، أي: كما أهلكناهم بكفرهم، ﴿منجزي﴾ نعاقب ونهلك، ﴿القوم المجرمين﴾، الكافرين بتكذيبهم محمداً ﷺ، يخوف كفار مكة بعذاب الأمم الخالية المكذبة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾، أي: خلفاء، ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد القرون التي أهلكناهم، ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وهو أعلم بهم. وروينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إن هذه الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تَنَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، قال قتادة^(٢): يعني مشركي مكة. وقال مقاتل^(٣): هم خمسة نفر: عبدالله بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هاشم. ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، هم السابق ذكرهم قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن تؤمن بك ﴿أَتَيْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾، ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك، ﴿أَوْ بَدَّلَهُ﴾، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حرام حلالاً، أو مكان حلال حراماً، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾، من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي: ما أتبع إلا ما يوحى إليّ فيما أمركم به وأنهام عنه، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن عليّ. ﴿وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ﴾، أي: ولا أعلمكم الله. قرأ البزي عن ابن كثير: «ولأذراكم به» بالقصر به على الإيجاب، يريد: ولا علمكم

(١) أخرجه مسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء... برقم (٢٧٤٢): ٢٠٩٨/٤، والمصنف في شرح السنة: ١٢/٩.

(٢) في أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٥): مجاهد. وانظر: الدر المنثور: ٣٤٧/٤.

(٣) أسباب النزول ص (٣٠٥).

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
 وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ
 وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً
 وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

به من غير قراءتي عليكم. وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرثكم به» من الانذار. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾،
 حيناً وهو أربعون سنة، ﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾، من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أنه ليس
 من قبلي، ولبت النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث
 عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.
 وروى أنس: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستين سنة.
 والأول أشهر وأظهر (١).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فزعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿أَوْ كَذَّبَ
 بِآيَاتِهِ﴾، بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾، لا ينجو المشركون.
 ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، إن عصوه وتركوا عبادته، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، إن عبدوه،
 يعني: الأصنام، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ اللَّهَ﴾، أنخبرون الله، ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾،
 الله صحته. ومعنى الآية: أنخبرون الله أن له شريكاً، أو عنده شفعياً بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه
 شريكاً؟! ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي:
 «تشركون» بالتاء، هاهنا وفي سورة النحل موضعين، وفي سورة الروم، وقرأ الآخرون كلها بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: على الإسلام. وقد ذكرنا الاختلاف فيه في
 سورة البقرة (٢). ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾، وتفرقوا إلى مؤمن وكافر، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾، بأن جعل

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٥٤/١٣، وابن سعد في الطبقات: ٣٠٨/٢، وعبد الرزاق: ٥٩٩/٣.

وانظر: الدر المنثور: ٣٤٨/٤-٣٤٩، كنز العمال: رقم (٤٧٥٠).

(٢) انظر فيما سبق: ٢٤٣/١-٢٤٤.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحَمِيرٍ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تِهَارِيرٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠٣﴾

لكل أمة أجلًا. وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلاً بينهم، ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقال الحسن: ولولا كلمة سبقت من ربك، مضت في حكمه أنه: لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل مواعدهم يوم القيامة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾، يعني: أهل مكة، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على محمد ﷺ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، على ما نقتضيه، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، يعني: قل إنما سألتوني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لم يفعل ذلك ولا يعلمه إلا هو. وقيل: الغيب نزول الآية / لا يعلم متى ينزل أحد غيره، ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزولها ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار الحق على المبطل.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾، يعني: الكفار، ﴿رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ﴾، أي: راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء. وقيل: القطر بعد القحط، ﴿مَسَّتْهُمْ﴾، أي: أصابتهم، ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾، قال مجاهد: تكذيب واستهزاء. وقال مقاتل بن حيان: لا يقولون: هذا رزق الله، إنما يقولون: سقينا بنوء كذا، وهو قوله: «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون» (الواقعة — ٨٢).

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء، يريد عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم. في دفع الحق، ﴿إِنْ رُسُلَنَا﴾، حفظتنا، ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾، وقرأ يعقوب: «يمكرون» بالياء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾، يحرككم ويحملكم، وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «ينشركم» بالنون والشين من النشر وهو البسط والبت، ﴿فِي الْبَرِّ﴾، على ظهور الدواب، ﴿وَالْبَحْرِ﴾، على

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ
عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا
يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظُرِبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ
قَدِرُوا عَلَىهَا أَتَتْهَا أَمْرٌ نَالِيًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

الفلك، ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾، أي: في السفن، تكون واحداً وجمعاً ﴿وجزئين بهم﴾، يعني: جرت
السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الخبر، ﴿بريح طيبة﴾، لينة، ﴿وفرخوا بها﴾، أي: بالريح، ﴿جاءتها
ريح﴾، أي: جاءت الفلك ريح، ﴿عاصف﴾، شديدة الهبوب، ولم يقل ريح عاصفة، لاختصاص الريح
بالعصوف. وقيل: الريح تُذكر وتؤنث. ﴿وجاءهم﴾، يعني: ركبان السفينة، ﴿الموج﴾، وهو حركة الماء
واختلاطه، ﴿من كل مكان وظنوا﴾، أيقنوا ﴿أنهم أحيط بهم﴾، دَنَوْا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك،
﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله. وقالوا ﴿لئن
أنجينَا﴾، ياربنا، ﴿من هذه﴾، الريح العاصف، ﴿لنكوننَّ من الشَّاكِرِينَ﴾، لك بالإيمان والطاعة.

﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض﴾، يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عز وجل في الأرض،
﴿بغير الحق﴾، أي: بالفساد. ﴿يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم﴾، لأن وباله راجع عليها، ثم ابتداءً
فقال: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾، أي: هذا متاع الحياة الدنيا، خبر ابتداءٍ مضمر، كقوله: «لم يلبثوا إلا ساعةً
من نهارٍ بلاغ» (الأحقاف - ٣٥)، أي: هذا بلاغ. وقيل: هو كلام متصل، والبغي: ابتداء، ومتاع: خبره.
ومعناه: إنما بغيتكم متاع الحياة الدنيا، لا يصلح [زاد المعاد] ^(١) لأنكم تستوجبون به غضب الله.
وقرأ حفص: «متاع» بالنصب، أي تمتعون متاع الحياة الدنيا، ﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم
تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾، في فنائها وزوالها، ﴿كإي أنزلناه من السماء فاختلط

(١) في أوله (زاد المعاد).

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

به، أي: بالمطر، ﴿نبات الأرض﴾، قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾، من الحبوب والثمار، ﴿والأنعام﴾، من الحشيش، ﴿حتى إذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، حسنّها وبهجتها وظهر الزهر أخضر وأحمر وأصفر وأبيض ﴿وَأَزْيَتْ﴾، أي: تزينت، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: «تزينت». ﴿وَوَظَّنْ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾، على جذاذها وقطافها وحصادها، ردّ الكناية إلى الأرض. والمراد: النبات إذ كان مفهوماً، وقيل: ردّها إلى الغلّة. وقيل: إلى الزينة. ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾، قضاؤنا، بإهلاكها، ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾، أي: محصودة مقطوعة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾، كأن لم تكن بالأمس، وأصله من غني بالمكان إذا أقام به. وقال قتادة: معناه إن المتشبهت بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾، قال قتادة: السلام هو الله، وداره: الجنة. وقيل: السلام بمعنى السلامة، سُميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سَلِمَ من الآفات. وقيل: المراد بالسلام التحية سُميت الجنة دار السلام، لأن أهلها يحيي بعضهم بعضاً بالسلام والملائكة تسلم عليهم. قال الله تعالى: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» (الرعد - ٢٣).

وروينا عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم [فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: (١) إن لصاحبكم هذا مثلاً. قال: فاضربوا له مثلاً. فقال بعضهم: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبةً، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي: دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يُجب الداعي: لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، [فقالوا أولوها له يَفْقَهُهَا، قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: (١) فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس» (٢).

﴿ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾، فالصراط المستقيم هو الإسلام، عمّ بالدعوة لإظهار الحجة، وتخصّ بالهداية استغناءً عن الخلق.

(١) ما بين القوسين من صحيح البخاري وشرح السنة للمصنف، وهو أيضاً في المطبوع.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: ٢٤٩/١٣، والمصنف في شرح السنة: ١٩٢/١.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى، وهي الجنة، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحذيفة، وأبو موسى، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والضحاك، والسدي .

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن [محمد بن] ^(١) العباس الحميدي، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب إملاء، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصغاني، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت — يعني البناني — عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، قالوا: ما هذا الموعد؟ ^(٢) ألم يشغل موازيننا، وبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويخرجنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله عز وجل. قال: فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ^(٣) .

وروي عن ابن عباس: أن الحسنى هي: أن الحسنه بمثلها والزيادة هي التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ^(٤) . وقال مجاهد: الحسنى: حسنة مثل حسنة، والزيادة المغفرة والرضوان ^(٥) .

﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾، لا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾، غبار، جمع قتره. قال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، هوان. قال قتادة: كآبة. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) في «ب»: (الموعد) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، برقم (١٨١-١٨٢): ١/١٦٣، والمصنف في شرح السنة: ٢٣٠/١٥ .

(٤) أخرجه الطبري عن ابن عباس: ٧٠/١٥ .

(٥) الطبري: ٧١/١٥ . وقال رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها. ومن الزيادة على إدخالهم الجنة: أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غزافاً من لآلىء، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً. كل ذلك من زادات عطاء الله لإياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته. وعم رتبنا جل ثناؤه بقوله: «وزيادة» الزادات على «الحسنى» فلم يخص منها شيئاً دون شيء. وغير مستكثر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يُعم، كما عمه عز ذكره .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
 كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾
 وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا
 بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ كُلُّ
 نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾، أي: لهم مثلها، كما قال: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا» (الأنعام — ١٦٠). ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، و«من» صلة، أي: ما لهم من الله عاصم، ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾، ألبست، ﴿وُجُوهُهُمْ قِطْعًا﴾، جمع قطعة، ﴿مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، نصبت على الحال دون النعت، ولذلك لم يقل: مظلمة، تقديره: قطعاً من الليل في حال ظلمته، أو قطعاً من الليل المظلم. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: «قطعاً» ساكنة الطاء، أي بعضاً، كقوله: «يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ» (هود — ٨١). ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.
 قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾، [أي: الزموا مكانكم]،^(١) ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾، يعني: الأوثان، معناه: ثم نقول للذين أشركوا: الزموا أنتم وشركاءكم مكانكم، ولا تبرحوا. ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ مَيَّزْنَا وَفَرَّقْنَا ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين المشركين وشركائهم، وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده، ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ﴾، يعني: الأصنام، ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾، بطلبتنا فيقولون: بلى، كنا نعبدكم، فتقول الأصنام: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾، أي: ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا غافلين، ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ﴾، أي: تُخْتَبِر. وقيل: معناه: تعلم وتقف عليه، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «تتلون» بتاءين، أي: تقرأ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، صحيفتها. وقيل: معناه تتبع كل نفس ﴿مَا

(١) ساقط من «أ».

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
 الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ
 أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
 فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
 ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
 فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

أسلفت ﴿﴾، ما قدمت من خير أو شر. وقيل: معناه تعالين، ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، إلى حكمه فيتفرد فهم
 بالحكم، ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾، الذي يتولى ويملك أمورهم: فإن قيل: أليس قد قال: «وأن الكافرين لا مولى
 لهم» (محمد - ١١)؟ قيل: المولى هناك بمعنى الناصر، وهاهنا بمعنى: المالك، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾، زال
 عنهم وبطل، ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، في الدنيا من التكذيب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من السماء بالمطر، ومن الأرض
 بالنبات، ﴿أَمْ مِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾، أي: من إعطائكم السمع والأبصار، ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ
 مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؟
 أي: يقضي الأمر، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، هو الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ أفلا تخافون
 عقابه في شرككم؟ وقيل: أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار؟.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم، ﴿الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
 فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؟ أي: فأنى تصرفون عن عبادته وأنتم مقرون به؟.

﴿كَذَلِكَ﴾. قال الكلبي: هكذا، ﴿حَقَّتْ﴾، وجبت، ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، حكمه السابق، ﴿عَلَى
 الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، كفروا، ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «كلمات ربك» بالجمع
 هاهنا موضعين، وفي المؤمن، والآخرين على التوحيد.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾، أو ثأنكم ﴿مَنْ يَبْدُو الْخَلْقَ﴾، ينشئ الخلق من غير أصل ولا
 مثال، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ثم يحييه من بعد الموت كهيبته، فإن أجابوك وإلا ف ﴿قُلْ﴾ أنت: ﴿اللَّهُ يَبْدُو
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؟ أي: تصرفون عن قصد السبيل.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَهَلْ كُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي﴾، يرشد، ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾، فإذا قالوا: لا — ولا بد لهم من ذلك — ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، أي إلى الحق .

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي﴾، قرأ حمزة والكسائي: ساكنة الهاء، خفيفة الدال، وقرأ الآخرون: بتشديد الدال، ثم قرأ أبو جعفر، وقالون: بسكون الهاء، وأبو عمرو يروم الهاء بين الفتح والسكون، وقرأ حفص: بفتح الياء وكسر الهاء، وأبو بكر بكسرها، والباقون بفتحهما، ومعناه: يهتدي — في جميعها — فمن خفف الدال، قال: يقال: هديته فهدي، أي: اهتدي، ومن شدد الدال أدغم التاء في الدال، ثم أبو عمرو يروم على مذهبه في إظهار التخفيف، ومن سكن الهاء تركها على حالتها كما فعل في «تعدوا» و«يخصمون»، ومن فتح الهاء نقل فتحة التاء المدغمة إلى الهاء، ومن كسر الهاء فلا لقاء الساكنين، وقال الجزم يُحرّك إلى الكسر، ومن كسر الياء، مع الهاء أتبع الكسرة الكسرة . قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾، معنى الآية: الله الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم الصنم الذي لا يهتدي إلا أن يُهْدَى ؟ .

فإن قيل: كيف قال: «إلا أن يُهْدَى»، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يُهْدَى ؟ . قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تُحمل وتُنقل، يَتَّبِعُ به عجز الأصنام .

وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبّر عنها بما يُعبّر عن من يعلم ويعقل، ووُصِفَتْ بصفة من يعقل . ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، كيف تقضون حين زعمتم أن الله شريكاً .

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾، منهم يقولون: إن الأصنام آلهة، وإنها تشفع لهم في الآخرة ظناً منهم، لم يردّ به كتاب ولا رسول، وأراد بالأكثر: جميع من يقول ذلك، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾، أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً . وقيل: لا يقوم مقام العلم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
 الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
 وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ
 وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
 بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ
 وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال الفراء: معناه: وما ينبغي لمثل
 هذا القرآن أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، كقوله تعالى: «وما كان لنبي أن يغفل» (آل عمران - ١٦١).
 وقيل: «أَنْ» بمعنى اللام، أي: وما كان هذا القرآن لِيُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ.
 قوله: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل.
 وقيل: تصديق الذي بين يدي القرآن من القيامة والبعث، ﴿وتفصيل الكتاب﴾، تبين ما في
 الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
 ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، قال أبو عبيدة: «أَمْ» بمعنى الواو، أي: ويقولون، ﴿افتراه﴾، اختلق محمد القرآن
 من قبل نفسه، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، شبه القرآن ﴿وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾، بمن تعبدون، ﴿مِنْ
 دُونِ اللَّهِ﴾ لِيُعِينُوكُمْ عَلَى ذَلِكَ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أن محمداً افتراه ثم قال:
 ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، يعني: القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه، ﴿ولَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾،
 أي: عاقبة ما وعد الله في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد: أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة
 أمرهم. ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما كذب هؤلاء الكفار بالقرآن كذلك كذب الذين من
 قبلهم من كفار الأمم الخالية، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، آخر أمر المشركين بالهلاك.
 ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، أي: من قومك من يؤمن بالقرآن، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، لعلم الله
 السابق فيهم، ﴿ورَبُّكَ / أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، الذين لا يؤمنون.

١٧٠ / أ

﴿وَأَنْ كَذَّبُوكَ﴾، يا محمد، ﴿فَقُلْ لِي عَمَلٍ﴾، وجزاؤه، ﴿ولَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، وجزاؤه، ﴿أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ
 مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، هذا كقوله تعالى: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» (القصص - ٥٥)،

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾
إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ
كَأَنَّهُمْ يُلْبِثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

«لكم دينكم ولي دين» (الكافرون — ٦) .

قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد^(١) .

ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره :

فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بأسماعهم الظاهرة فلا ينفعهم، ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾،

يريد: سَمَعَ القلب، ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾، بأبصارهم الظاهرة، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى﴾، يريد عمى القلب،

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾، وهذا تسليية من الله عز وجل لنبيه ﷺ، يقول: إنك لا تقدر أن تُسمع من

سلبته السمع، ولا أن تهدي من سلبته البصر، ولا أن تُوفق للإيمان من حكمت عليه أن لا يؤمن .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾، لأنه في جميع أفعاله مُتَفَضِّلٌ عَادِلٌ، ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ

يَظْلِمُونَ﴾، بالكفر والمعصية .

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾، قرأ حفص بالياء، والآخرون بالنون، ﴿كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ

النَّهَارِ﴾، قال الضحاك: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار. وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا في

قبورهم إلا قدر ساعة من النهار، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، يعرف بعضهم بعضاً حين بعثوا من القبور

كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة. وفي بعض الآثار: أن الإنسان يعرف يوم

القيامة مَنْ بجنبه ولا يُكَلِّمُهُ هَيْبَةً وَخَشْيَةً^(٢) .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا

شيء أعظم منه.

(١) ورواه الطبري أيضاً عن ابن زيد: ٩٥/١٥ . وانظر: الدر المنثور: ٣٦٤/٤ . وانظر فيما سبق: ٣٢/٣ تعليق (١) .

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن. الدر المنثور: ٣٦٥/٤ .

وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَلَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد، ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ في حياتك من العذاب، ﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾، قبل تعذيبهم، ﴿فَلَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾، فيجزئهم به، «ثم» بمعنى الواو، تقديره: والله شهيد. قال مجاهد: فكان البعض الذي أراه قتلهم بيد، وسائر أنواع العذاب بعد موتهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾، وكذبوه، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، أي عُدُّوا في الدنيا وأهلكوا بالعذاب، يعني: قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب. وقال مجاهد ومقاتل: فإذا جاء رسولهم الذي أرسل إليهم يوم القيامة قُضِيَ بينه وبينهم بالقسط، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم. ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول المشركون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يا محمد من العذاب. وقيل: قيام الساعة، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أَنْتَ يا محمد وأتباعك.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾، لا أقدر لها على شيء، ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: دفع ضر ولا جلب نفع، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، أن أملكه، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، مدة مضروبة، ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾، وقت فناء أعمارهم، ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ﴾، ليلاً، ﴿أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ماذا يستعجل من الله المشركون. وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون، وقد وقعوا فيه. وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب، فيقولون: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» (الأنفال - ٣٢). فيقول الله تعالى: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ يعني: أيش^(١) يعلم

(١) أي شيء؟

أَنتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ الْكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ؕ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بِهِمْ ذُنُوبُهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون، كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحاً ماذا جنيت على نفسك .
﴿أَنتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾، قيل: معناه أهنالك؟ وحيثذا، وليس بحرف عطف، «إذا ما وقع» نزل العذاب، ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾، أي بالله في وقت اليأس. وقيل: آمنتم به أي صدقتم بالعذاب وقت نزوله، ﴿الآن﴾، فيه إضمار، أي: يقال لكم: الآن تؤمنون حين وقع العذاب؟ ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، تكديراً واستهزاء .

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أشركوا، ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، في الدنيا .

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَكَ﴾، أي: يستخبرونك يا محمد، ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾، أي ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة، ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾، أي: نعم وربِّي، ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، لا شك فيه، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: بفائتين من العذاب، لأن من عجز عن شيء فقد فاتته .

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، أي: أشركت، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾، يوم القيامة، والافتداء هنا: بذل ما ينجو به من العذاب. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾، قال أبو عبيدة: معناه: أظهروا الندامة، لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبر وتصنع. وقيل: معناه أخفوا أي أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء، خوفاً من ملامتهم وتعيرهم، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، فرغ من عذابهم، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .
﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
 لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ
 ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَا لِلَّهِ
 أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ﴾، تذكرة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: دواء للجهل، لما في الصدور. أي: شفاء لعمى القلوب، والصدر: موضع القلب، وهو أعز موضع في الإنسان لجوار القلب، ﴿وَهُدًى﴾، من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والرحمة هي النعمة على المحتاج، فإنه لو اهدى ملك إلى ملك شيئاً لا يقال قد رحمه، وإن كان ذلك نعمة لأنه لم يضعها في محتاج.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾، قال مجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن^(١). وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله^(٢). وقال ابن عمر: فضل الله: الإسلام، ورحمته: تزيينه في القلب. وقال خالد بن معدان: فضل الله: الإسلام، ورحمته: السنن. وقيل: فضل الله: الإيمان، ورحمته: الجنة.

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: مما يجمعه الكفار من الأموال. وقيل: كلاهما خبر عن الكفار. وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «فليفرحوا» بالياء، و«تجمعون» بالتاء، وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء مختلف عنه خطاباً للمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة، ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ﴾، عبر عن الخلق بالإنزال، لأن ما في الأرض من خير، فمما أنزل من السماء من رزق، من زرع وضرع، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾، هو ما حرموا من الحرث ومن الأنعام كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. قال الضحاك: هو قوله تعالى: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً» (الأنعام — ١٣٦). ﴿قُلْ أَلَا لِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ﴾، في هذا التحريم والتحليل، ﴿أَمْ﴾ بل، ﴿عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وهو قولهم: «والله أمرنا بها».

(١) انظر: الطبري: ١٥/١٠٧.

(٢) الطبري: ١٥/١٠٦ وانظر الدر المنثور: ٤/٣٦٧-٣٦٨، وفيهما سائر الأقوال.

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٩﴾

﴿وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾، يحسبون أن الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه، ﴿إنَّ الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾. قوله عز وجل: ﴿وما تكون﴾. يا محمد، ﴿في شأن﴾، عمل من الأعمال، وجمعه شؤون، ﴿وما تثلوا منه﴾، من الله، ﴿من قرآن﴾، نازل، وقيل: منه أي من الشأن من قرآن، نزل فيه ثم خاطبه وأمته فقال: ﴿ولا تعملون من عملٍ إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾، أي: تدخلون وتغوضون فيه، الهاء عائدة إلى العمل، والإفاضة: الدخول في العمل. وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه. وقيل: تكثرون فيه. والإفاضة: الدفع بكثرة.

﴿وما يعزب عن ربك﴾، يغيب عن ربك، وقرأ الكسائي «يعزب» بكسر الزاي، وقرأ الآخرون بضمها، وهما لغتان. ﴿من مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، أي: مثقال ذرة، و«من» صلة، والذرة هي: النملة الحميرة الصغيرة. ﴿في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك﴾، أي: من الذرة، ﴿ولا أكبر﴾ قرأ حمزة ويعقوب: برفع الراء فيهما، عطفاً على موضع المثقال قبل دخول «من»، وقرأ الآخرون: بنصبهما، إرادة للكسرة، عطفاً على الذرة في الكسر. ﴿إلا في كتاب مبين﴾. وهو اللوح المحفوظ. قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ واختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم. قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله تعالى فقال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، وقال قوم: هم المتحابون في الله عز وجل.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن [ابن] (١) أبي حسين

(١) من «شرح السنة» و«مصنف عبد الرزاق»، و«مسند الإمام أحمد».

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

عن شهر بن حوشب، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ لِقَرَبِهِمْ وَمَقْعَدِهِمْ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حَدَّثَنَا يَارَسُولَ اللَّهِ عَنْهُمْ مِنْ هُمْ؟ قال: فَرَأَيْتُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ الْبُشْرَى، فقال: «هُمُ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مِنْ بِلْدَانٍ شَتَّى وَقِبَائِلَ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ يَتَوَاصِلُونَ بَهَا، وَلَا دُنْيَا يَتَبَاذَلُونَ بَهَا، يَتَحَابُّونَ بِرُوحِ اللَّهِ، يَجْعَلُ اللَّهُ وَجُوهَهُمْ نُوراً، وَيَجْعَلُ لَهُمْ مَنَابِرَ مِنْ لَوْلُؤٍ قَدَامَ الرَّحْمَنِ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَلَا يَفْزَعُونَ، وَيَخَافُ النَّاسُ وَلَا يَخَافُونَ»^(١).

ورواه عبد الله بن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام قال: حدثنا شهر بن حوشب، حدثني عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري، عن النبي ﷺ سئل! مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ فقال: الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ»^(٢). وَيُرَوَّى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنْ أَوْلِيَائِي مِنْ عِبَادِي الَّذِينَ يُذَكِّرُونَ بِذِكْرِي وَأُذَكَّرُ بِذِكْرِهِمْ»^(٣).

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، اختلفوا في هذه البُشْرَى: روي عن عبادة بن الصامت قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، قَالَ: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ»^(٤).

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: ٢٠١/١١-٢٠٢، والطبري: ١٢٢/١٥، والإمام أحمد في المسند: ٣٤٣، ٣٤١/٥، والمصنف في شرح السنة: ٥٠/١٣، وذكره في المصابيح: ٣٧٩/٣، وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الحاكم وصححه: ١٧١-١٧٠/٤ وأقره الذهبي، ومن حديث أبي هريرة عند ابن حبان برقم (٢٥٠٨) ص (٦٢١) من موارد الظمان. ومن حديث عمر رضي الله عنه أخرجه أبو داود، وإسحاق بن راهويه، وهناد ٥٦٤/١، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، وأبو نعيم. والبيهقي في الشعب. انظر: الدر المنثور: ٣٧٢/٤، الكافي الشاف ص (٨٤)، مجمع الزوائد: ٢٧٦/١٠-٢٧٩، الزهد للإمام هناد بن السري: ٥٦٤/١-٥٦٥ مع تعليق المحقق. والحديث اسناده صحيح بشواهده.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد، ص (٢٤٨-٢٤٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤٣٠/٣. قال الهيثمي في المجمع: ٥٨/١ «رواه أحمد، وفيه رشدين بن سعد، وهو ضعيف، وذكره أيضاً: ٨٩/١ من رواية الطبراني في الكبير، وقال: «فيه رشدين، وهو ضعيف».

وانظر: الدر المنثور: ٣٧١/٤.

(٤) أخرجه الترمذي في الرؤيا، باب ذهب النبوة وبقيت المبشرات: ٥٥٤/٦، وابن ماجه في الرؤيا، برقم (٣٨٩٨): ١٢٨٣/٢، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: ٣٤٠/٢، ٣٩١/٤، والدارمي في الرؤيا: ١٢٣/٢، والإمام أحمد في المسند: ٣١٥/٥، ٣٢١، والطالبي ص (٧٩).

قال ابن حجر: في فتح الباري: «ورواته ثقات إلا أن أبا سلمة لم يسمعه من عبادة». وانظر: الكافي الشاف ص (٨٤).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبْوَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»^(١).

وقيل: البشرى في الدنيا هي: الثناء الحسن وفي الآخرة: الجنة .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا عبدالرزاق بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة عن أبي عمران الجوني قال: سمعتُ عبدالله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يارسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحببه الناس؟ قال: «تلك عاجلُ بُشْرَى المؤمن»^(٢). وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن يحيى بن يحيى عن حماد بن زيد عن أبي عمران، وقال: «ويحمده الناس عليه»^(٣).

وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: «تَنزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» (فصلت - ٣٠) .

وقال عطاء عن ابن عباس: البشرى في الدنيا، يريد: عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، يُعْرَجُ بها إلى الله، وَيُشَرُّ برضوان الله.

وقال الحسن: هي ما بشر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه، كقوله: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» (البقرة - ٢٥)، «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (الأحزاب - ٤٧) «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ» (فصلت - ٣٠) .

وقيل: بشرهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، ويبشرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة^(٤).

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، لَا تَغْيِيرَ لِقَوْلِهِ، وَلَا تُخْلَفَ لوعده. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في التعبير، باب المبشرات: ٣٧٥/١٢، والمصنف في شرح السنة: ٢٠٢/١٢ .

(٢) شرح السنة للبغوي: ٣٢٧/١٤ .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى لا تضره، برقم (٢٦٤٢): ٢٠٣٤-٢٠٣٥، والمصنف في شرح السنة: ٣٢٨/١٤ .

(٤) ساق الإمام الطبري رحمه الله: الأقوال في تفسير «البشرى» التي بشر الله بها هؤلاء القوم، ثم قال: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن لأوليائه المتقين، البشرى في الحياة الدنيا. ومن البشارة في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له، ومنها بشرى الملائكة إياه، عند خروج نفسه، برحمة الله، كما روي عن النبي ﷺ...، ومنها بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل... وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عظمه جل ثناؤه: أن لهم البشرى في الحياة الدنيا. وأما في الآخرة فالجنة» انظر: تفسير الطبري: ١٤٠/١٥-١٤١ .

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ
 لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يُسْمِعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
 ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾، يعني: قول المشركين تم الكلام هاهنا ثم ابتداء، فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾،
 يعني الغلبة والقدرة لله ﴿جَمِيعًا﴾ هو ناصرك، وناصر دينك، والمنتقم منهم .

قال سعيد بن المسيب: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا يعني: إن الله يعز من يشاء، كما قال في آية أخرى:
 ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون - ٨)، وعزة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله .
 ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾، هو
 استفهام معناه: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟

وقيل: وما يتبعون حقيقة، لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا، وليس على ما يظنون.
 ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، يظنون أنها تُقرّبهم إلى الله تعالى، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، يكذبون .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، مضياً يبصر فيه، كقولهم: ليل نائم
 وعيشة راضية. قال قطرب: تقول العرب: أظلم الليل وأضاء النهار وأبصر، أي: صار ذا ظلمة وضياء
 وبصر، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾، سمع الاعتبار أنه مما لا يقدر عليه إلا عالم قادر .

﴿قَالُوا﴾، يعني: المشركين، ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، وهو قولهم الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ
 الْغَنِيُّ﴾، عن خلقه، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، عبيداً وملكاً، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ﴾، ما عندكم،
 ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾، حجة وبرهان، و«من» صلة، ﴿بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، لا ينجون، وقيل: لا يبقون في الدنيا ولكن:

مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَتْ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكِرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٣﴾

﴿متاع﴾، قليل يتمتعون به وبلاغ يتفعمون به إلى إنقضاء آجالهم، و«متاع» رفع بإضمار، أي: هو متاع، ﴿في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾. قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾، أي: اقرأ يا أحمد على أهل مكة خبر نوح ﴿إذ قال لقومه﴾، وهم ولد قاييل، ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم﴾، عظم وثقل عليكم، ﴿مقامي﴾ طول مكثي فيكم ﴿وتذكري﴾، ووعظي إياكم ﴿بآيات الله﴾، بحججه وبياناته، فعزمت على قتلي وطردي ﴿فعل الله﴾، توكلت فأجمعوا أمركم، أي: أحكموا أمركم واغرموا عليه، ﴿وشركاءكم﴾، أي: وادعوا شركاءكم، أي: آلهتكم، فاستعينوا بها لتجتمع معكم.

وقال الزجاج: معناه: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، فلما ترك «مع» انتصب. وقرأ يعقوب: «وشركاؤكم» رفع، أي: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤهم. ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غممة﴾، أي: خفياً مبهماً، من قولهم: غمُّ الهلال على الناس، أي: أشكل عليهم، ﴿ثم اقضوا إلي﴾، أي: أمضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه، يقال: قضى فلان إذا مات ومضى وقضى دينه إذا فرغ منه.

وقيل: معناه: توجهوا إلي بالقتل والمكروه.

وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون، وهذا مثل قول السحرة لفرعون: «فاقضي ما أنت قاضي» (طه — ٧٢)، أي: اعمل ما أنت عامل.

﴿ولا تُنْظِرُون﴾، ولا تؤخرون وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح أنه كان واثقاً بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضرر إلا أن يشاء الله. ﴿فإن توليتم﴾ أعرضتم عن قولي وقبول نصحي، ﴿فما سألتكم﴾، على تبليغ الرسالة والدعوة، ﴿من أجر﴾، جعل وعوض، ﴿إن أجري﴾، ما أجرى وثوابي، ﴿إلا على الله﴾، وأمرت أن أكون من المسلمين، أي: من المؤمنين. وقيل: من المستسلمين لأمر الله.

فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ كُمْ أُسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لْتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، يعني نوحاً ﴿فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ﴾، أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾، أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾، أي: من بعد نوع رسلاً. ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدلالات الواضحات، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: بما كذب به قوم نوح من قبل، ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾، أي: نختم، ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ﴾، يعني: أشراف قومه، ﴿بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾، يعني: جاء فرعون وقومه، ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ مِثْلِ سِحْرِ مُوسَى﴾. ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أُسْحَرُ هَذَا﴾، تقدير الكلام أتقولون للحق لما جاءكم سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.

﴿قَالُوا﴾، يعني: فرعون وقومه لموسى، ﴿أَجِئْتَنَا لْتَلْفِنَا﴾، لتصرفنا. وقال قتادة لتلويننا، ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ﴾، الملك والسلطان، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، أرض مصر وقرأ أبو بكر: «ويكون» بالياء، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، بمصدقين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقُوا
 مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءَ أَمْنٍ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
 الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿وقال فرعون اتوني بكل ساحر عليم﴾ .

﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ .

﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «السحر» بالمد على الاستفهام وقرأ الآخرون بلا مد، يدل عليه قراءة ابن مسعود «ما جئتم به سحر» بغير الألف واللام. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

﴿ويحقق الله الحق بكلماته﴾، بآياته، ﴿ولو كره المجرمون﴾ .

﴿فما آمن لموسى﴾، لم يصدق موسى مع ما آتاهم به من الآيات، ﴿إلا ذرية من قومه﴾، اختلفوا في الهاء التي في «قومه»، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه. قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل، هلك الآباء وبقي الأبناء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى فرعون. روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطته، وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله .

وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة، من بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً من القتل، فنشئوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غلبت السحرة .

قال الفراء: سُموا ذرية؛ لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن: الأبناء، لأن أمهاهم من غير جنس آبائهم .

وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا
بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾، قيل: أراد بفرعون آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون
وملئهم، كما قال: «واستل القرية» (يوسف — ٨٢) أي: أهل القرية. وقيل: إنما قال: «وملئهم» وفرعون
واحد لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه، كما يقال قدم الخليفة يُراد هو ومن معه. وقيل: أراد ملا
الذرية، فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون. ﴿أَن يَفْتَنَهُم﴾. أي: يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنهم لأنه
أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، ﴿وَأَنَّ فرعونَ لعالٍ﴾، لتكبر، ﴿فِي الأرضِ
وإنه لمن المسرفين﴾، المجاوزين الحد، لأنه كان عبداً فادعى الربوبية.

﴿وقال موسى﴾، لمؤمني قومه، ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾.
﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا
تُظهِرْهُمْ عَلَيْنَا وَلَا تُهْلِكْنَا بِأَيْدِيهِمْ، فيظنون أننا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً. وقال مجاهد: لاتعذبنا
بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق لما عذبوا ويظنون أنهم خير منا فيفتنوا.
﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾، هارون، ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: تبوأ
فلان لنفسه بيتاً ومضجعاً إذا اتخذ، وبوآته أنا إذا اتخذته له، ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قال أكثر
المفسرين: / كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم ويبيعهم، وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى
أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فأمرُوا أَن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون،
هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس.

١٧١/ب

وقال مجاهد: خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة، فأمرُوا بأن يجعلوا في
بيوتهم مساجد مستقبلية الكعبة، يصلون فيها سرّاً. معناه: واجعلوا بيوتكم إلى القبلة.

وروى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الكعبة قِبْلَةً موسى ومن معه.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يا محمد.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾، من متاع الدنيا، ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ﴾، اختلفوا في هذه اللام، قيل: هي لام كي، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيضلوا ويضلوا، كقوله: «لأسقيناهم ماءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» (الجن - ١٦) .
وقيل: هي لام العاقبة يعني: فيضلوا وتكون عاقبة أمرهم الضلال، كقوله: «فَالْتَفَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» (القصص - ٨) .

قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾، قال مجاهد: أهلكها، والطمس: المَحَق.

وقال أكثر أهل التفسير: امسحها وغيّرها عن هيئتها .

وقال قتادة: صارت أموالهم وحرثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة .

وقال محمد بن كعب: جعل سكرهم حجارة^(١)، وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرتين، والمرأة قائمة تحبز فصارت حجراً .

قال ابن عباس رضي الله عنه: بلغنا أن الدارهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً .

ودعا عمر بن عبدالعزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر .

قال السدي: مسح الله أموالهم حجارة، والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع .

﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: أقسها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾،

قيل: هو نصب بجواب الدعاء بالفاء. وقيل: هو عطف على قوله «ليضلوا» أي: ليضلوا فلا يؤمنوا . وقال

الفراء: هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا، ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وهو الغرق.

قال السدي: معناه أميتهم على الكفر .

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى وهارون، ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، إنما نسب إليهما والدعاء كان من

موسى لأنه روي أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن، والتأمين دعاء. وفي بعض القصص: كان بين دعاء

(١) انظر: الطبري: ١٥/١٧٩-١٨٢، الدر المنثور: ٤/٣٨٤ .

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا
أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ۖ ءَاَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۖ﴾

موسى وإجابته أربعون سنة^(١). ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾، على الرسالة والدعوة، وامضيا لأمرى إلى أن يأتيهم العذاب
﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾، نهى بالنون الثقيلة، وعمله جزم، يقال في الواحد لا تتبعن بفتح النون لالتقاء الساكنين،
وبكسر النون في الثنية لهذه العلة. وقرأ ابن عامر بتخفيف النون لأن نون التوكيد تثقل وتخفف، ﴿سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني: ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدى، فإن وعدى لا تخلف فيه،
ووعيدى نازل بفرعون وقومه .

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾، عبرنا بهم ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾، لحقهم وأدركهم، ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾،
يقال: «أتبعه وتبعه» إذا أدركه ولحقه، و«أتبعه» بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به. وقيل: هما واحد.
﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ أي: ظلماً واعتداءً. وقيل: بغياً في القول وعدواً في الفعل. وكان البحر قد انفلق لموسى
وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبريل على فرس ودقيق^(٢) وخاض البحر،
فاقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم وهم أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى
إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾، أي: غمره الماء وقرب هلاكه، ﴿قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ﴾، قرأ حمزة والكسائي «إنه» بكسر
الألف أي: آمنت وقلت إنه. وقرأ الآخرون «أنه» بالفتح على وقوع آمنت عليها ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فدرس جبريل عليه السلام في فيه من حمأة البحر .

وقال: ﴿أَلَا نَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. ورؤي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن
النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل
عليه السلام: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال^(٣) البحر فأدسته في فيه مخافة أن تدركه^(٤)
الرحمة»^(٥). فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل ما مات فرعون فأمر الله البحر

(١) انظر: الطبري: ١٨٧/١٥ .

(٢) يقال: أَثَانَ وَفَرَسَ وَدَوَّقَ وَوَدَّقْتُ، وودقت وذاقاً: أرادت الفعل .

(٣) في (ب، ح) .

(٤) في (أ): (يدركه جانب الرحمة) .

(٥) أخرجه الترمذي في تفسير سورة يونس: ٢٢٥/٨، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: ٥٧/١، ٢٤٩/٤ .

وابن حبان ص (٤٣٢)، والطبري: ١٩٠/١٤-١٩٢، والطيالسي ص (٣٤١) والإمام أحمد في المسند: ٣٤٠/١ . وانظر: الكافي

الشاف ص (٨٥) .

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا
لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

فالتقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كآته ثور فرآه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً،
فذلك قوله :

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾، أي ثقلبك على نجوة من الأرض، وهي: المكان المرتفع. وقرأ يعقوب «نُنَجِّيكَ»
بالتخفيف، ﴿بِدَنِكَ﴾، بجسدك لا روح فيه. وقيل: ببدنك: بدرعك، وكان له درع مشهور مرصع
بالجواهر، فرآوه في درعه فصَدَّقُوا. ﴿لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾، عِرةً وعظَةً، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ
آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [أنزلنا بني إسرائيل] ^(١) بعد هلاك فرعون، ﴿مَبُوءًا صَدَقَ﴾، منزل
صدق، يعني: مصر. وقيل الأردن وفلسطين، وهي الأرض المقدسة التي كتب الله [ميراثاً] ^(٢) لإبراهيم
وذريته. قال الضحاك: هي مصر والشام، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، الحلات، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ يعني

= وقد زعم الزمخشري في «الكشاف» أن ما جاء في الحديث من قول جبريل عليه السلام: «خشية أن تدركه الرحمة» (من زيادات
الباهتين لله وملائكته. وفيه جهالتان: إحداهما أن الإيمان بالقلب، كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه. والأخرى: أن من كره إيمان
الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر، لأن الرضى بالكفر كفر». الكشاف: ٢٠٢/٢ .

ورُدَّ عليه الحافظ ابن حجر فقال: «وهذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغرض من أهله، فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد
أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وإسحاق، والبخاري، وأبو داود الطيالسي كلهم من رواية شعبة... ثم ساق
الروايات بأسانيدها - ثم قال:

وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري، وذلك أن فرعون كان كافراً كافر
عناد... ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره،
فخشى جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا، فيستمر في غيّه وطغيانه فُدسَّ في
فمه الطين، لينعم التكلم بما يقتضي ذلك. هذا وجه الحديث، ولا يلزم منه جهل ولا رضى بكفر. بل الجهل كل الجهل ممن اعترض
على المنقول الصحيح برأيه الفاسد .

وأيضاً: فإن إيمانه في تلك الحالة - على تقدير أنه كان صادقاً - بقلبه لا يقبل، لأنه وقع في حال الاضطراب، ولذلك عقب في
الآية بقوله: «وَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ» وفيه إشارة في قوله تعالى: «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» .

انظر: الكافي الشاف ص (٨٥-٨٦) .

(١) ساقط من: «أ» .

(٢) زيادة من «ب» .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ
جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ في تصديقه وأنه نبي، ﴿حتى جاءهم العلم﴾، يعني: القرآن والبيان بأنه رسول [الله] (١) صدق ودينه حق .

وقيل: حتى جاءهم معلومهم، وهو محمد ﷺ، لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه، فالعلم بمعنى المعلوم كما يقال للمخلوق: خَلَقَ، قال الله تعالى: «هذا خلق الله» (لقمان - ١١)، ويقال: هذا الدرهم ضَرْبُ الأمير، أي: مضرؤه .

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، من الدين .
قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، يعني: القرآن ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، فيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة .

قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب، فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به
١٧٢ / أ غيره، كقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ» / (الأحزاب - ١)، خاطب النبي ﷺ والمراد به المؤمنون، بدليل أنه
قال: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» ولم يقل: «بِمَا تَعْمَلُ» وقال: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ» (الطلاق - ١).
وقيل: كان الناس على عهد النبي ﷺ بين مصدق ومكذب وشاك، فهذا الخطاب مع أهل
الشك، معناه: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد، فاسأل
الذين يقرءون الكتاب من قبلك .

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني من آمن من أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه،
فيشهدون على صدق محمد ﷺ ويخبرونك بنبوته .
قال القراء: عَلِمَ الله سبحانه وتعالى أن رسوله غيرُ شاكٍّ، لكنه ذكره على عادة العرب، يقول الواحد
منهم لعبده: إِنْ كُنْتُ عَبْدِي فَأُطْعَمِي، ويقول لولده: افْعَلْ كَذَا وَكَذَا إِنْ كُنْتُ ابْنِي، ولا يكون بذلك على
وجه الشك .

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، من الشاكين .
﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وهذا كله خطاب مع النبي
ﷺ والمراد منه غيره .

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمِنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾، وجبت عليهم، ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، قيل: لعنته. وقال قتادة سخط الله. وقيل: «الكلمة» هي قوله: هؤلاء في النار ولا أبالي. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾، دلالة، ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، قال الأخفش: أَنْتَ فَعَلَ «كل» لأنه مضاف إلى المؤنث وهي قوله: «آية» ولفظ «كل» للمذكر والمؤنث سواء.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ أي: فهلا كانت، ﴿قَرْيَةٌ﴾، ومعناه: فلم تكن قرية لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد، أي: أهل قرية، ﴿أَمِنَتْ﴾، عند معاينة العذاب، ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾، في [حالة البأس] ^(١) ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾، فإنه نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت. و«قوم» نصب على الاستثناء المنقطع، تقديره: ولكن قوم يونس، ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وهو وقت انقضاء آجالهم.

واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب؟ والأكثر على أنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله: «كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ» والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قَرَّبَ.

وقصة الآية - على ما ذكره عبد الله بن مسعود، وسعيد بن جبير، وهب وغيرهم ^(٢) - أن قوم يونس كانوا بني نوى، من أرض الموصل، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا، فقبل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل. وقال وهب غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى [تغشاهم في

(١) في وب: (في حال اليأس).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٧/١٥ - ٢١٠، الدر المنثور: ٣٩٢/٤ - ٣٩٣، البداية والنهاية لابن كثير: ٢٣١/١ وما بعدها، تفسير ابن كثير: ٤٣٤/٢.

مدينتهم^(١) واسودت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس نبيهم فلم يجدوه، وقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم [وصبيانهم]^(٢) ودوابهم، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدها من الناس والأنعام فحنَّ بعضها إلى بعض، وعلت أصواتها، واختلطت أصواتها بأصواتهم، وعجُّوا وتضرعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وقالوا آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أضلهم، وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئاً، وكان مَنْ كَذَّب ولم تكن له بينة قتل، فقال يونس: كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتياً على ربِّه مغاضباً لقومه، فأثى البحر فإذا قوم يركبون سفينة، فعرفوه فحملوه بغير أجر، فلما دخلها وتوسطت بهم ولججت، وقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم، قال أهل السفينة: إن لسفینتنا لشأناً، قال يونس: قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا ومن هو؟ قال: أنا، اقدفوني في البحر، قالوا: ما كنا لنطرحك من بيننا حتى نعذر في شأنك، واستهْمُوا فاقترعُوا ثلاث مرات فأدحض سهمه، والحوث عند رجل السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربِّه فيه، فقال يونس: إنكم والله لتهلكنَّ جميعاً أو لتطرحنني فيها، فقدفوه فيه وانطلقوا وأخذوا الحوت .

وروي: أن الله تعالى أوحى إلى حوتٍ عظيم حتى قصد السفينة، فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فغر فاه ينظر إلى مَنْ في السفينة كأنه يطلب شيئاً خافوا منه، ولما رآه يونس زجَّ نفسه في الماء .

وعن ابن عباس: أنه خرج مغاضباً لقومه فأثى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة، فركبها فلما لججت السفينة، تكفأت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ها هنا رجل عاصي أو عبد آبق، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن ريمنا أن نقترع في مثل هذا فمن وقعت القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاث مرات، فوقعت القرعة في كلها على يونس، فقال يونس: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، فألقى نفسه في الماء فابتلعه حوت، ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذي منه شعرة، فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعاماً لك .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تُودي الحوت: إنا لم نجعل يونس لك قوتاً، إنما جعلنا بطنك له حرزاً ومسجداً .

وروي: أنه قام قبل القرعة فقال: أنا العبد العاصي والآبق، قالوا: من أنت؟ قال: أنا يونس بن متى، فعرفوه فقالوا: لا نلقيك يا رسول الله، ولكن نُسأهِم فخرجت القرعة عليه، فألقى نفسه في الماء .

(١) في «ب»: (غشي مدينتهم) .

(٢) ليست في «أ» .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ
عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ
وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة، وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأجاب الله له فأمر الحوت، فنبذه على ساحل البحر، وهو كالفرخ الممعة، فأثبت الله عليه شجرة من يقطين، وهو الدباء، فجعل يستظل تحتها ووكل به وعلة يشرب من / لبنها، فبيست الشجرة، فبكى عليها ١٧٢ / ب فأوحى الله إليه: تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بسلام يرعى، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنني لقيت يونس، فقال الغلام: قد تعلم أنه إن لم تكن لي بينة فقتلت، قال يونس عليه السلام: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال له الغلام: فمرها، فقال يونس: إذا جاءك هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلام، فقال للملك: إني لقيت يونس فأمر الملك بقتله، فقال: إن لي بينة، فأرسلوا معي، فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكم بالله هل أشهدكم يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾، يا أحمد، ﴿لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، هذه تسليية للنبي ﷺ، وذلك أنه كان حريصاً على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جل ذكره: أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة، ولا يضل إلا من سبق له الشقاوة .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾، وما ينبغي لنفس. وقيل: ما كانت نفس، ﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس: بأمر الله. وقال عطاء: بمشيئة الله. وقيل: بعلم الله. ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾، قرأ أبو بكر: «ونجعل» بالنون، والباقون بالياء، أي: ويجعل الله الرجس أي: العذاب وهو الرجز، ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، عن الله أمره ونهيه .

﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾، أي: قل للمشركين الذين يسألونك الآيات انظروا، ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، من الآيات والدلائل والعبر، ففي السموات الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها، ﴿وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ﴾، الرسل، ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾، وهذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون .

﴿فهل ينتظرون﴾، يعني: مشركي مكة، ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا﴾، مضوا، ﴿من قبلهم﴾، من مكذبي الأمم، قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود. والعرب تسمي العذاب أياماً، والنعيم أياماً، كقوله: «وذكروهم بأيام الله» (إبراهيم — ٥)، وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام، ﴿قل فانظروا إني معكم من المنتظرين﴾ .

﴿ثم نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، قرأ يعقوب «نُنَجِّي» خفيف مختلف عنه، ﴿والذين آمنوا﴾، معهم عند نزول العذاب معناه: نجينا، مستقبل بمعنى الماضي، ﴿كذلك﴾، كما نجيناهم، ﴿حقاً﴾، واجباً، ﴿علينا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قرأ الكسائي وحفص ويعقوب «نُنَجِّي» بالتخفيف والآخرين بالتشديد، ونَجَّاً وأنجى بمعنى واحد .

قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شكٍّ مِنْ دِينِي﴾، الذي أدعوك إليه .

فإن قيل: كيف قال: إن كنتم في شك، وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟ .

قيل: كان فيهم شاكون، فهم المراد بالآية، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمرهم وأمر النبي ﷺ .

قوله عز وجل: ﴿فلا أعبد الذين تعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، من الأوثان، ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾، يُميتكم ويقبض أرواحكم، ﴿وأمرت أن أكون مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قوله: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾، قال ابن عباس: عملك. وقيل: استقم على الدين حنيفاً. ﴿ولا تكوننَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾
 وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ
 لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا
 النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ
 ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ
 حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿وَلَا تَدْعُ﴾، ولا تعبد، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾، إن أطعته، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾، إن عصيته،
 ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾، فعبدت غير الله، ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾، الضارين لأنفسهم الواضعين للعبادة في
 غير موضعها .

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾، أي: يصيبك بشدة وبلاء، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾، فلا دافع له، ﴿إِلَّا
 هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، رخاء ونعمة وسعة، ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، فلا مانع لِرزقه، ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾، بكل
 واحد من الضر والخير، ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يعني: القرآن والإسلام، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا
 يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: على نفسه، ووبأله عليه، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾،
 بكفيل، أحفظ أعمالكم. قال ابن عباس: نسختها آية القتال^(١) .

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾، بنصرتك وقهر عدوك وإظهار دينه، ﴿وَهُوَ خَيْرُ
 الْحَاكِمِينَ﴾، فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يد وهم صاغرون .

(١) انظر فيما سبق: ٣٢/٣ تعليق (١)، الفوز الكبير للدهلوي ص (٥٣، ٦٠) .

سُورَةُ هُجُوْرٍ

1920

سُورَةُ هُودٍ

مكية إلا قوله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتِهَارِ﴾ وهي مائة وثلاث وعشرون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكِتَبُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا
حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿الرَّكِتَبُ﴾، أي: هذا كتاب، ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾، قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما
نسخت الكتب والشرائع به، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، يُنْتِ بالأحكام والحلال والحرام. وقال الحسن: أحكمت
بالأمر والنهي، ثم فُصِّلَتْ بالوعد والوعيد. قال قتادة: أحكمت أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا
تناقض وقال مجاهد: فُصِّلَتْ أي: فُسِّرَتْ. وقيل: فصلت أي: أنزلت شيئاً فشيئاً، ﴿مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ
خَبِيرٍ﴾ .

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، أي: وفي ذلك الكتاب: أن لا تعبدوا إلا الله، ويكون محل «أن» رفعاً.
وقيل: محله خَفَضٌ، تقديره: بأن لا تعبدوا إلا الله، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾، للعاصين،
﴿وَبَشِيرٌ﴾، للمطيعين .

﴿وَأَنِ﴾، عطف على الأول، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، أي: ارجعوا إليه بالطاعة. قال
الفراء: «ثم» هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢﴾

وقيل: أن استغفروا [ركبكم من المعاصي ثم توبوا] ^(١) إليه في المستأنف ^(٢).
﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾، يعيشكم عيشاً [حسناً في خفض ودعة وأمن وسعة] ^(٣). قال بعضهم:
العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور.
﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، إلى حين الموت، ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾، أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة. وقال أبو العالية: من كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة [في الجنة] ^(٤)، لأن الدرجات تكون بالأعمال.

وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب ^(٥) الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد.
وقيل: يؤت كل ذي فضل فضله / يعني: من عمل لله عز وجل وفقه الله فيما يستقبل على طاعته.
﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أعرضوا، ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، وهو يوم القيامة.
﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٧٣/أ

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، قال ابن عباس ^(٦): نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي بقلبه على ما يكره.
قوله: «يثنون صدورهم» أي: يخفون ^(٧) ما في صدورهم من الشحناء والعداوة.
قال عبدالله بن شداد: نزلت في بعض المنافقين كان إذا مرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأ رأسه، وغطى وجهه كي لا يراه النبي ﷺ ^(٨).

(١) زيادة من «ب».

(٢) في «ب»: (المستقبل).

(٣) في «ب»: (في سعة ودعة وأمن).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) زيادة من «ب».

(٦) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٦)، القرطبي: ٥/٩.

(٧) في «ب»: (يجمعون).

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٣/١٥-٢٣٤.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي﴾

كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾

وقال قتادة: كانوا يَخْتُونُ صدورهم كي لا يسمعو كتاب^(١) الله تعالى ولا ذكره^(٢).

وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه. ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي.

وقال السدي: يثنون أي: يعرضون بقلوبهم، من قولهم: ثنيت عناني. وقيل: يعطفون، ومنه ثني الثوب. وقرأ ابن عباس: «يَتَنَوْنِي»^(٣) على وزن «يَخْلَوْنِي» جعل الفعل للمصدر، ومعناه المبالغة في الثني. ﴿لَيْسَتْ خُفُوفًا مِنْهُمْ﴾ أي: من رسول الله ﷺ. قال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، يغطون رؤوسهم بثيابهم، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، قال الأزهرى: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمرُوا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا الحسن^(٤) بن محمد بن صباح، حدثنا حجاج قال: قال ابن جريج أخبرني محمد بن عبَّاد بن جعفر أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾، فقال: سألته عنها قال: كان أناس يستحيون أن يتخلَّوْا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ليس دابة، «من» صلة، والدابة: كل حيوان يدب على وجه الأرض.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، أي: هو المتكفل بذلك فضلاً، وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق.

وقيل: «على» بمعنى: «من» أي: من الله رزقها.

(١) في «ب»: (كلام).

(٢) انظر: الطبري: ٢٣٥/١٥.

(٣) في الطبري: (يَتَنَوْنِي) بالتاء الفوقية، على مثال: «تَخْلَوْنِي الثمرة»، «تَقْمُوعِل».

(٤) في «ب»: (الحسين)، وكذلك في الطبري: والمثبت من «أ» وهو كذلك في البخاري.

(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب: «أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ...» ٣٤٩/٨.

وانظر الطبري: ٢٣٦/١٥-٢٣٧.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

وقال مجاهد^(١): ما جاءها من رزق فمن الله عز وجل، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً .
﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾، قال ابن مقسم^(٢): ويروى ذلك عن ابن عباس، مستقرها: المكان الذي تأوي إليه، وتستقر فيه ليلاً ونهاراً، ومستودعها: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت .
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه^(٣): المستقر أرحام الأمهات والمستودع [المكان الذي تموت فيه]^(٤) [وقال عطاء: المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء]^(٥) .
ورواه سعيد بن جبير، وعلي بن أبي طلحة، وعكرمة عن ابن عباس^(٦) .
وقيل: المستقر: الجنة أو النار، والمستودع القبر، لقوله تعالى في صفة الجنة والنار: «حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا» (الفرقان — ٧٦) .
﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾، أي: كل مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن خلقها .
قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، قبل أن خلق [السماء والأرض]^(٧) وكان ذلك الماء على متن الريح^(٨) .
قال كعب: ^(٩) خلق الله عز وجل ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الريح، فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء .

(١) الطبري: ٢٤٠/١٥ .

(٢) الطبري: ٢٤١/١٥-٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) في «ب»: (أصلاب الآباء) .

(٥) ساقط من «ب» .

(٦) الطبري: ٢٤٢/١٥ . والذي رجحه أن قوله تعالى: «ويعلم مستقرها» حيث تستقر فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلاً أو نهاراً «ومستودعها» الموضع الذي يودعها، إما بموتها فيه أو دفنها... لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ما رزقت الدواب من رزق فمعه، فأولى أن يتبع ذلك أنه يعلم مأواها ومستقرها، دون الخبر عن علمه بما تتضمنه الأصلاب والأرحام. انظر: الطبري ٢٤١/١٥ و٢٤٣ .

(٧) في «ب»: (السماء) .

(٨) أخرج ذلك عن ابن عباس: الطبري: ٣٤٩/١٥ وفي التاريخ كذلك: ٢١/١، وضححه الحاكم في المستدرک: ٣٤١/٢ ووافقه الذهبي .

(٩) كعب الأبحار من رواية الاسرائيليات، ولم نجد من ذكر هذا غيره .

وَلَيْنَ أَخْرَنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ
لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنَ آْرَحْمَةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۚ ﴿٦﴾

قال ضمرة: إن الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض، وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه (١).

﴿لَيَلْوَكُنَّ﴾، ليختبركم، وهو أعلم، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أعمل بطاعة الله، وأورع عن محارم الله تعالى. ﴿وَلَيْنَ قُلْتُ﴾، يا محمد، ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ أي: ﴿من بعد الموت لَيَقُولُنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾، يعنون القرآن. وقرأ حمزة والكسائي: «ساحر» يعنون محمداً ﷺ.

﴿وَلَيْنَ أَخْرَنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، إلى أجل محدود، وأصل الأمة: الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾، أي شيء يحبسه؟ يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاء، يعنون: أنه ليس بشيء.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾، يعني: العذاب، ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، لا يكون مصروفاً عنهم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾، نزل بهم، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: وبال استهزائهم. قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، نعمة وسعة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾، أي: سلبناها منه، ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾، قنوط في الشدة، ﴿كَفُورًا﴾ في النعمة.

(١) أخرجه الطبري: ٢٤٩/١٥.

وقد ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله بعض الأحاديث في تفسير الآية منها حديث الإمام أحمد والشيخين عن عمران بن حصين.. وفيه «كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية: غيره - وفي رواية: معه - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض».

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض، بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء».

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن لقيط بن عامر قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك».

انظر: تفسير ابن كثير: ٤٣٨/٢.

وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾، بعد بلاء أصابه، ﴿ليقولن ذهب السيئات عني﴾، زالت الشدائد عني، ﴿إنه لفرح فخور﴾، أشير بطر، والفرح: لذة في القلب بنيل المشتى، والفخر: هو التطاول على الناس بتعدد المناقب، وذلك منهى عنه .

﴿إلا الذين صبروا﴾، قال الفراء: هذا استثناء منقطع، معناه: لكن الذين صبروا ﴿وعملوا الصالحات﴾، فإنهم إن نالهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا، ﴿أولئك لهم مغفرة﴾، لذنوبهم، ﴿وأجر كبير﴾، وهو الجنة .

﴿فلعلك﴾، يا محمد، ﴿تارك بعض ما يوحى إليك﴾، فلا تبلغه إياهم. وذلك أن كفار مكة لما قالوا: «أئت بقرآن غير هذا» (يونس — ١٥) ليس فيه سب آلهتنا هم النبي ﷺ أن يدع آلهتهم ظاهراً، فأنزل الله تعالى:

﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾^(١) يعني: سب الآلهة، ﴿وضائق به صدرك﴾، أي: فلعلك يضيق صدرك ﴿أن يقولوا﴾، أي: لأن يقولوا، ﴿لولا أنزل عليه كتراً﴾ ينفقه ﴿أو جاء معه ملك﴾، يصدقه، قاله عبدالله بن أبي أمية المخزومي .

قال الله تعالى: ﴿إنما أنت نذير﴾ ليس عليك إلا البلاغ، ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ حافظ .

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٤٩/٧ - وقال بعد أن ذكر سبب النزول: «فخاطب الله تعالى نبيه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقفاً راداً على أقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنى أنه ﷺ هم بشيء من هذا فزجر عنه. فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحى إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم ويتعدهم عن الإيمان» .
ثم قال بعد ذلك: «... ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قد عظم عليه ما يلقى من الشدة. فمال إلى أن يكون من الله تعالى إذن في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو ذلك من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءت بذلك آيات المراجعة» .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، بل يقولون اختلقه، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ .
فإن قيل: قد قال في سورة يونس: «فأتوا بسورة مثله»، وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿فأتوا بعشر سور﴾، فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهماً فيعجز، فيقول: أعطني عشرة؟ .

١٧٢ / ب

الجواب: قد قيل سورة / هود نزلت أولاً .
وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً، وقال: معنى قوله في سورة يونس: «فأتوا بسورة مثله»، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، [فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد] ^(١) فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة ^(٢)، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾، واستعينوا بمن استطعت، ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾، يا أصحاب محمد. وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول ﷺ وحده.
﴿فَاعْلَمُوا﴾، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: مع المشركين، ﴿أَلَمَّْا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾، يعني: القرآن. وقيل: أنزله وفيه علمه، ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: فاعلموا أن لا إله إلا هو، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا .

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، ﴿وَزِينَتَهَا﴾، نزلت في كل من عمل عملاً يريد به غير الله عز وجل ^(٣) ﴿نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾، أي: نُوفِّ لهم

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) وقال ابن الزبير الغزنائي في ملك التأويل: ٣٩/١ ... لما قيل هنا: مفتريات، فوسّع عليهم، ناسبه التوسعة في العدد المطلوب؛ لأن الكلام المُفْتَرَى أسهل فناسبه التوسعة. أما الوارد في السورتين قبل - سورة البقرة الآية ٢٣، وسورة يونس الآية ٣٨ - فلم يذكر لهم فيها أن يكون مفترى عليه، بل السابق من الآيتين: المماثلة مطلقاً، وذلك أصعب وأشق عليهم مع عجزهم في كل حال، فوقع الطلب حيث التضييق بسورة واحدة، وحيث التوسعة بعشر سور مناسبة جلييلة واضحة وقد جابوا بما هذا معناه بعض المفسرين .

وانظر: الكشف: ٤٨/١ - ٥٠ .

(٣) وهذا مروي بسند صحيح عن سعيد بن جبير في الآية، قال: «من عمل للدنيا نوفه في الدنيا» .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

أَجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكافء وما أشبهها. ﴿وهم فيها لا يتحسنون﴾، أي: في الدنيا لا ينقص حظهم .

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها﴾ [أي: في الدنيا] (١) ﴿وباطل﴾، ﴿ما كانوا يعملون﴾ .

اختلفوا في معنى هذه الآية (٢): قال مجاهد: هم أهل الرياء. وروينا أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يارسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء» (٣) .

قيل: هذا في الكفار (٤)، وأما المؤمن: فيريد الدنيا والآخرة، وإرادته الآخرة غالبية فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة .

وروينا عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعطى بها خيراً» (٥) .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ﴾، بيان، ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾، قيل: في الآية حذف، ومعناه: أفمن كان

= أخرجه هناد في الزهد: ٢٧٤/٢، وابن أبي شيبة في المصنف: ٥١٩/١٣، بلفظ «وَقَبِهَ فِي الدُّنْيَا» والطبري: ٢٦٣/١٥. وعزاه السيوطي أيضاً لابن أبي حاتم بلفظ: «هُوَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِلدُّنْيَا، لَا يُرِيدُ بِهِ اللَّهُ» .

(١) زيادة من «ب» .

(٢) في «ب»: (المعنى بهذه الآية) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤٢٨/٥-٤٢٩، والمصنف في شرح السنة: ٣٢٤/١٤ .

قال الهيثمي في المجمع: ١٠٢/١ «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح» وقال المنذري في الترغيب والترهيب: ٦٩/١ «ورواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد وغيره» ثم قال: «وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. وقيل: إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع بن خديج فيه. والله أعلم» .

وانظر: النهج السديد في تخریج أحاديث تيسير العزيز الحميد ص (٤٦) .

(٤) انظر: الطبري: ٢٦٥/١٥ .

(٥) أخرجه مسلم في صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، برقم (٢٨٠٨): ٢١٦١/٤، والمصنف في شرح السنة: ٣١٠/١٤ .

على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو مَنْ كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بينة من ربه: النبي ﷺ .

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، أي: يتبعه من يشهد به بصدقه. واختلفوا في هذا الشاهد^(١): فقال ابن عباس، وعلقمة، وإبراهيم، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام . وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ .

وروى ابن جريج عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده .

وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن ونظمه وإعجازه .

وقيل: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال علي: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية من القرآن، فقال له رجل: وأنت أي شيء نزل فيك؟ قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾^(٢) . وقيل: شاهد منه هو الإنجيل^(٣) .

﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾، أي: ومن قبل مجيء محمد ﷺ . وقيل: من قبل نزول القرآن. ﴿كِتَابٌ مُوسَى﴾، أي: كان كتاب موسى، ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾، لمن اتبعها، يعني: التوراة، وهي مصدقة للقرآن، شهادة للنبي ﷺ، ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، يعني: أصحاب محمد ﷺ . وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب . ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، أي: بمحمد ﷺ . وقيل: بالقرآن، ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾، من الكفار من أهل الملل كلها، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ .

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، ولا يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٤) .

(١) انظر هذه الأقوال الآتية في: الطبري: ٢٧٠/١٥-٢٧٦ .

(٢) أخرجه الطبري بسند فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، وكان رافضياً من أتباع عبدالله بن سبأ، وكذلك ضعف هذا القول ابن كثير في التفسير: ٤٤١/٢ وقال: «هو ضعيف لا يثبت له قائل» .

(٣) ورجح الطبري رحمه الله أن أولى الأقوال في تأويل قوله تعالى: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» هو قول من قال: «هو جبريل» لدلالة قوله: «وَمَنْ قَبْلَهُ» كتاب موسى إماماً ورحمة على صحة ذلك. التفسير: ٢٧٦/١٥ .

وقال ابن كثير رحمه الله: هو ما أوحاه الله إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكتملة المعظمة المختمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ»: إنه جبريل عليه السلام وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة هو محمد ﷺ . وكلاهما قريب في المعنى لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة. التفسير: ٤٤١/٢ .

(٤) أخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة، بلفظ: «... من هذه الأمة يهودي ولا نصراني...» كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، برقم (١٥٣): ١٣٤/١، والمصنف باللفظ أعلاه، شرح السنة: ١٠٤/١ وهو كذلك عند أبي عوانة: =

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾، أي: في شك منه، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فزعم أن له ولداً أو شريكاً، أي: لا أحد أظلم منه، ﴿أُولَٰئِكَ﴾، يعني: الكاذبين والمكذبين، ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، فيسألهم عن أعمالهم. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾، يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما. إنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو قول الضحاك^(١).

وقال قتادة: الخلائق كلهم.

وروينا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَتَفَهُ وَيَسْتَرْهُ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته»، وأما الكفار والمنافقون [فينادي بهم على رؤوس الخلائق]^(٢)، ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

= ١٠٤/١ والإمام أحمد في المسند برقم (٨١٨٨) طبعة الحلبي، ومهام بن منبه في الصحيفة برقم (٩١) ص (٤٠٩). والمراد بالآمة في هذا الحديث: كل من أرسل إليه محمد ﷺ ولزمته حجته، سواء صدقه أو لم يصدقه. وعلى هذا يتناول اللفظ جميع أما الدعوة، من هو موجود في زمنه ﷺ، ومن يتجدد وجوده بعده إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته ﷺ. وقوله: ولا يهودي ولا نصراني: من عطف الخاص على العام، وإنما ذكر تنبيهاً على من سواهما... وقال القرطبي: إذا كانت الرواية من غير عطف «يهودي» و «نصراني» فهما يدل من الآمة.

أما بالعطف - كما في رواية البغوي هنا - فلا يدخل اليهودي ولا النصراني في الآمة المذكورة. وقال العراقي: ويحتمل أن يراد بهذه الآمة: العرب الذين هم عبدة الأوثان، وحيث عطف اليهودي والنصراني على بابه، لعدم دخولهما فيما تقدم، وقوله في روايتنا: «ولا يهودي ولا نصراني» يوافق ذلك. انظر: صحيفة مهام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه، بتحقيق وشرح الدكتور رفعت فوزي عبدالمطلب ص (٤٠٩-٤١٠) والمراجع مشار إليها.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٣/١٥، الدر المنثور: ٤١٢/٤-٤١٣.

(٢) في «ب»: «فيقول الأشهاد» والمثبت من «أ» وهو الموافق لرواية البخاري.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب قول الله تعالى: «ألا لعنة الله على الظالمين»، ٩٦/٥، وفي التوحيد، وفي الرقاق. وأخرجه مسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كفر قتل، برقم (٢٧٦٦): ٢١٢٠/٤، والمصنف في شرح السنة: ١٣٢/١٥-١٣٣.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾، يمنعون عن دين الله، ﴿ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

﴿أولئك لم يكونوا معجزين﴾، قال ابن عباس: سابقين. قال قتادة: هارين. وقال مقاتل: فائتين. ﴿في الأرض وما كان لهم من دُونِ الله من أولياء﴾، يعني أنصاراً وأعواناً يحفظونهم من عذابنا، ﴿يضاعف لهم العذاب﴾، أي: يزداد في عذابهم. قيل: يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير واقتداء الاتباع بهم.

﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾، قال قتادة: صُمُّ عن سماع الحق فلا يسمعون، وما كانوا يبصرون الهدى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله عز وجل أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: «ما كانوا يستطيعون السمع» وهو طاعته، وفي الآخرة قال: «فلا يستطيعون»، خاشعة أبصارهم.

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾، غبنوا أنفسهم، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾، يزعمون من شفاعة / الملائكة والأصنام.

﴿لا جرم﴾، أي: حقاً. وقيل: بلى. وقال الفراء: لا محالة، ﴿أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾، يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار^(١).

= وقوله في الحديث: «فيضع عليه كنفه» بفتح الكاف والتون، بعدها فاء - المراد بالكنف: الستر، وقد جاء مفسراً بذلك في رواية عبدالله بن المبارك عن محمد بن سواء عن قتادة فقال في آخر الحديث: قال عبدالله بن المبارك: كنفه: سترو. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد».

والمعنى: أنه تحيط به عنايته التامة. ومن رواه بالمشناة المكسورة - كنفه - فقد صحف، على ما جزم به جمع من العلماء. انظر: فتح الباري: ٤٧٧/١٣.

(١) في «ب»: (الخسارة).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ
وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾، قال ابن عباس: خافوا. قال قتادة: أنابوا. قال
مجاهد: اطمأنوا. وقيل: خشعوا. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: لربهم. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾، المؤمن والكافر، ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾،
قال الفراء: لم يقل هل يستوون، لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف الكافر،
والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد، لأنهما من وصف المؤمن، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي^(١): تتعظون.
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي
ويعقوب^(٢) «أني» بفتح الهمزة أي: بأنني، وقرأ الباقر بكسرها، أي: فقال إني، لأن في الإرسال معنى
القول: إني لكم نذير مبين.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾، أي: مؤلم. قال ابن عباس: بُعِثَ
نوح عليه السلام بعد أربعين سنة، ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين
سنة، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة.

وقيل: بُعِثَ وهو ابن خمسين سنة.

وقيل: بعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة، ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد
الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة قال الله تعالى: «فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ
سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» (العنكبوت - ١٤) أي: فلبث فيهم داعياً.

(١) في «ب»: [أفلا].

(٢) ساقطة من «ب».

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَاسَنِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ مِثْلَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: والملا هم الأشراف والرؤساء. ﴿ما نراك﴾، يانوح، ﴿إلا بشراً﴾، آدمياً، ﴿مِثْلَنَا وَمَا نراك أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ﴾، سفلتنا، والردل: الدون من كل شيء، والجمع: أرذل، ثم يجمع على أرذل، مثل: كلب وأكلب وأكالب، وقال في سورة الشعراء: «وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» يعني: السفلة. وقال عكرمة: الحاقة والأساكفة، ﴿بَادَى الرَّأْيِ﴾، قرأ أبو عمرو «بادىء» بالهمز، أي: أول الرأي، يريدون أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكر، ولو تفكروا لم يتبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز، أي ظاهر الرأي من قولهم: بدا الشيء: إذا ظهر، معناه: اتبعوك ظاهراً من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطناً. قال مجاهد: رأى العين، ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. ﴿قَالَ﴾، نوح، ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: بيان من ربِّي ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةٌ﴾، أي: هدى ومعرفة، ﴿مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: خفيت والتبست عليكم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ» بضم العين وتشديد الميم، أي: شبت ولبست عليكم. ﴿أُنْزِلُكُمْ مِثْلَهَا﴾، أي: أنزلكم البينة والرحمة، ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾، لا تريدونها. قال قتادة: لو قدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يلزموا [قومهم] الإيمان لألزموهم^(١) ولكن لم يقدرُوا.

قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾، أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، كناية عن غير مذكور، ﴿إِنْ أَجْرِي﴾، ما نوابي، ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين، ﴿إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبَّهُمْ﴾، [أي: صائرون إلى]^(٢) ربهم في المعاد فيجزى من طردهم، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

(١) في (ب): (قومهم لألزموا).

(٢) ساقط من (أ).

وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأُنَادِيكُمُ اتَّعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

﴿ويا قوم من ينصُرني من الله﴾، من يمنعني من عذاب الله، ﴿إن طردتهم أفلا تذكرون﴾، تتعظون .

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾، فأتى منها ما تطلبون، ﴿ولا أعلم الغيب﴾، فأخبركم بما تريدون وقيل: إنهم لما قالوا لنوح: إن الذين آمنوا بك إنما اتبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح مجيباً لهم: ولا أقول لكم: عندي خزائن غيوب الله، التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب، فأعلم ما يسترونه في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر من إيمانهم، ﴿ولا أقول إِنِّي مَلَكٌ﴾، هذا جواب قولهم: «ما نراك إلا بشراً مثلاً». ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾، أي: تحتقره وتستصغره أعينكم، يعني: المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أرادلنا، ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: توفيقاً وإيماناً وأجراً، ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾، من الخير والشر مني، ﴿إني إذا لَمِنَ الظالمين﴾، لو قلت هذا .

﴿قالوا يانوخ قد جادلنا﴾، خاصمتنا، ﴿فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا﴾، من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ .

﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾، يعني: بالعذاب، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين .

﴿ولا ينفعكم نصحي﴾، أي نصيحتي، ﴿إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾، يضلكم، ﴿هو ربكم﴾، له الحكم والأمر ﴿وإليه ترجعون﴾، فيجزيك بأعمالكم .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْحَرُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبَنَّ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني نوحاً عليه السلام. وقال مقاتل: يعني محمداً ﷺ. ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾، أي: إثمِي ووبال جُرْمي. والإجرام: كسب الذنب. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، لا أؤاخذ بذنوبكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط، فيلقونه في لَبْدٍ^(١)، ويلقونه في قعر بيت، يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عز وجل.

رُوي أَنَّ شيخاً منهم جاء يتوكأ على عصا، ومعه ابنه، فقال: يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون، فقال له: يا أبت أمكني من العصا، فأخذ العصا من أبيه، فضرب نوحاً حتى شجّه شجرة منكرة، فأوحى الله عز وجل إليه^(٢): ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، فإني مهلكهم ومنقذك منهم فحيث دعا نوح عليهم: «فَقَالَ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» (نوح - ٢٦).

وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه^(٣). أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، حتى إذا تهادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلا كان أحبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، فشكا إلى الله تعالى فقال: / «رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا» إلى أن قال: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا»، ١٧٤/ب فأوحى الله تعالى إليه:

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، قال ابن عباس بمرأى متاً. وقال مقاتل: بعلمنا. وقيل: بحفظنا.

(١) اللَّبْد: الصوف، ويقال: ماله سَبَدٌ ولا لَبْدٌ: لا شعر له ولا صوف. أي: ماله قليل ولا كثير.

(٢) عزاه السيوطي لإسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس: ٤/٤١٧، وما يتفرد به ابن عساكر وأمثاله: ضعيف.

(٣) انظر: الطبري: ٣١٣/١٥-٣١٤، وهو أيضاً في التاريخ للطبري: ٩٢/١-٩٣.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَوَحِينَا﴾، بأمرونا. ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، بالطوفان، قيل: معناه لا تخاطبني في إمهال^(١) الكفار، فإني قد حكمت بإغراقهم. وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان وامراتك وأعلة فإنهما هالكان مع القوم.

وفي القصة^(٢) أن جبريل أتى نوحاً عليه السلام فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تصنع الفلك، قال: كيف أصنع ولست بنجار؟ فقال: إن ربك يقول اصنع فإنك بعيني، فأخذ القدم وجعل يصنع ولا يخطيء. وقيل: أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو^(٣) الطائر.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك ولها عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء عدة الفلك من القار وغيره، وجعل قومه يمزون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون: يانوح قد صرت نجاراً بعد النبوة؟ وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد^(٤).

وزعم أهل التوراة^(٥): أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أزور^(٦)، وأن يطليه بالقار^(٧) من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلى ووسطى وعلياً ويجعل فيه كوى، ففعله نوح كما أمره الله عز وجل.

وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وظولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن

(١) في «ب»: (إهلاك).

(٢) التي رواها الطبري كما سبق.

(٣) في «ب»: (خرطوم).

(٤) من القصة السابقة عن ابن إسحاق في رواية الطبري.

(٥) زعم أهل التوراة! وزعم مطية الكذب، ونحن متعبدون بتصديق ما في الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٦) «أزور» من «الزور» - بفتح فسكون - وهو الصدر، و«الزور» بفتحيتين - وهو عوج الصدر، وهو أن يستدق جوشن الصدر، ويخرج الكلكل، كأنه غصير من جانيبه. انظر: حاشية الطبري: ٣١٤/١٥.

(٧) القار: الزفت، قال في القاموس: شيء أسود تطل به الإبل والسفن، أو هو الزفت.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد .

وقال قتادة: كان بابها في عرضها .

وروى عن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ست مائة ذراع. والمعروف الأول: أن طولها ثلثمائة ذراع .

وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها، ومائة سنة يعمل الفلك .

وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجففه أربعين سنة .

وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة في ثلاثين سنة، وروى أنها كانت ثلاث طبقات، الطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمر ذنب الفيل فغمزه فوق منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفار بجوف السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفار^(١) .

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾، كانوا يقولون: إن هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجاراً، ورؤي أنهم كانوا يقولون له: يانوح ماذا تصنع؟ فيقول أصنع بيتاً يمشي على الماء، فيضحكون منه، ﴿قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾، إذا عاينتم عذاب الله، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبي؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني إن تستجهلوني فأني استجهلكم إذا نزل العذاب بكم. وقيل: معناه إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخرتكم .

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، يبينه، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾، يجب عليه، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، دائم .

(١) هذه التفصيلات عن السفينة وطولها وطبقاتها وما حمل فيها، وعن المخلوقات وكيفية خلقها من بعضها... إلخ ذكرها الطبري والسيوطي أيضاً، وهي من الاسرائيليات التي اختلقها اليهود وأضرابهم على مر العصور، وكانت شائعة مشهورة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام نشرها أهل الكتاب الذين أسلموا بين المسلمين، وهؤلاء روهوا بحسن نية، ولم يزيّفوها اعتقاداً على أن ظاهرها البطلان. وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى غرابة رواية ابن إسحاق التي سلفت عند البغوي .

انظر: الاسرائيليات والموضوعات، للشيخ محمد أبي شهبه ص (٣٠١-٣٠٥)، تفسير ابن كثير: ٤٤٥/٢-٤٤٦ .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤﴾

﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ عذابنا، ﴿وفار التنور﴾، اختلفوا في التنور^(١): قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة . وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: فار التنور أي: طلع الفجر ونورح الصبح . وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين^(٢) . ورواية عطية عن ابن عباس قال الحسن: كان تنوراً من حجارة، كانت حواء تخبز فيه فصار إلى نوح عليه السلام، فقيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب انت وأصحابك . واختلفوا في موضعه^(٣)، قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة، [وكان الشعبي يحلف: ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة]^(٤) . وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة. وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فوران الماء منه علماً لنوح عليه السلام . وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وكان بالشام بموضع يقال له: عين وردة . وروي عن ابن عباس: أنه كان بالهند . والفوران: الغليان .

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾، أي في السفينة، ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يقال لكل واحد منهما زوج، يقال: زوج خف وزوج نعل، والمراد بالزوجين هاهنا: الذكر والأنثى . قرأ حفص هاهنا وفي سورة المؤمنين: ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بالتثنية أي: من كل صنف زوجين اثنين، ذكره تأكيداً .

وفي القصة: أن نوحاً عليه الصلاة والسلام قال: يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه السباع والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة . ﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: واحمل أهلك، أي: ولدك وعيالك، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، بالهلاك،

(١) انظر في هذا: الطبري: ٣١٨/١٥-٣٢١ .

(٢) ورجح هذا الطبري فقال: «وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله: «التنور» قول من قال: «هو التنور الذي يخبز فيه»، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. وكلام الله لا يُوجَّه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك، فيسلم لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به». الطبري: ٣٢١/١٥ .

(٣) انظر: الطبري: ٣٢٠/١٥-٣٢١ .

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

يعني: امرأته وإعلة وابنه كنعان، ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ يعني: واحمل من آمن بك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، واختلفوا في عددهم^(١): قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية نفر: نوح، وامرأته^(٢)، وثلاثة بنين له سام وحام ويافث، ونساؤهم. [وقال الأعمش: كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين له، وثلاث كنائن له]^(٣). وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم، نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعاً.

وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامراً وبنيه الثلاثة ونساءهم، فجميعهم ثمانية وسبعون، نصفهم رجال ونصفهم نساء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم. قال مقاتل: / حمل نوح معه جسد آدم فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميعاً ١٧٥ / أ الدواب والطيور ليحملها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه، فلم يستقل رجلاه، فجعل نوح يقول: ويحك ادخل: فينهض فلم يستطع، حتى قال نوح: ويحك ادخل وإن الشيطان معك. كلمة زلت على لسانه، فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان، فقال له نوح: ما أدخلك عليّ يا عدو الله؟ قال: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك، قال: أخرج عني يا عدو الله، قال: مالك بدّ من أن تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك.

وروي عن بعضهم: أن الحية والعقرب أتيا نوحاً فقالتا: احملنا، فقال: إنكما سبب الضر والبلاء، فلا أحملكما، فقالتا له: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك فمن قرأ حين خاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين ما ضرتهما.

قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض، فأما ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منه شيئاً^(٤).

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ٣٢٥/١٥-٣٢٧ وقال: «والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: «وما آمن معه إلا قليل»، يصفهم بأنهم كانوا قليلاً، ولم يحدّ عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح. فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حدّ الله، إذا لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدّ من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ».

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: «وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة. وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلك، لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم» التفسير: ٤٤٦/٢.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) هذه القصص وأمثالها، ذكرها السيوطي في الدر: ٤٢٣/٤ وما بعدها.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٩٥/٧ «... وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان». وانظر فيما سبق ص (١٧٥) تعليق (١).

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

﴿وقال اركبوا فيها﴾، أي: وقال لهم نوح اركبوا فيها أي في السفينة، ﴿بسم الله مجريها ومرساها﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «مَجْرِبُهَا» بفتح الميم أي: جَرِبَهَا «ومرساها» [بضمها] (١)، وقرأ محمد بن محيصن «مَجْرِبُهَا ومرساها بفتح الميمين من جرت ورست، أي: [بسم الله] (٢) جريها ورسوها، وهما مصدران. وقرأ الآخرون: «مُجْرَاهَا ومُرساها» بضم الميمين من أُجريت وأُرسيت، أي: بسم الله إجرأؤها وإرساؤها [وهما أيضاً مصدران] (٣)، كقوله: «أنزلني منزلاً مباركاً» (المؤمنون — ٢٩) و«أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق» (الإسراء — ٨٠) والمراد منها: الإنزال والإدخال والإخراج. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله، فرست .

﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾، والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الرياح، شبهه بالجبال في عظمه وإرتفاعه على الماء. ﴿ونادى نوح ابنه﴾، كنعان، وقال عبيد بن عمير: سام، وكان كافراً، ﴿وكان في معزل﴾، عنه لم يركب في السفينة: ﴿يأبني اركب معنا﴾، [قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب] (٤) بإظهار الباء، والآخرون يدغمونها في الميم، ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾، فتهلك .

﴿قال﴾ له ابنه ﴿سآوي﴾، سأصير وألتجئ، ﴿إلى جبل يعصمني من الماء﴾، يمنعي من الغرق، ﴿قال﴾ له نوح ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾، من عذاب الله، ﴿إلا من رحم﴾، قيل: «من» في محل الرفع، أي لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم. وقيل: «من» في محل النصب، معناه لا معصوم إلا من رحمه الله، كقوله: «في عيشة راضية» (الحاقة — ٢١) أي: مرضية، ﴿وحوال بينهما الموج فكان﴾، فصار، ﴿من المغرقين﴾ .

(١) ساقط من: «أ» .

(٢) ساقط من: «ب» .

(٣) ساقط من «أ». وانظر في هذه القراءات وتوجيهها: الطبري ٣٢٧/١٥ — ٣٣٠ .

(٤) ساقط من: «أ» .

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

وروي أن الماء علا رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعاً. [وقيل: خمسة عشر ذراعاً] (١).
وروي: أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم لصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل
حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها ذهب حتى استوت على الجبل، فلما
بلغ الماء رقبتهما رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي (٢).
﴿وقيل﴾، يعني: بعدما تنهى أمر الطوفان: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي﴾، تَشْرَبِي، ﴿مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ
أَقْلَعِي﴾، أمسكي، ﴿وَوَغِيضَ الْمَاءِ﴾، نقص ونضب، يقال: غاض الماء يغيض غيضاً إذا نقص، وغاضه
الله أي أنقصه، ﴿وَوَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الأمر وهو هلاك القوم ﴿وَاسْتَوَتْ﴾، يعني السفينة استقرت،
﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾، وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾، هلاكاً، ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.
وروي أن نوحاً عليه السلام بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث
الحمامة فجاءت بورك زيتون في منقارها ولطخت رجلها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقبل إنه
دعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت، وطوق الحمامة الخضر التي في عنقها ودعا لها بالأمان،
فمن ثم تأمن وتألف البيوت (٣).
وروي: أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجزت بهم السفينة ستة أشهر،
ومرت بالبيت فطافت به سبعاً (٤) وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا يوم عاشوراء، فصام
نوح، وأمر جميع من معه بالصوم شكراً لله عز وجل.

(١) ساقط من: «ب».

(٢) أخرجه الحاكم: ٣٤٢/٢ وصححه وقال الذهبي إسناده مظلم، وموسى ليس بذلك.
وقد ذكر في القصة أن الله تعالى أيسر أصلاب الآباء وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بأربعين سنة، وقيل: بسبعين سنة، ولم يكن فيهم
صبي وقت العذاب، لقوله تعالى «وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم»، فلم يوجد التكذيب من الأطفال، فحكاية أم الصبي عجيبة.
ويمكن أن يقال: يجوز أن سن بلوغهم فوق السبعين لطول أعمارهم فكان فيهم الصبيان فعمهم العذاب.
وقد يقال إن في ذلك روايتين: الأولى أنه أيسر أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نسائهم قبل العذاب بأربعين سنة أو سبعين، ولم يكن
فيهم صبي وقت العذاب. وفي رواية لم يكن ذلك الإيلاس والإعقام، فيوجد فيهم الصبيان وقت العذاب تبعاً لآبائهم المكذبين في
عذاب الدنيا، أما في عذاب الآخرة ففيه مذهبان وقولان: فعند البعض هم في الآخرة مع آبائهم المكذبين، وعند البعض هم في
الجنة، وهو الأصح والأقوى. انتهى ملتقطاً من حاشية «أ» بشيء من التصرف.

(٣) انظر فيما سلف ص (١٧٧) تعليق (٤).

(٤) قال الساجي: حدثنا الربيع، حدثنا الشافعي قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله ﷺ قال: إن
سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلت خلف المقام ركعتين؟ قال نعم.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ابْنِ لِي مِنْ أَهْلِي وَإِصْنِي عَمَلِي إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ لِيَ ذُرِّيَّةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا تَجْعَلْ لِي جَارًا مِنْهُمْ إِنَّهُمْ يَكُونُونَ لِي بِغَضَبٍ مِنْكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُخُ فِيهِ نُوحٌ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ لِيَ ذُرِّيَّةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا تَجْعَلْ لِي جَارًا مِنْهُمْ إِنَّهُمْ يَكُونُونَ لِي بِغَضَبٍ مِنْكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿٤٦﴾

وقيل: ما نجا من الكفار من الغرق غير عُوج بن عُتُق كان الماء إلى حجزته، وكان سبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحملة عوج إليه من الشام، فنجاه الله تعالى من الغرق لذلك^(١).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ابْنِ لِي مِنْ أَهْلِي﴾، وقد وعدتني أن تنجينني وأهلي؟ ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، لا خلف فيه، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك.

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، قرأ الكسائي ويعقوب: «عَمِلٌ» بكسر الميم وفتح اللام «غير» بنصب الراء على الفعل، أي: عمل الشرك والتكذيب. وقرأ الآخرون بفتح الميم ورفع اللام وتنوينه، «غير» برفع الراء معناه: أن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾، يا نوح، ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

قرأ أهل الحجاز والشام «فلا تسألن»^(٢) بفتح اللام وتشديد النون، ويكسرون النون غير ابن كثير فإنه يفتحها، وقرأ الآخرون بحزم اللام وكسر النون خفيفة، ويثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش ويعقوب الياء في الوصل.

﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

= قال الساجي: وهو منكر الحديث، وقال الطحاوي: حديثه عند أهل العلم بالحديث في النهاية من الضعف، وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة. انظر: التهذيب: ١٦٢/٦، والتعليق السابق.

(١) قال العلامة ابن القيم، رحمه الله، وقد ذكر حديث عوج بن عتق مثلاً على ما قامت الشواهد الصحيحة على بطلانه: «... وليس العجب من جرأة مثل هذا الكذاب على الله، إنما العجب ممن يُدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره، ولا يبين أمره. وهذا عندهم من ذرية نوح، وقد قال الله تعالى: «وجعلنا ذريته هم الباقين» (الصافات: ٣٧) فأخبر أن كل من بقي على وجه الأرض فهو من ذرية نوح، فلو كان لعوج - هذا - وجود لم يبق بعد نوح. النار المنيف في الصحيح والضعيف ص (٧٧)، وانظر: رسالة السيوطي بعنوان: الأوج في خبر عوج، ضمن الخاوي للفتاوى: ٥٧٣-٥٧٨، البداية والنهاية لابن كثير: ١١٤/١، الأسرار المرفوعة لملا علي القاري ص (٤٢٥-٤٢٧) مع تعليق المحقق.

(٢) في «ب»: (فلا تسألني).

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

واختلفوا في هذا الابن؛^(١) قال مجاهد والحسن: كان ولد خنث^(٢) من غير نوح، ولم يعلم بذلك نوح، ولذلك قال: ﴿ما ليس لك به علم﴾. وقرأ الحسن «فخانتاهما» (التحريم - ١٠).

وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن امرأته وكان يعلمه نوح ولذلك قال «من أهلي» ولم يقل مني . وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثر^(٣): إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه. وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: من أهل الدين^(٤) /، لأنه كان مخالفاً له في الدين، وقوله: «فخانتاهما» أي: في الدين والعمل الصالح لا في الفرائض .

وقوله: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يعني: أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر .
﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ﴾ أنزل من السفينة، ﴿بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾، أي [بأمن وسلامة منا]^(٥)، ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ٣٤٠/١٥ - ٣٤٦ .

(٢) في «أ»: (خبيث). و«الخنث» (بكسر الخاء وسكون النون): الذنب والمعصية. وفي الحديث: «يكفر فيهم أولاد الخنث» أي: أولاد الزنا. ويروى: «الخنث» (بالحاء مضمومة والثاء) من «الخنث» وهو الفساد والفجور .
وفي الحديث: «إذا كثرت الخبث كان كذا وكذا...» أي: الفسق والفجور. وفي الحديث: «أنه أتى برجل مخدج سقيم، وجد مع أمه يخبث بها» أي: يزي بها ويقال: «هو ابن خبثة» لابن الزنية، ولد لغير رشدة .
انظر: تعليق الشيخ محمود شاكر على الطبري: ٣٤٠/١٥ .

(٣) وهو ما رجحه الطبري، قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفاً وفي كافرين = وكان ابنه، لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمداً ﷺ أنه ابنه فقال: «ونادى نوح ابنه»، وغير جائز أن يخبر أنه «ابنه» فيكون بخلاف ما أخبر. وليس في قوله: «إنه ليس من أهلك» دلالة على أنه ليس بابنه، إذ كان قوله «ليس من أهلك» محتملاً من المعنى ما ذكرنا، ومحتملاً «إنه ليس من أهل دينك» ثم يحذف «الدين» فيقال: «إنه ليس من أهلك» كما قيل: «واسأل القرية التي كنا فيها» (يوسف - ٨٢) .

انظر: الطبري: ٣٤٦/١٥ .

(٤) في «ب»: (دينك) .

(٥) ساقط من «ب» .

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

عليك، البركة هي: ثبوت الخير، ومنه: برك البعير. وقيل: البركة هاهنا هي: أن الله تعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة، ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾، أي: على ذرية أمم ممن كان معك في السفينة، يعني على قرون تجيء من بعدك، من ذرية من معك، من ولدك وهم المؤمنون، قال محمد بن كعب القرظي: دخل فيه كل مؤمن إلى قيام الساعة ﴿وَأُمَمٍ سَمِعْتَهُمْ﴾، هذا ابتداء، أي: أمم سمنتهم في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾، أخبار الغيب، ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، من قبل نزول القرآن، ﴿فَاصْبِرْ﴾، على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح، ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ آخر الأمر بالسعادة والنصرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد، ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾، في النسب لا في الدين، ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَحَدُوا اللَّهَ﴾^(١) ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ما أنتم [في إشراككم]^(٢) إلا كاذبون.

﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: على تبليغ الرسالة، ﴿أَجْرًا﴾، جعلاً، ﴿إِنْ أَجَرْتُ﴾، ما ثوابي، ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾، خلقتني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، أي: آمنوا به، والإستغفار هاهنا بمعنى الإيمان، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، من عبادة غيره ومن سالف ذنوبكم، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾، أي: يرسل المطر عليكم متتابعاً، مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾، أي: شدة مع شدتكم. وذلك أن الله عز وجل

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْنَا بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوهُ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ
﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم
أرسل الله عليكم المطر، فتزدادون مالا، ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال
والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة البدن. ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾، أي: لا تدبروا مشركين.
﴿قالوا يا هود ما جئنا ببينة﴾، أي: ببرهان وحجة واضحة على ما تقول، ﴿وما نحن بتاركي آل هارون
عن قولك﴾، أي: بقولك، ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾، بمصدقين.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْنَا بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ أي: أصابك ﴿بسوء﴾ يعني: لست تتعاطى ما نتعاطاه من
مخالفتنا وسب آل هارون إلا أن^(١) بعض آل هارون، اعتراك، أي: أصابك بسوء بخيل وجنون، وذلك أنك سبيت
آل هارون فانتقموا منك بالتخيل لا نحمل أمرك إلا على هذا، ﴿قال﴾، لهم هود، ﴿إني أشهد الله﴾، على
نفسي، ﴿وأشهدوا﴾، يا قوم ﴿إني بريء مما تشركون﴾.
﴿مِنْ دُونِهِ﴾، يعني: الأوثان، ﴿فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، فاحتملوا في مكرم^(٢) وضري أنتم وأوثانكم، ﴿ثم
لا تُنْظَرُونَ﴾ [لا تؤخرون ولا تمهلون]^(٣).

﴿إني توكلت﴾ أي: اعتمدت ﴿على الله ربِّي وربكم ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ قال
الضحاك: يحببها ويميتها.

قال الفراء: مالكتها والقادر عليها.

وقال القتيبي: يقهرها، لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته.

وقيل: إنما خص الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلة، فتقول: ناصية
فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسروا إنساناً وأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليعتدوا بذلك فخراً عليه،
فخاطبهم الله بما يعرفون.

(١) في «ب»: (إلا لأن).

(٢) في «ب»: (مكرم).

(٣) زيادة من المطبوع.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
 شَيْئًا إِنْ رَزَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
 وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
 الْقِيَامَةِ ۖ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بَعْدَ ٱلْعَادِ قَوْمٌ هُودٌ ﴿٦٠﴾

﴿إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، يعني: إن ربي وإن كان قادراً عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلا بالإحسان والعدل، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه. وقيل: معناه إن دين ربي إلى صراط مستقيم .
 وقيل (١): فيه إضمار، أي: إن ربي يحثكم ويحملكم على صراط مستقيم .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: تتولوا، يعني: تعرضوا عمّا دعوتكم إليه، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، أي: إن أعرضتم يهلككم الله عز وجل ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم، يوحدونه ويعبدونه، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، بتوليكم وإعراضكم، إنما تضرون أنفسكم. وقيل: لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء، ﴿إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾، أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، عذابنا، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾، وكانوا أربعة آلاف .
 ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ بنعمة ﴿مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وهو الريح التي أهلك بها عاداً، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجيناهم في الآخرة .

﴿وَتِلْكَ ءَادٌ﴾، رده إلى القبيلة، ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، يعني: هوداً وحده، ذكره بلفظ الجمع لأن من كذب رسولاً كان كمن كذب جميع الرسل، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: واتباع السفلة والسقاط أهل التكبر والعناد، والجبار: المتكبر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق، يقال: عَنَدَ الرجل يعنَد عنوداً إذا أَى أن يقبل الشيء وإن عرفه. قال أبو عبيدة (٢): العنيد والعاند والعنود والمعاند: المعارض لك بالخلاف .

﴿وَٱتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أي: أُرِدُّوْا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعة: هي الإبعاد والطرد عن الرحمة، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: وفي يوم القيامة أيضاً لعنوا كما لعنوا في الدنيا والآخرة، ﴿أَلَا إِنَّ

(١) ساقط من (ب) .

(٢) في (ب): (عبيد) .

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۝﴾
 قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ۝﴾

عاداً كفروا ربهم، أي: برهم، [يقال: كفرته وكفرت به، كما^(١)] يقال: شكرته وشكرت له ونصحتُه ونصحتُ له. ﴿الْأَبْعَدُ لَعَادِ قَوْمٍ هُوَ﴾، قيل: بعداً من رحمة الله. وقيل: هلاكاً. وَلِیُبْعِدَ معنیان: أحدهما ضد القرب، يقال منه: بَعُدَ یُبْعَدُ بُعْدًا، [والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعُدَ یُبْعَدُ بُعْدًا وَبُعْدًا^(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً في النسب [لا في الدين]^(٣)، ﴿قَالَ ياقوم اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحَدُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ^(٤)، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، ابتداء خلقكم، ﴿مَنْ الْأَرْضِ﴾، وذلك أنهم من آدم عليه السلام وآدم تخلق من الأرض، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أي: جعلكم عُمَارَهَا وَسُكَّانَهَا، قال الضحاک: أطلال عمرکم فیها حتی کان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك / قوم عاد .

أ/١٧٦

قال مجاهد: أَعْمَرَكُمْ من العُمري، أي: جعلها لكم ما عِشتم. وقال قتادة: أَسَكَنَكُمْ فيها .

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾، من المؤمنين، ﴿مُجِيبٌ﴾ لدعائهم .

﴿قَالُوا﴾، يعني ثمود، ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾، القول، [أي: كنا نرجوا]^(٥) أن تكون سيداً فِينَا. وقيل: كنا نرجوا أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [من قَبْلُ]^(٦)، من الآلهة، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾، موقع للريبة والتهمة، يقال: أَرَبْتُهُ إِرَابَةً إِذَا فَعَلْتُ بِهِ فَعَلًا يوجب له الريبة .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) في «ب»: (وَحَدُّوْهُ) .

(٥) ساقط من «ب» .

(٦) ساقط من «ب» .

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي
 مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ
 آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ
 قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
 مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةً﴾، نبوة وحكمة، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي
 مِنَ اللَّهِ﴾، أي: من يمنعني من [عذاب] (١) الله، ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، قال ابن
 عباس: معناه: غير بصارة في خسارتكم.

قال الحسين (٢) بن الفضل: لم يكن صالح عليه السلام في خسارة حتى قال: «فما تزدونني غير
 تخسير»، وإنما المعنى: ما تزدونني بما تقولون إلا نسبتي إليكم إلى الخسارة.
 والتفسيق والتفجير في اللغة هو: النسبة إلى الفسق والفجور، وكذلك التخسير هو: النسبة إلى
 الخسران.

﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾، نصب على الحال والقطع، وذلك أن قومه طلبوا منه أن يخرج
 ناقةً عُشراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة، فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في
 الحال ولداً مثلها (٣)، فهذا معنى قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾، من
 العشب والنبات فليست عليكم مؤنتها، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾: ولا تصيبوها بعقر، ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾، إن
 قتلتموها، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾، لهم صالح، ﴿تَمَتَّعُوا﴾، عيشوا (٤)، ﴿فِي دَارِكُمْ﴾، أي: في دياركم، ﴿ثَلَاثَةَ
 أَيَّامٍ﴾، ثم تهلكون، ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، أي: غير كذب.
 روي أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مُصْفَرَّة، وفي
 اليوم الثاني مُحْمَرَّة، وفي اليوم الثالث مسوَّدة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

(١) ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: (الحسن).

(٣) انظر فيما سبق، سورة الأعراف: ٢٤٩/٣-٢٥٠.

(٤) في «ب»: (تعيشوا).

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ
يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا شَمُودَ أَكْفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِشَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ قَالُوا اسْلَمَا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ
أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾، بنعمة منا، ﴿وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾، أي: من عذابه وهوانه. قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي: «خزي يومئذ» و«عذاب يومئذ» بفتح الميم. وقرأ الباقر بالكسر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، كفروا، ﴿الصَّيْحَةَ﴾، وذلك أَنَّ جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً. وقيل: أتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم. وإنما قال: «وأخذ» الصيحة مؤنثة، لأن الصيحة بمعنى الصباح. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، صرعى هلكى.

﴿كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، يقيموا ويكونوا فيها ﴿أَلَا إِنَّا شَمُودَ أَكْفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِشَمُودَ﴾، قرأ حمزة وحفص ويعقوب: «شمود» غير منون، وكذلك في سورة الفرقان والعنكبوت والنجم، وافق أبو بكر في النجم، وقرأ الباقر بالتنوين، وقرأ الكسائي: «لشمود» بخفض الدال والتنوين، والباقر بنصب الدال، فمن جرّه فلأنه اسم مذكر، ومن لم يجره جعله اسماً للقبيلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ﴾، أراد بالرسول الملائكة. واختلفوا في عددهم^(١)، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

وقال الضحاك: كانوا تسعة.

وقال مقاتل: كانوا إثني عشر ملكاً.

وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه سبعة.

وقال السدي: كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الوضاء وجوههم.

﴿بالبشري﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب. وقيل: بإهلاك قوم لوط.

(١) انظر في هذه الأقوال: البحر المحيط: ٢٤١/٥.

فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا
أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ
إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

﴿قالوا سلاماً﴾، أي: سلّموا سلاماً، ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿سلام﴾، أي: عليكم سلام: وقيل: هو رفع
على الحكاية، كقوله تعالى: «وقولوا حطة» (البقرة ٨٥ والأعراف ١٦١)، وقرأ حمزة والكسائي «سلّم»
هاهنا وفي سورة الذاريات بكسر السين بلا ألف. قيل: هو بمعنى السلام. كما يقال: حل وحلال، وجرم
وحرام. وقيل: هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم أي صلح لكم غير حرب .
﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾، والحنيذ والمخنوذ: هو المشوي على الحجارة في خد من الأرض،
وكان سميناً يسيل دسماً، كما قال في موضع آخر: «فجاء بعجل سمين» (الذاريات — ٢٦): قال قتادة:
كان عامة مال إبراهيم البقر .

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾، أي: إلى العجل، ﴿نكرهم﴾، أنكرهم، ﴿وأوجس﴾، أضمر،
﴿منهم خيفة﴾، خوفاً. قال مقاتل: وقع في قلبه، وأصل الوجوس: الدخول، كان الخوف دخل قلبه. وقال
قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنما جاء بشر. ﴿قالوا
لا تخف﴾، يا إبراهيم [إنا رسل ربك. يعني: (١)]، ﴿إنا﴾ ملائكة الله ﴿أرسلنا إلى قوم لوط﴾ .
﴿وامراته﴾ سارة بنت هاران بن أهور (٢) وهي ابنة عم إبراهيم. ﴿قائمة﴾ من وراء الستر تسمع
كلامهم. وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل، وإبراهيم جالس معهم. ﴿فضحكت﴾، قال مجاهد وعكرمة:
ضحكت أي: حاضت في الوقت، تقول العرب: ضحكت الأرب، أي: حاضت والأكثر على أن
المراد منه الضحك المعروف .

واختلفوا في سبب ضحكها، قيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا لا تخف.
وقال السدي: لما قرب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم وظنهم لصوصاً فقال لهم: ألا
تأكلون؟ قالوا: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال إبراهيم: فإن له ثمناً، قالوا وما ثمنه؟ قال تذكرون اسم الله
على أوله وتحمّدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حقّ لهذا أن يتخذة ربّه خليلاً. فلما رأى
إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجباً لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً
لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

(١) زيادة من «ب» .

(٢) في «ب»: (ماخوذ) .

قَالَتْ يَوَيْلَتِي ٱلَّذِى ٱنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخًا ٱبْكُ هَذَا الشَّيْءُ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾
 قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللّهِ رَحِمْتُ ٱللّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
 مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم .

وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة [في بيته] ^(١) وهو فيما بين خدمه وحشمه .

وقيل: ضحكت سروراً بالبشارة .

وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنّها وسنّ زوجها . وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وأمرأته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكت، وقالت: يا ويلتى أألد وأنا عجوز؟ .

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾، أي: من بعد إسحاق، ﴿يَعْقُوبَ﴾، أراد به والده لولد فبشرت أنها تعيش حتى / ترى ولد ولدها قرأ ابن عامر وحزمة وحفص ويعقوب بنصب الباء، ١٧٦/ب أي: من وراء إسحاق يعقوب. وقيل: بإضمار فعل، أي: ووهبنا له [من وراء] ^(٢) يعقوب. وقرأ الباقون بالرفع على حذف حرف الصفة. وقيل: ومن بعد إسحاق يحدث يعقوب، فلما بشرت بالولد ضحكت فصكت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجباً .

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَا﴾، نداء ندبة ^(٣) وهي كلمة يقوها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، أي: يا عجباً. والأصل يا ويلتاه. ﴿ٱلَّذِى ٱنَا عَجُوزٌ﴾، وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق. وقال مجاهد: تسعاً وتسعين سنة. ﴿وَهَذَا بَعْلِى﴾، زوجي، سمي بذلك لأنه قيّم أمرها، ﴿شَيْخًا﴾؛ نصب على الحال، وكان سنّ إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق. وقال مجاهد: مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ .

﴿قَالُوا﴾، يعني الملائكة، ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللّهِ﴾، معناه: لا تعجبي من أمر الله، فَإِنَّ ٱللّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا كَانَ. ﴿رَحْمَةُ ٱللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي: بيت إبراهيم عليه السلام. قيل: هذا على معنى الدعاء من الملائكة، وقيل: معنى الخير والرحمة والنعمة .

(١) ساقط من (ب) .

(٢) ساقط من (ب) .

(٣) في (ب): (تعجب) .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
 لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَّبِعْهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ
 عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
 هَذَا يَوْمُ عَصِيبٍ ﴿٧٧﴾

والبركاتُ جمع البركة، وهي ثبوت الخير. وفيه دليل على أن الأزواج من أهل البيت .
 ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾، فالحميد: الحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد الرفعة .
 ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾، الخوف، ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾، بإسحاق ويعقوب،
 ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، فيه إضمار، أي: أخذ وظل يجادلنا .

قيل: معناه يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربه عز وجل إنما يسأله ويطلب إليه .
 وقال عامة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة: أرايتم لو كان في مدائن
 لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ
 خمسة، [قالوا: لا] ^(١)، قال: أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال إبراهيم عليه السلام
 عند ذلك: إن فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا أمراته كانت من الغابرين .
 ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾، قال ابن جريج: وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف، فقالت
 الرسل عند ذلك لإبراهيم .

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، أي: أعرض عن هذا المقال ودع عنك الجدل، ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ
 رَبِّكَ﴾، أي، عذاب ربك [وحكم ربك] ^(١)، ﴿وَأِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾، نازل بهم، ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾، أي:
 غير مصروف عنهم .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾، يعني: هؤلاء الملائكة، ﴿لُوطًا﴾، على صورة غلمان مرد حسان
 الوجوه، ﴿سِئَاءَ بِهِمْ﴾، أي: حزن لوط بمجيئهم، يقال: سؤته فسيء، كما يقال: سررته فسر. ﴿وضاقَ
 بِهِمْ ذَرْعًا﴾، أي: قلباً. يقال: ضاق ذرع فلان بكذا: إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه، وذلك أن
 لوطاً عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم
 بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم .

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، أي: شديد كأنه عصب به الشر والبلاء، أي: شد .

(١) ساقط من «ب» .

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ

رَشِيدٌ ٧٨

قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية لوط فأتوا لوطاً نصف النهار، وهو في أرض له يعمل فيها .

وقيل: إنه كان يحطب. وقد قال الله تعالى لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشى ساعة قال لهم: ما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشُرُّ قرية في الأرض عملاً. يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله .

وروي: أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمرّ على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط: إن قومي شر خلق الله، ثم مرّ على قوم آخرين، فغمزوا، فقال مثله، ثم مرّ بقوم آخرين فقال مثله، فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة: اشهدوا، حتى أتى منزله .

وروي: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط^(١) .

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، قال ابن عباس [وقتادة]^(٢): يسرعون إليه. وقال مجاهد: يهرولون، وقال الحسن: مشي بين مشيتين. وقال شمر بن عطية: بين الهرولة [والجمز]^(٣) .

﴿وَمَنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل مجيئهم إلى لوط، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، كانوا يأتون الرجال في أدبارهم. ﴿قَالَ﴾، لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان، ﴿يَاقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، يعني: بالتزويج، وفي^(٤) أضيافه بيناته، وكان في ذلك الوقت، تزويج المسلمة من الكافر جائزاً كما زوج النبي ﷺ ابنته من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين^(٥) .

وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام .

وقال مجاهد وسعيد بن جبیر: قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾، أراد: نساءهم، وأضاف إلى نفسه لأنّ كلّ

(١) انظر: الطبري: ٤٠٨/١٥-٤٠٩، ٤٢٤-٤٢٥، الدر المنثور: ٤٥٧/٤ وما بعدها .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) في «ب»: (الخبب) .

(٤) هكذا في الأصل، ولعلها «وق» .

(٥) ذكره ابن هشام والطبراني والبيهقي في الدلائل انظر: الكافي الشاف ص (٨٦-٨٧) .

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً
 أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ
 بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا إِنَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
 إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

نبي أبو أمته. وفي قراءة أبي بن كعب: «النبي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أَمْهَاتُهُمْ» (الأحزاب - ٦) وهو أب لهم .

وقيل: ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على التحقيق، ولم يرضوا هذا .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي﴾، [أي: خافوا الله ولا تخزون في ضيفي] ^(١)، أي: لا تسوؤني ولا تفضحوني في أضيافي. ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، صالح سديد. قال عكرمة: رجل يقول لا إله إلا الله. وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، يالوط، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: لسن أزواجاً لنا فنستحقهن بالنكاح. وقيل: معناه ما لنا فيهن من حاجة وشهوة. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، من إتيان الرجال .

﴿قَالَ﴾، لهم لوط عند ذلك: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾، أراد قوة البدن، أو القوة بالاتباع، ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أي: انضم إلى عشيرة مانعة. وجواب «لو» مضمرة أي لقاتلناكم وحلنا بينكم وبينهم قال أبو هريرة: ما بعث الله بعده نبياً إلا في منعة من عشيرته .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب بن أبي حمزة، أنبأنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَغْفِرُ اللَّهُ لِلَّوِطِ إِنْ كَانَ لِيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» ^(٢) .

قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابَه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب /، وهم يعالجون تسوّر الجدار، فلما رأَت الملائكة ما يلقي لوط بسبيهم:

﴿قَالُوا يَالُوطُ﴾، إن رُكنك لشديد، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه عز وجل في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي

(١) ساقط من «ب» .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب «ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» : ٤١٥/٦ .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من دُرٍّ منظوم، وهو بَرَّاق الثنايا، أَجَلَى الجبين، ورأسه حُبْكٌ^(١) مثل المرجان، كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يالوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منا غداً. يُوعِدُونَهُ، فقال^(٢) لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم؟ فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا ﴿أليس الصبح بقريب﴾؟ ثم قالوا، ﴿فأسر﴾، يا لوط، ﴿بأهلك﴾.

قرأ أهل الحجاز «فأسر وأن أسر» بوصل الألف [حيث وقع في القرآن]^(٣) من سرى يسري، وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري، ومعناها واحد وهو المسير بالليل.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾، قال ابن عباس: بطائفة من الليل. وقال الضحاك: ببقية. وقال قتادة: بعد مُضِيِّ أوله وقيل: إنه السحر الأول.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «امراتك» برفع التاء على الاستثناء من الالتفات، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتك فإنها تلتفت فتهلك، وكان لوط قد أخرجها معه، ونهى من تبعه، ممن أسرى بهم أن يلتفت، سوى^(٤) زوجته، فإنها لما سمعت هدة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه، فادركها حجر فقتلها.

وقرأ الآخرون: بنصب التاء على الاستثناء من الإساءة، أي: فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها وخلفها مع قومها، فإن هَؤُلَاءِ إليهم، وتصديقه قراءة ابن مسعود «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك ولا يلتفت منكم أحد».

﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾، من العذاب، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ﴾، أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط: أريد أسرع من ذلك، فقالوا ﴿أليس الصبح بقريب﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمئة ألف. وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، فلم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه نائم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾، أي على شذاذها ومسافريها. وقيل: بعدما قلبها أمطر

(١) يعني «حبك الشعر» وهو الجعد المتكسر منه. وانظر: الطبري: ٤٣٠/١٥ مع التعليق عليه.

(٢) هكذا في المخطوط. وفي المطبوع جاء قبل قول لوط: «قالت الملائكة: لا تخف، إنا أرسلنا لإهلاكهم، فقال لوط...».

(٣) ساقط من «ب».

(٤) هكذا في الأصل وفي المطبوع ولعلها: فلم يلتفت سوى زوجته - كما جاء في هامش «أ».

مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ * وَإِلَى
مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

عليها، ﴿حجارةٌ من سجيل﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير: (سنگ وكل) فارسي معرب .
وقال قتادة وعكرمة: السجيل الطين، دليله قوله عز وجل: «لنرسل عليهم حجارة من طين»
(الذاريات — ٣٣) .

قال مجاهد^(١): أولها حجر وآخرها طين .

وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشدت .

وقال الضحاك: يعني الآجر .

وقيل: السجيل اسم السماء الدنيا^(٢) .

وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالى: «وينزل من السماء من جبال فيها من برد» (النور — ٤٣) .

قوله تعالى: ﴿مَنْضُودٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: متتابع، يتبع بعضها بعضاً، مفعول من

النضد، وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض .

﴿مُسَوِّمَةٌ﴾، من نعت الحجة، وهي نصب على الحال، ومعناها معلمة: قال ابن جريج: عليها سيما

لأشياكل حجارة الأرض .

وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع .

وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم .

وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمي به .

﴿عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ﴾، يعني: تلك الحجارة، ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: من مشركي مكة، ﴿بِبَعِيدٍ﴾،

وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة، والله ما أجار الله منها ظالماً بعد .

وفي بعض الآثار: «مَا مِنْ ظَالِمٍ إِلَّا وَهُوَ بَعْرُضٍ حَجَرٍ يَسْقُطُ عَلَيْهِ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ» .

وروي: أن الحجر أتبع شذاذهم ومسافريهم أين كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر

معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج فأصابه فأهلكه .

قوله عز وجل: ﴿وَالِى مَدْيَنَ﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا

(١) في «ب»: قال ابن عباس .

(٢) قاله أبو العالية وابن زيد. وهذا ضعيف، لوصفه بـ «منضود». انظر: البحر المحيط: ٢٤٩/٥ .

وَيَقَوْمٍ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ فَأْمُرْكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ
ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، أي: لا تبخسوا، وهم كانوا يُظفّفون مع شِرْكهم،
﴿إِلَى أَرْكَامٍ بَخِيرٍ﴾، قال ابن عباس: موسرين في نعمة. وقال مجاهد: في خصب وسعة، فحذّره زوال
النعمة، وغلاء السعر، وحلول النعمة، إن لم يتوبوا. فقال: ﴿وَأِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾،
يحيط بكم فيهلككم.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، أتموها، ﴿بِالْقِسْطِ﴾، بالعدل. وقيل: بتقويم لسان الميزان،
﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾، لا تنقصوا، ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني ما أبقى الله لكم
من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذونه بالتطفيف. وقال مجاهد: بقية الله: أي طاعة الله،
خير لكم إن كنتم مؤمنين بأن ما عندكم من رزق الله وعطائه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾، بوكيل. وقيل:
إنما قال ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم.

﴿قَالُوا يَا شَعِيبُ أَصْلَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، من الأوثان. قال ابن عباس رضي الله
عنهما: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة. لذلك قالوا هذا. وقال الأعمش: يعني: أقرأتك. ﴿أَوْ أَنْ
نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ من الزيادة والنقصان.

وقيل: كان شعيب عليه السلام نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم وزعم أنه محرم عليهم، فقالوا: أو أن
نعمل في أموالنا ما نشاء من قطعها^(١).

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادوا: السفية الغاوي، والعرب
تصف الشيء بضده فتقول: للديغ سليم وللغلاة مفازة. [وقيل^(٢)]: قالوه على وجه الاستهزاء.

وقيل: معناه الحليم الرشيد يزعمك.

وقيل: هو على الصحة أي إنك يا شعيب فينا حليم رشيد، لا يجمل بك شق عصا قومك ومخالفة
دينهم، كما قال قوم صالح عليه السلام: «قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا» (هود - ٦٢).

(١) انظر: الطبري: ٤٥٠/١٥ - ٤٥١.

(٢) في «ب»: (وقد) وهو أليق بالسياق.

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾، بصيرة وبيان، ﴿مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، حلالاً. وقيل: كثيراً. وكان شعيب / عليه السلام كثير المال. وقيل: الرزق الحسن: العلم والمعرفة. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ﴾، أي: ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه. ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾، ما أريد فيما [أمركم به وأنهاكم عنه] ^(١) ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾، والتوفيق: تسهيل سبيل الخير والطاعة. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعتمدت، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، أرجع فيما ينزل بي من النوائب. وقيل: في المعاد.

١٧٧/ب

﴿وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، لا يحملنكم، ﴿شِقَاقِي﴾، خلافي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾، أي: على فعل ما أنهاكم عنه، ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾، من الغرق، ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾، من الريح، ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾، من الصيحة، ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾، وذلك أنهم كانوا [حديثي عهد بهلاك] ^(٢) قوم لوط. [وقيل معناه وما دار قوم لوط منكم ببعيد، وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط] ^(٣).

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، وللودود ^(٤) معنيان: أحدهما، أنه محب للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين. وجاء في الخبر: إن شعبياً عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام ^(٥).

(١) في «ب»: (أمرتكم به إلى ما أنهاكم عنه).

(٢) في «ب»: (جيران).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) في «ب» (وللود...).

(٥) ذكره أبو الشيخ عن سفيان. انظر: فتح القدير للشوكاني: ٥٢٢/٢.

قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٩٤﴾

﴿قَالُوا يَا شَعِيبُ مَا نَفَقَهُ﴾، ما نفهم، ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، وذلك أنه كان ضريع البصر، فأرادوا ضعف البصر^(١)، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾، عشيرتك وكان في منعة من قومه، ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾، لَقَتَلْنَاكَ. والرجم: أبقح القتل. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا﴾، عندنا، ﴿بِعَزِيزٍ﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: مكان رهطي أميب عندكم من الله، أي: إن تركتم قتل لِمَكَانِ رَهْطِي فَالْأَوَّلَى أَنْ تَحْفَظُونِي فِي اللَّهِ. ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾، أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على تودتكم وتمكنكم. يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تودة وتمكن. ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾، على تمكني، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: الجاني على نفسه، والخطيء في فعله، فذلك قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يذله ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾، قيل: «من» في محل نصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب. وقيل: عمله رفع، تقديره: ومن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره. ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾، وانتظروا العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾، منتظر.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾، قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثَمِينَ﴾، ميتين.

(١) قال ابن عطية رحمه الله: وهذا ضعيف لا تقوم عليه حجة، بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: «ضعيفاً» أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه. وقال أبو روق: إن الله لم يبعث نبياً أعمى، ولا نبياً به زمانة. انظر: المهرر الوجيز: ٣٨٤/٧، البحر المحيط: ٢٥٦/٥.

كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا بُعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ
﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ
رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ

﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا﴾ أي: كأن لم [يقيموا ولم يكونوا] ^(١) ﴿فِيهَا أَلَا بُعْدًا﴾، هلاكًا، ﴿لِلْمَدِينِ كَمَا
بَعْدَتْ﴾، هلكَتْ ﴿ثَمُودُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، حجة بينة.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، بسديد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾، يتقدمهم، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ﴾ فأدخلهم ﴿النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾، أي:
بئس المدخل المدخول فيه.

﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ﴾، أي: في هذه الدنيا، ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾، أي: العون
المعان. وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعتان، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾، عامر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾، خراب. وقيل: منها قائم بقيت
الحيطان وسقطت السقوف. وحصيد أي: انمحق أثره. وقال مقاتل: قائم يرى له أثر وحصيد لا يرى له أثر،
وحصيد بمعنى محصود.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾، بالعذاب والهلاك، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، بالكفر والمعصية. ﴿فَمَا أَغْنَتْ
عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، عذاب ربك، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ
تَتْبِيبٍ﴾، أي: غير تخسير، وقيل: تدمير.

﴿وَكَذَلِكَ﴾، وهكذا، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، أخبرنا
عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا

(١) في (ب): (يكونوا فيها).

إِنْ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ
مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٤﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٥﴾
يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

صدقة بن الفضل، أنبأنا أبو معاوية، أنبأنا يزيد بن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلُتْهُ»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ (١) الآية .

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، لَعِبْرَةٌ، ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، أي: يشهده أهل السماء والأرض. ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾، أي: وما تؤخر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة [وقرأ يعقوب، وما يؤخره بالياء] (٢)، ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، [معلوم] (٣) عند الله .

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ قرىء بإثبات الياء وحذفها، ﴿لَا تَكَلِّمُ﴾، أي: لا تتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، أي: فمنهم من سبقت له الشقاوة ومنهم من سبقت له السعادة .

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنبأنا جدي أبو سهل عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدبري، أنبأنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن منصور، عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبدالرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرجنا على جنازة فينا نحن بالقيع إذ خرج علينا رسول الله ﷺ وبه يده مَحْصَرَةٌ، فجاء فجلس، ثم نكت بها الأرض ساعة، ثم قال: «ما من نفسٍ منفوسةٍ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ»، قال: فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا يا رسول الله وندعُ العمل؟ قال: «لا، ولكن اعملوا فكلٌ ميسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أما أهلُ الشقاء فيُسَرُّونَ لعملِ أهلِ الشقاء، وأما أهلُ السعادة فيُسَرُّونَ لعملِ أهلِ السعادة»، قال: ثم تلا: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرْهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرْهُ لِلْعُسْرَى» (٣) (الليل —

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود، باب «وكذلك أخذ ربك...» ٣٥٤/٨، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣): ١٩٩٧/٤-١٩٩٨. والمصنف في شرح السنة: ٣٥٨/١٤ .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وعود أصحابه حوله: ٢٢٥/٣، وفي تفسير سورة «والليل إذا يغشى» وفي الأدب وفي القدر، وأخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق آدمي، برقم (٢٦٤٧): ٢٠٣٩/٤-٢٠٤٠، والمصنف في شرح السنة: ١٣٢-١٣١/١ .

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧٨﴾

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما
الزفير: الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول نهيق الحمار،
والشهيق آخره إذا رده في جوفه. وقال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر .
﴿خالدين فيها﴾، لابن مقيم فيها، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال الضحاك: ما دامت
سموات الجنة والنار وأرضهما وكل ما علاك وأظلك فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض .
قال أهل المعاني: هذا عبارة عن التأييد على عادة العرب، يقولون لا آتيك ما دامت السموات
والأرض، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار، يعنون: أبداً .
قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ .

اختلفوا في هذين الاستثناءين، فقال بعضهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين
يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك / استثناء من غير الجنس، لأن الذين
أخرجوا من النار سعداء استثناهم [الله من جملة الأشقياء]^(١)، وهذا كما :
أخبرنا عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل،
حدثنا حفص بن عمر، حدثنا هشام، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ
أَقْوَاماً سَفَعٌ مِنَ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا، عَقُوبَةٌ، ثُمَّ يَدْخُلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ:
الْجَهَنَّمِيُّونَ»^(٢) .

وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن
يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا مسدد، أخبرنا يحيى، عن الحسن بن ذكوان، أنبأنا أبو رجاء،
حدثني عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُخْرَجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ،
فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَيُسَمُّونَ الْجَهَنَّمِيِّينَ»^(٣) .

وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة .

(١) في «ب»: (من الأشقياء) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار: ٤١٦/١١، وفي التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: «إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ»: ٤٣٤/١٣، والمصنف في شرح السنة: ١٨٣/١٥ .

وسفع من النار أي: سواد من لفتح النار، أو علامة منها .

(٣) أخرجه البخاري في الموضع السابق: ٤١٨/١١، والمصنف في شرح السنة: ١٨٣/١٥—١٨٤ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾^{١٠٨}

وقيل: إلا ما شاء ربك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث، قبل مصيرهم إلى الجنة أو النار. يعني: هم خالدون في الجنة أو النار إلا هذا المقدار .
وقيل: إلا ما شاء ربك: سوى ما شاء ربك، [معناه خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك]^(١) من الزيادة على قدر مدة بقاء السموات والأرض، وذلك هو الخلود فيها، كما تقول: لفلان علي ألف إلا الألفين، أي: سوى الألفين اللتين تقدمتا .
وقيل: إلا بمعنى الواو، أي: وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة، كقوله: «لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا» (البقرة — ١٥٠)، أي: ولا الذين ظلموا .
وقيل: معناه لو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لا يشاء أنه حكم لهم بالخلود .
قال الفراء: هذا الاستثناء استثناء الله ولا يفعله، كقولك: والله لا ضربتك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه^(٢) .

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿سَعِدُوا﴾ بضم السين [وكسر العين]^(١)، أي: رزقوا السعادة، وسَعِدَ وأسَعِدَ بمعنى واحد. وقرأ الآخرون بفتح السين قياساً على «شَقُوا». ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، قال الضحاك: إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة. قال قتادة: الله أعلم بشيائه. ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾، أي غير مقطوع. قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) قال الطبري رحمه الله: وأولى الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب، القول الذي ذكرناه عن قتادة والضحاك: من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكيثر، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبداً، إلا ما شاء من تركهم فيها أقل من ذلك، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصحة في ذلك: لأن الله جل ثناؤه أوعد أهل الشرك به الخلود في النار، وتظاهرت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، فغير جائز أن يكون استثناء في أهل الشرك، وأن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ أن الله يدخل قوماً من أهل الإيمان بذنوب أصابوها النار، ثم يخرجهم منها فيدخلهم الجنة. فغير جائز أن يكون ذلك استثناء في أهل التوحيد قبل دخولها، مع صحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا = وإنما إن جعلناه استثناء في ذلك كنا قد دخلنا في قول من يقول: «لا يدخل الجنة فاسق، ولا النار مؤمن» وذلك خلاف مذهب أهل العلم، وما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ فإذا فسد هذان الوجهان، فلا قول قال به القدوة من أهل العلم إلا الثالث — أي هذا الراجح — انظر: الطبري: ٤٨٤/١٥-٤٨٥ .

فَلَا تُكْ فِي مَرِيَّةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢١﴾

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مثله^(٢).

ومعناه عند أهل السنة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان. وأما مواضع الكفار فممتلئة أبداً. ﴿فَلَا تُكْ فِي مَرِيَّةٍ﴾، في شك، ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾، أنهم ضلال، ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ﴾، فيه إضمار، أي: كما كان يعبد، ﴿آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ حظهم من الجزاء. ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، التوراة، ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فمن مصدق به ومكذب، كما فعل قومك بالقرآن، يُعْزِي نَبِيَهُ ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عنهم، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لُعَذِّبُوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾، موقع في الريبة والتهمة. ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: «وإن كلاً» ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة، والباقون بتشديدها، ﴿لَمَّا﴾ شَدَّدها هنا وفي يس والطارق: ابن عامر وعاصم وحزمة، [وافق أبو جعفر هاهنا، وفي الطارق وفي الزخرف، بالتشديد عاصم وحزمة]^(٣) والباقون بالتخفيف، فمن شدد قال الأصل فيه: ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ [لمن ما، فوصلت من الجارة بما، فانقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميقات فحذفت إحداها، فبقيت لما بالتشديد، و«ما» هاهنا بمعنى: مَنْ، هو اسم لجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ (النساء - ٣)، أي: من طاب لكم، والمعنى وإن كلاً لمن جماعة ليوفيتهم]^(٣). ومن قرأ بالتخفيف قال: «ما» صلة [زيدت بين اللامين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما، والمعنى]^(٣): وإن كلاً ليوفيتهم.

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني: ٥٢٧/٢.

(٢) عزاه السيوطي لإسحاق بن راهوية. الدر المنثور: ٤٧٨/٤، وانظر: فتح القدير، الموضع نفسه، وفيه رده على الزمخشري.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾
وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ
ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ ﴿١١٣﴾

وقيل «ما» بمعنى مَنْ، تقدير: لمن ليوفينهم، واللام في «لما» لام التأكيد [التي تدخل على خبر إن] ^(١)، وفي ليوفينهم لام القسم، [والقسم مضمّر] ^(٢) تقديره والله، ﴿ليوفينهم ربك أعمالهم﴾، أي: جزاء أعمالهم، ﴿إنه بما يعملون خير﴾.

قوله عز وجل ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، أي: استقم على دين ربك، والعمل به، والدعاء إليه كما أمرت، ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾، أي: ومن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب ^(٣).

أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا والدي إملاء، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن العلاء بن كريب، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت، يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» ^(٤).

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني، وقيل: معناه ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرت ونهيت. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية، ولذلك قال: «شيتني هود وأخواتها» ^(٥). أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن مطهر ثنا عمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يُسرّ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» ^(٦). قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تميلوا. والركون:

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) عزاه في كنز العمال: ٤٩٥/٢ لسعيد بن منصور وابن المبارك وأحمد في الزهد وعبد بن حميد والحاكم وابن المنذر ورسته في الإيمان والصابوني في المائتين.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، برقم (٣٨): ٦٥/١، والمصنف في شرح السنة: ٣١/١.

(٤) سيأتي تحريجه قريباً في ختام السورة.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر: ٩٣/١، والمصنف في شرح السنة: ٤٩/٤-٥٠.

والدلجة: هي السير آخر الليل، وقيل: الليل كله.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾

هو المحبة والميل بالقلب. وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم. قال السدي: لا تداهنا الظلمة. وعن عكرمة: لا تطيعوهم. وقيل: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾، فتصيبكم، ﴿النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ﴾، أي: أعوان يمنعونكم من عذابه، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾، أي: الغداة والعشي. [يعني: صلاة الصبح والمغرب]^(١)، قال مجاهد: طرفا النهار صلاة [الصبح]^(١) والظهر والعصر. «وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ»، صلاة المغرب والعشاء.

وقال مقاتل: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزُلْفًا من الليل، يعني: صلاة العشاء.

وقال الحسن: طرفا النهار. الصبح والعصر، وزُلْفًا من الليل: المغرب والعشاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طرفا النهار الغداة والعشي، يعني صلاة الصبح والمغرب.

قوله: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: / ساعاتها واحدة زلفة وقرأ أبو جعفر «زُلْفًا» بضم اللام.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ﴾، يعني: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات.

رُوي أنها نزلت في أبي اليسر، قال: أتتني امرأة تبتاع تمرًا فقلت لها إن في البيت تمرًا أطيب منه فدخلت معي البيت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك وتب، فأتيت عمر رضي الله عنه فذكرت ذلك له، فقال: استر على نفسك وتب، فلم أصبر فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «أخلفت غازيًا في سبيل الله في أهله بمثل هذا، حتى ظن أنه من أهل النار؟ فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾، الآية، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: «بل للناس عامة»^(٢).

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود، عن أبي اليسر: ٥٣٨/٨-٥٣٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب... وفي الباب عن

أبي أمامة ووائل الأسقع وأنس بن مالك. وأبو اليسر: اسمه كعب بن عمرو.

وأخرجه أيضاً النسائي والبخاري وابن مردويه والطبراني والطبري.

وانظر: الدر المنثور: ٤٨٢/٤، فتح الباري: ٣٥٦/٨، الكافي الشاف ص (٨٨).

أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٦-٣١٠).

وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ﴾، قال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»^(١).

وأخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني أبو طاهر، وهارون بن سعيد الأيلي، قالوا: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(٢).

وأخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا محمد الحسين بن أحمد المخلدي، أنبأنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أنبأنا قتيبة، أنبأنا الليث وبكر بن مضر، عن ابن الهادي، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا. قال: فكذلك مكل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾، أي: ذلك الذي ذكرنا. وقيل: هو إشارة إلى القرآن، ﴿ذَكَرَى﴾ عِظَةٌ ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي لمن ذكره.

﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى. وقيل: على الصلاة، ونظيره «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها» (طه - ١٣٢) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، في أعمالهم.. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المصلين.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة هود، باب «وأقم الصلاة طرفي النهار...» ٣٥٥/٨.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة... برقم (٢٣٣): ٢٠٩/١، والمصنف في شرح السنة: ١٧٧/٢.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة: ١١/٢، ومسلم في المساجد، باب المشي إلى الصلاة تحمى به الخطايا، برقم (٦٦٧): ٤٦٢/١-٤٦٣. والمصنف في شرح السنة: ١٧٥/٢.

فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي
 الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۖ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا
 مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾
 وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ
 رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا، ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾، التي أهلكتناهم، ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، والآية
 للتوبيخ ﴿أُولُوا بَقِيَّةً﴾، أي: أولو تمييز. وقيل: أولو طاعة. وقيل: أولو خير. يقال: فلان ذو بقية إذا كان
 فيه خير. معناه: فهلا كان من القرون من قبلكم من فيه خير ينهى عن الفساد في الأرض؟ [وقيل: معناه
 أولو بقية من خير. يقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة] ^(١).
 ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾، أي يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه جحد، أي: لم يكن فيهم
 أولو بقية. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلاً، ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾، وهم أتباع الأنبياء
 كانوا ينهون عن الفساد في الأرض. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا﴾، نعيموا، ﴿فِيهِ﴾، والمترف: المنعم.
 وقال مقاتل بن حيان: حوّلوا. وقال الفراء: [عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا] ^(١) أي: واتبع الذين
 ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، كافرين.
 ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، أي: لا يهلكهم بشركهم، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، فيما
 بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، وإنما يهلكهم إذا تظالموا. وقيل: لا يهلكهم بظلم منه
 وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات.
 قوله عز وجل: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾، كلهم. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، على دين واحد. ﴿وَلَا
 يَزَالُُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ على أديان شتى من بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، ومشرقي.
 ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، معناه: لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق، فهم لا يختلفون، ﴿وَلِذَلِكَ
 خَلَقَهُمْ﴾، قال الحسن وعطاء: وللإختلاف خلقهم. وقال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية، فقال:
 خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

(١) ساقط من «ب».

وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
 وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا
 عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
 الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وقال أبو عبيدة: الذي اختاره قول من قال: خلق فريقاً لرحمته وفريقاً لعذابه .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: وللرحمة خلقهم، يعني الذين رحمهم .

وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف .

وحاصل (١) الآية: أن أهل الباطل مختلفون، وأهل الحق متفقون، فخلق الله أهل الحق للاتفاق، وأهل

الباطل للاختلاف .

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ رَبِّكَ﴾، وتم حكم ربك، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء

الرسول، أي: من أخبارهم وأخبار أممهم نقصها عليك لنشئت به فؤادك، لنزيدك يقيناً ونقوي قلبك، وذلك
 أن النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه .

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾، قال الحسن وقتادة: في هذه الدنيا .

وقال غيرهما: في هذه السورة. وهذا قول الأكثرين .

خص هذه السورة تشريفاً، وإن كان قد جاء الحق في جميع السور .

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾، أي: وجاءتك موعظة، ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾، أمر تهديد ووعيد، ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ .

﴿وَانظُرُوا﴾، ما يحل بنا من رحمة الله، ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾، ما يحل بكم من نقمة الله.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ

كُلُّهُ﴾، في المعاد .

قرأ نافع وحفص: «يُرْجَعُ» بضم الياء وفتح الجيم: أي: يرد. وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم،

أي: يعود الأمر كله إليه حتى لا يكون للخلق أمر .

(١) في «ب» (ومحصول...) .

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وثق به، ﴿وَمَا رُبُّكَ بغافل عما تعملون﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص ويعقوب: «تعملون» بالتاء هاهنا وفي آخر سورة النمل. وقرأ الآخرون بالياء فيهما . قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود^(١) .

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبد الصمد الجوزجاني، أنبأنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنبأنا أبو سعيد / الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يارسول الله قد ثبت، فقال ﷺ: «شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»^(٢) .
ويروى: «شيتني هود وأخواتها»^(٣) .

(١) أخرجه الطبري عن كعب: ٢٥٢/١١، ٥٤٥/١٥، ورجال إسناده ثقات. وقال السيوطي في الدر المنثور: ٤٩٣/٤ «أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الضريس في فضائل القرآن، وابن جرير، وأبو الشيخ» .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة: ١٨٤/٩، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه»، وأخرجه في كتابه المفرد «الشمائل» ص (٤٦)، وصححه الحاكم في المستدرک: ٣٤٣/٢، والمصنف في شرح السنة: ٣٧٢/١٤. وأخرجه ابن أبي شيبه، والبخاري، وذكره الدارقطني في العلل، وأخرجه البيهقي عن عمر بن الخطاب. وابن سعد وابن عدي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس .

انظر: المطالب العالية: ٣٤٢/٣، الكافي الشاف ص (٨٧)، فيض القدير للمناوي: ١٦٨/٤، مجمع الزوائد: ٣٧/٧ .
(٣) أخرجه الترمذي في «الشمائل المحمدية» ص (٤٧) عن أبي جحيفة السؤالي، والمصنف في شرح السنة: ٣٧٤/١٤، والطبراني عن عتبة بن عامر .

وقال البوصيري: «رواه أبو يعلى، والترمذي في الشمائل، ورواه ثقات». انظر: فيض القدير: ١٦٨-١٦٩، المطالب العالية: ٣٤٢/٣ .

سُورَةُ يُوسُفَ

سُورَةُ يُوسُفَ

(سورة يوسف عليه السلام مكية^(١))

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّلَاكْ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانُ وَإِنْ كُنْتَ
مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

﴿الرَّتِّلَاكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، أي: البَيِّن حلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه .
قال قتادة: مبين - والله - بركته وهداه ورشده، فهذا مِنْ بَانَ أَي: ظهر .
وقال الزجاج: مَبِينٌ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، فهذا مِنْ أَبَانَ بِمَعْنَى أَظْهَرَ .
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: الكتاب، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: أنزلناه بلغتكم، لكي تعلموا
معانيه، وتفهموا ما فيه .
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، أي: نقرأ عليك ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، والقاصُّ هو الذي يتبع^(٢) الآثار
ويأتي بالخبر على وجهه .
معناه: نبين لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان .

(١) قال ابن عباس وقتادة: مكية، إلا ثلاث آيات من أولها، ونقل القرطبي عنهما: إلا أربع آيات .

انظر: البحر المحيط: ٢٧٧/٥، القرطبي: ١١٨/٩ .

(٢) في «ب»: يتبع .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

وقيل: المراد منه: قصة يوسف عليه السلام خاصة، سمّاها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والثبوت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، من سير الملوك والممالك، والعلماء، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد .
قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة .
وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها^(١) .

قوله عز وجل: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ «ما» المصدر، أي: بإيحائنا إليك، ﴿هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، وقد كنت، ﴿مِن قَبْلِهِ﴾، أي: [قبل وحيناً]^(٢) ﴿لِمَنِ الْغَافِلِينَ﴾، لمن الساهين عن هذه القصة لاتعلمها .

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: يارسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» (الزمر - ٢٣) فقالوا: يارسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فقالوا: يارسول الله لو ذكرتنا، فأنزل الله عز وجل^(٣): «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» (الحديد - ١٦) .
قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾، أي: واذكر إذ قال يوسف لأبيه، ويوسف اسم عبري [عرب]^(٤)، ولذلك لا يجري [عليه الإعراب]^(٥) وقيل هو عربي .

سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف؟ فقال: الأسف في اللغة: الحزن، والأسيف: العبد، واجتمعاً في يوسف عليه السلام فسُمّي به .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل قال: قال عبدالله بن محمد، حدثنا عبدالصمد، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن دينار،

(١) في «ب»: يتبع .

(٢) ساقط من «أ» .

(٣) أخرجه الطبري: ٥٥/١٥، وصححه ابن حبان ص (٤٣٢) من موارد الظمان، والحاكم: ٣٤٥/٢ ووافقه الذهبي، ومن طريقه أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص (٣١١) .

وأخرجه أيضاً: إسحاق بن راهوية، والبخاري، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه .

انظر: الدر المنثور: ٤٩٦/٤، المطالب العالية: ٣٤٣/٣ .

(٤) ساقط من «ب» .

قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ
يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»^(١).

﴿يَا أَبَتِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ﴿يَا أَبَتِ﴾ بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه .
وقرأ الآخرون: ﴿يَا أَبَتِ﴾ بكسر التاء لأن أصله: يا أَبَت، والجزم يحرك إلى الكسر .
﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، أي نجماً من نجوم السماء، ونصب الكواكب على التفسير .
﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ولم يقل رأيتها إليَّ ساجدة، والهاء والميم والياء والنون من
كنايات من يعقل، لأنه لما أخبر عنها بفعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل كقوله تعالى: «يا أيها النمل
ادخلوا مساكنكم» (النمل - ١٨) .

وكان النجوم في التأويل أخواته^(٢)، وكانوا أحد عشر رجلاً، يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه، والقمر أمه. قاله قتادة .

وقال السدي: القمر خالته، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت .

وقال ابن جرير: القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر .

وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا .

وقيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر فلما قصها على أبيه ،

﴿قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾، وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن الأخوة إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتان، ﴿فِيكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، فيحتالوا في إهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك. واللام في قوله «لك» صلة، كقوله تعالى: ﴿لرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف - ١٥٤). وقيل: هو مثل قولهم نصحتك ونصحت لك، وشكرتك وشكرت لك. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، أي: يزين لهم الشيطان، ويحملهم على الكيد، لعداوته القديمة .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين»: ٤١٩/٦، وفي تفسير سورة يوسف، باب «وهم نعمته عليك»: ٣٦١/٨، وفي المناقب أيضاً: ورواه مسلم مختصراً، وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١٢٦/١٣.

انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: ١٥٢/٤ .

(٢) في (ب): إخوته .

وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦﴾

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا شعبة عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة قال: كنت أرى الرؤيا تهمني حتى سمعت أبا قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الصالحة من الله تعالى، [والحلم من الشيطان]»^(١)، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان وليتفلس ثلاثاً، ولا يحدث به أحداً فإنها لن تضر»^(٢).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا شعبة عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة وهو على رجل طائر فإذا حدث بها وقعت»، وأحسبه قال: «لا تحدث بها إلا حبيباً أو لبيباً»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾، يصطفيك ربك يقوله يعقوب ليوسف، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصطفيك ربك، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، يريد تعبير الرؤيا، سمي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، والتأويل ما يؤول إلى عاقبة الأمر، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، يعني: بالنبوة، ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾، أي: على أولاده فإن أولاده كلهم كانوا أنبياء، ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾، فجعلهما نبيين، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلة.

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري في التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة: ٣٧٣/١٢، ومسلم في أول كتاب الرؤيا، برقم (٢٢٦١): ١٧٧٢/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٠٦/١٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب الرؤيا: ٢٩٨٨/٧، والترمذي في الرؤيا، باب ما جاء في تعبير الرؤيا: ٥٥٨/٦، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه في تعبير الرؤيا، باب «الرؤيا إذا عبرت وقعت...» برقم (٣٩١٤): ١٢٨٨/٢، وصححه الحاكم: ٣٩٠/٤، ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ١٠/٤، والمصنف في شرح السنة وقال: هذا حديث حسن: ٢١٣/١٢. وقوله «على رجل طائر» مقل، ومعناه: أنها لا تستقر قرارها مالم تعبر. وأما تحديده بها الحبيب فلا أنه لا يستقبلك في تفسيرها إلا بما تحب، واللييب يخبرك بحقيقتها أو بأقرب ما يعلم منها.

وقيل: إنجائوه من النار، وعلى إسحاق إنجائوه من الذبح^(١).

(١) هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والصحيح الثابت خلافه، ولذلك نضع هنا كلمة ضافية لابن القيم وشيخه ابن تيمية رحمهما الله، فيها إبطال القول بأن الذبيح هو إسحاق .

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: (٧١/١-٧٥): «وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكراً، وفي لفظ: وحيد، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي عرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، وبأنى الله إلا أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: (لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وأمراً قائماً فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) (هود - ٧٠، ٧١) فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتتأول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسيأخذه .

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة «ومن وراء إسحاق يعقوب» أي: ويعقوب من وراء إسحاق. قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به، لأن البشارة قول مخصوص، وهي أول خبر سار صادق. وقوله تعالى: «ومن وراء إسحاق يعقوب» جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخيرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقدم أخيه وتقلبه في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة، ثم يضعف الجبر أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور. ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال: «فلما أسلما وتله للجبين، ونادينا أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا هو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين» (الصافات: ١٠٣-١١١) ثم قال تعالى: «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» (الصافات: ١١٢). فهذه بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أمر به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول، بل هو كالتصفيه فيه .

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه الثبوة. قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدّر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضيلة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى .

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام، لا بمكة .

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلام قوم منكرون» (الذاريات - ٢٤، ٢٥) إلى أن قال: «قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم» (الذاريات - ٢٨) وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته، وهي المبشرة به، وأما إسماعيل، فمن السرية. وأيضاً فإنهما بُشرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك . =

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾

١٧٩/ب

وقيل: بإخراج يعقوب / والأسباط من صلبه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير .

وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة. فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فَبَعَوْهُ .

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي: في خبره وخبر إخوته. وأسمائهم: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، وقيل: زبلون، وأشر، وأهمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام، ووُلِدَ له من سريتين له، اسم إحداهما زلفة والأخرى يلهمة^(١) أربعة أولاد: دان، ونفتالي، وقيل: نفتولي، وجاد، وأشير. ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين. [وقيل: وابن يامين]^(٢)، فكان بنو يعقوب عليه السلام اثني عشر رجلاً .

= وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلق شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذ خليلاً، والخلة منصبة يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، تخلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، فَنَسِيَ الأمر، وفُدي الذبيح، وَصَدَّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور .

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبَّه أبوه، اشتدت غيرة «سارة»، فأمر الله سبحانه أن يُعَد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن «سارة» حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويذبح ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بعد هذا بذبح ولد السرية، فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جَلِّ آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يُريد رفعه من خلقه أن يئن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره. قال تعالى: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين» (القصص - ٥) وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

وانظر: «الاسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبو شهبه ص (٣٥٣-٣٦٣) .

(٢) في «ب» لمهمة .

(٣) ساقط من «ب». وقال ابن الجوزي في زاد المسير: ١٨٣/٤: وإنما قيل له: ابن يامين، لأن أمه ماتت نفساء، ويامين بمعنى الوجع .

إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٨﴾

﴿آيات﴾، قرأ ابن كثير ﴿آية﴾ على التوحيد، أي: عظة وعبرة، وقيل: عجب .
وقرأ الآخرون: ﴿آيات﴾ على الجمع .

﴿للسائلين﴾، وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام .
وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر. فذكر لهم قصة يوسف، فوجدوها موافقة لما في التوراة [فتعجبوا منها] ^(١). فهذا معنى قوله: ﴿آيات للسائلين﴾. [أي: دلالة على نبوة رسول الله ﷺ]. وقيل: آيات للسائلين ولمن لم يسأل، كقوله: «سواء للسائلين» (فصلت - ١٠) ^(٢).
وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف، وما آل إليه أمرهم في الحسد، وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق وفي السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات .

﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ﴾، اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف، ﴿وَأَخُوهُ﴾، بنيامين، ﴿أَحَبُّ إِلَى آبِنَا مِمَّا﴾، كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه مالا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة ^(٣)، ﴿وَنَحْنُ غَضَبَةٌ﴾، جماعة وكانوا عشرة .

قال الفراء: العصبه هي العشرة فما زاد .

وقيل: العصبه ما بين الواحد إلى العشرة .

وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وقال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر .

وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين .

وقيل: جماعة يتعصب بعضها لبعض لا واحد لها من لفظها كالتنفر والرّهط .

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، أي خطأ بين في إثارة يوسف وأخاه علينا، وليس المراد منه الضلال

(١) في «ب»: فعجبوا منه .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) قال ابن عطية: ٤٤٠/٧: «وكان حب يعقوب ليوسف عليه السلام وبنيامين لصغيرهما وموت أمهما، وهذا من «حب الصغير فطرة البشر». وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمرضى حتى يفيق» .

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢﴾

عن الدين، ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه: الخطأ في تدبير أمر الدنيا، يقولون: نحن أنفع له في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه، فنحن أولى بالحببة منه، فهو مخطيء في صرف محبته إليه. ﴿أقتلوا يوسف﴾، اختلفوا في قائل هذا القول؛ فقال وهب: قاله شمعون. وقال كعب: قاله دان. ﴿أو اطرحوه أرضاً﴾، أي: إلى أرض يبعد^(١) عن أبيه. وقيل: في أرض تأكله السباع.

﴿يخل لكم﴾، يخلص لكم ويصنف لكم. ﴿وجه أبيكم﴾، عن^(٢) شغله بيوسف، ﴿وتكونوا من بعده﴾، من بعد قتل يوسف، ﴿قوماً صالحين﴾، تائبين، أي: توبوا بعدما فعلتم هذا يعف الله عنكم. وقال مقاتل: يخلص أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ وهو يهوذا، وقال [قتادة]^(٣): روبيل، وكان ابن خالة يوسف، وكان أكبرهم سنًا وأحسنهم رأياً فيه. والأول أصح أنه يهوذا، نهاهم عن قتله، وقال: القتل كبيرة عظيمة. ﴿والقوه في غيابة الجب﴾، قرأ أبو جعفر، ونافع: «غيايات الجب» على الجمع في الحرفين، وقرأ الباقر «غياية الجب» على الواحد، أي: في أسفل الجب وظلمته. والغياية: كل موضع ستر عنك الشيء وغيبه. والجب: البئر غير المطوية لأنه جب، أي: قطع ولم يطر. ﴿يلتقطه﴾: يأخذه، والالتقاط: أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه^(٤)، ﴿بعض السَّيَّارَةِ﴾، أي بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، فتستريحوا منه، ﴿إن كنتم فاعلين﴾، أي: إن عزمتم على فعلكم، وهم كانوا يومئذ بالغين، ولم يكونوا أنبياء بعد.

وقيل: لم يكونوا بالغين، وليس بصحيح؛ بدليل أنهم قالوا: «وتكونوا من بعده قوماً صالحين»^(٥).

(١) في «أ»: بعيد.

(٢) في «ب»: من.

(٣) في «ب»: مقاتل قاله.

(٤) في «ب»: يحس به.

(٥) قال السدي ومقاتل بن سليمان: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال، ولم يكونوا حينئذ أنبياء.

وقال الجمهور: «صالحين» معناه بالتوبة، وهو الأظهر من اللفظ، وحالهم أيضاً تعطيه، لأنهم مؤمنون بنوا على عظمة وعللوا أنفسهم بالتوبة.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِیحُونَ ﴿١١﴾

«وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا» والصغير لا ذنب له .

وقال محمد بن إسحاق: اشتمل فعلهم على جرائم من: قطع الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير، الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد، والكذب مع أبيهم. وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله .

وقال بعض [أهل العلم]^(١): إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعين، وكل ذلك كان قبل أن أنبأهم الله تعالى^(٢) .

وسئل أبو عمرو بن العلاء: كيف قالوا «نرتع ونلعب» وهم أنبياء؟ قال: كان ذلك قبل أن نبأهم الله تعالى، فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضرب من الحيل .

﴿قالوا﴾، يعقوب، ﴿يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿تأمنّا﴾ بلا إشمام^(٣)، وهو رواية عن نافع، [وقرأ الباقون: ﴿تأمنّا﴾ بإشمام الضمة في النون الأولى المدغمة، وهو إشارة إلى الضمة، من غير إمحاض، ليعلم أن أصله: لا تأمنّا بنونين على تفعلنا، فأدغمت النون الأولى في الثانية]^(٤)، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا عليه؟ .

﴿وإنّا له لناصِحُونَ﴾، قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أنهم قالوا لأبيهم: «أرسله معنا» فقال أبوهم: «إني ليحزنني أن تذهبوا به» فحيثئذ قالوا: ﴿مالك لا تأمنا على يوسف وإنّا له لناصِحُونَ﴾، النصح هاهنا هو: القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، معناه: إنّا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، نحفظه حتى نردّه إليك .

= انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٤٤٣/٤ .

ومال الحافظ ابن كثير إلى الرأي الأول، فقال في التفسير: (٢٠٧٠-٤٧٠/٢): «اعلم أنه لم يقدّم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك. ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل. ولم يذكر سوى قوله تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط)، وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقدّم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم. والله أعلم» .

(١) في «ب»: بعضهم .

(٢) هذا على القول بأن الله نبأهم فيما بعد، وهو ما قال عنه ابن كثير: فيه نظر .

(٣) في «ب»: شمة .

(٤) ساقط من «ب» .

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ
تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ
الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ
فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾، إلى الصحراء، ﴿يَرْتَع وَيَلْعَب﴾، قرأ أبو عمرو، وابن عامر، بالنون فيهما
وجزم العين من «نرتع»، وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين من «يرتع» يعني يوسف، وقرأ يعقوب:
«نرتع» بالنون «ويلعب» بالياء .

والرتع هو الاتساع في الملاذ. يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته، يريد وتنتعم ونأكل
ونشرب ونلهو ونشط .

وقرأ أهل الحجاز: ﴿يَرْتَع﴾ بكسر العين، وهو [يفتعل] ^(١) من الرعي .

ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما أي: نتحارس ويحفظ بعضنا بعضاً .

وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخباراً عن يوسف، أي: يرعى الماشية كما نرعى نحن .

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ / .

١٨٠ / أ

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب، ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ﴾، أي: يحزني ذهابكم به، والحزن هاهنا: ألم
القلب بفراق المحبوب، ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، وذلك أن يعقوب كان رأى في
المنام أن ذئباً شَدَّ على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثم قال: هذه المقالة ^(٢) .

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، عشرة، ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾، عجرة ضعفاء .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا﴾، أي: عزموا، ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾، يلقوه، ﴿فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾،

(١) في «أ»: تفعيل .

(٢) ضَعَفَ ابن عطية هذا القول، لأن يعقوب لو رأى ذلك لكان وحياً، فإما أن يخرج على وجهه وذلك لم يكن، وإما أن يعرف يعقوب
لمعرفته بالعبرة مثل هذا المرئي، فكان يتشكاه بعينه، اللهم إلا أن يكون قوله «أخاف أن يأكله الذئب» بمعنى أخاف أن يصيبه مثل
ما رأيت من أمر الذئب، وهذا بعيد. وكذلك يقول الربيع بن ضبع الفزاري :

وَالذِّئْبُ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَزْتُ بِهِ وَخَشِيْتُ الرَّيْبَ وَالْمَطْرَ

إنما خصَّصه لأنه كان حيوان قطره العادي. ويحتمل أن يخصَّصه يعقوب عليه السلام لصغر سن يوسف، أي: أخاف عليه هذا
الحقير فما فوقه. وكذلك خصَّصه الربيع في البيت السابق لحقارته وضعفه في الحيوان .

انظر: المحرر الوجيز: ٤٠٠/٤-٤٠١، البحر المحيط: ٢٨٦/٥ .

هذه الواو زائدة^(١)، تقديره: أوحينا إليه، كقوله تعالى: «فلما أسلما وتلّ للجبين وناديناه» (الصفات - ١٠٣) أي: ناديناه، «لَتَبْتَتهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»، يعني: أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقن رؤياك ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا وهم لا يشعرون بوحى الله وإعلامه إياه ذلك، قاله مجاهد .

وقيل: معناه: وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف، وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون .

وذكر وهبٌ وغيره: أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه، فلما برزوا إلى البرية ألقوه وجعلوا يضربونه فإذا ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيمًا فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة - وقيل: ثمانية عشرة سنة - فجأؤا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيقة الرأس. قال مقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام. وقال كعب: بين مدين ومصر. وقال وهب بأرض الأردن. وقال قتادة: هي بئر بيت المقدس فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخواناه رُدُّوا عليّ القميص أتواري به في الجب، فقالوا: ادعُ الشمس والقمر والكواكب تواريك^(٢)، قال: إني لم أر شيئًا، فألقوه فيها .

وقيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها القوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها .

إنهم لما ألقوه فيها جعل يبكي فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه، فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام، وبقي فيها ثلاث ليالٍ^(٣) .

(١) هذا على رأي الكوفيين من النجاة، يزداد عندهم بعد «لما» و«حتى» - «إذا» وعلى ذلك خرجوا قوله تعالى: (فلما أسلما وتلّ للجبين، وناديناه) أي: ناديناه. قال أبو حيان: وهو قول مردود لأنه ليس في القرآن شيء زائد لغير معنى . وقال البصريون: ليس في الآية زيادة، لأن جواب «لما» محذوف تقديره: «فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب عظمت فتنتهم» وقدره بعضهم: «جعلوه فيها» قال أبو حيان: وهذا أولى، إذ يدل عليه قوله: «وأجمعوا أن يجعلوه» . انظر: المحرر الوجيز: ٤/٤٥٢، البحر المحيط: ٥/٢٨٧ .

(٢) في «ب»: تؤنسك .

(٣) قال أبو حيان في أمثال هذه الروايات عن وهب وكعب وغيرهما: «وذكر المفسرون أشياء كثيرة تتضمن كيفية القائه في غيابة الجب، ومحاورته لهم بما يلين الصخر، وهم لا يزدادون إلا قسوة. ولم يتعرض القرآن الكريم ولا الحديث الصحيح لشيء منها فيوقف عليها في كتب التفسير» .

انظر: البحر المحيط: ٥/٢٨٧ .

وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ
عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلْهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾
وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿وأوحينا إليه لتبنيهم بأمرهم هذا﴾. الأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويشره بالخروج، ويخبره أنه ينبتهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون^(١). قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام. ﴿وجاؤا آباهم عشاءً يبكون﴾، قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجراً على الاعتذار بالكذب. ورؤي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: مالكم يائي هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟؟.

﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾، أي: نترامى ونتفضل، وقال السدي: نشدد على أقدامنا. ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾، أي: عند ثيابنا وأقمشتنا. ﴿فاكله الذبُّ وما أنت بمؤمن لنا﴾، بمصدق لنا، ﴿ولو كنا﴾، وإن كنا، ﴿صادقين﴾.

فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادق؟. قيل: معناه إنك تتهمنا في هذا الأمر لأنك خفتنا في الابتداء واتهمتنا في حقه. وقيل: معناه لا تصدقنا لأنه لا دليل لنا على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله. ﴿وجاؤا على قميصه بدم كذب﴾، أي: بدم هو كذب، لأنه لم يكن دم يوسف. وقيل: بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم.

وفي القصة: أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذبُّ ولم يشق قميصه؟ فاتهمهم.

﴿قال بل سولت زينت﴾، ﴿لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾، معناه: فأمرني صبر جميل أو فعلي صبر جميل.

(١) قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام أو نوم، وكل ذلك قد قيل. وقال الحسن: أعطاه الله النبوة في الحب. وهذا بعيد. انظر: المحرر الوجيز: ٤٥٣/٤.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

وقيل: فصر جميل أختاره .

والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع .

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: أستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون .

وفي القصة: أنهم جاؤا بذئب وقالوا هذا الذي أكله فقال له يعقوب يا ذئب أنت أكلت ولدي وثمرة
فؤادي؟ فأنطقه الله عز وجل، فقال: تالله ما رأيت وجه ابنك قط .

قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟ .

قال: جئت لصلة قرابة [فصادني هؤلاء] ^(١) فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام ^(٢) .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾، وهم القوم المسافرون، سُموا سياراً لأنهم يسيرون في الأرض، كانت رفقة من
مدین تريد مصر، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب، وكان الجب في [قفر بعيد] ^(٣) من العمران للرعاة
والمارة، وكان ماؤه مالحاً ^(٤)، فعذب حين ألقى يوسف عليه السلام فيه، فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل
مدین يقال له مالك بن ذعر ^(٥)، [لطلب الماء] ^(٦) فذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ والوارد
الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فبهىء الأرشية والدلاء .

﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾، أي: أرسلها في البئر، يقال: أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا

أخرجتها، فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون .

قال النبي ﷺ: «أُعْطِيَ يَوْسُفُ شَطْرَ الْحُسْنِ» ^(٧) .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) هذا كله مما لم يرد فيه نص في كتاب الله ولا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، وهو من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من هذه الروايات المأخوذة بمجملتها من الاسرائيليات حتى ولو كان لبعضها إسناد إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله .

(٣) في «أ»: في قفرة بعيداً .

(٤) في «ب»: ملحاً .

(٥) في «ب»: دُعر. بالبدال المهملة .

(٦) زيادة من «ب» .

(٧) قطعة من حديث الاسراء، أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسرائء برسول الله ﷺ برقم (١٦٢): ١/١٤٥-١٤٧ وفيه: ... فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطي شطر الحسن .

والحديث أخرجه بلفظ المصنف: ابن أبي شيبة، وأحمد، والحاكم، والواحدي في التفسير، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٣/٤٧٠، كشف الخفاء ومزيل الإلباس: ١٠/١٦٠-١٦١، مجمع الزوائد: ٨/٢٠٣، المطالب العالية: ٣/٢٧٣، الدر المنثور: ٤/٥٣١ .

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة، وكانت قد أُعطيت سُدَسَ الحُسنِ .
قال ابن إسحاق ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن^(١) .

فلما رآه مالك بن ذعر، ﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾، قرأ الآكثرون هكذا بالالف وفتح الياء، بشر المستقي أصحابه يقول^(٢): أبشروا. وقرأ أهل الكوفة: يا بشري، بغير إضافة، يريد نادى المستقي رجلاً من أصحابه اسمه بشري. ﴿هَذَا غُلَامٌ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبيه: أن جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين أخرج منها. ﴿وَأَسْرُوهُ﴾، أَخْفَوْهُ، ﴿بِضَاعَةٍ﴾، قال مجاهد: أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معهم وقالوا هو بضاعة استبضعها بعض أهل الماء إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة .
وقيل: أراد أن إخوة يوسف أسروا / شأن يوسف وقالوا هذا عبد لنا [أَبَقَ]^(٣) .

١٨٠/ب

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، فأتى يهوذا يوسف بالطعام فلم يجده في البئر، فأخبر بذلك إخوته، فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزولاً، فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا هذا عبد آبق منا. ويقال: إنهم هددوا يوسف حتى لم يعرف حاله. وقال مثل قولهم، ثم باعوه، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَشَرَوْهُ﴾، أي: باعوه، ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، قال الضحاك، ومقاتل، والسدي: حرام لأن ثمن الحر حرام، وسُمي الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة .

وعن ابن عباس وابن مسعود: بخس أي زيوف .
وقال عكرمة والشعبي: بثمان قليل .

﴿دَرَاهِمَ﴾، بدل من الثمن، ﴿مَعْدُودَةٍ﴾، ذكر العدد عبارة عن قلتها .

وقيل: إنما قال معدودة لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يَزِنُونَ ما كان أقل من أربعين درهماً، إنما كانوا يعدونها عدداً، فإذا بلغت أوقية وزنها .

واختلفوا في عدد تلك الدراهم: قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة: عشرون درهماً، فاقتسموها درهمين درهين .

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً .

وقال عكرمة: أربعون درهماً^(٤) .

(١) قال الألباني: منكر باطل بهذا اللفظ، لمخالفته للحديث الصحيح، ولأن في إسناده وإياه جداً. وانظر: المراجع السابقة .

(٢) في «ب»: فقال .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) قال الإمام أبو جعفر الطبري في التفسير: (١٦/١٥٠-١٦): «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدرهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول صلى الله =

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانَ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿وكانوا﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿فيه﴾، أي: في يوسف ﴿من الزاهدين﴾ لأنهم لم يغلّموا منزلته عند الله .

وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين، لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن، إنما كان قصدهم تباعد يوسف عن أبيه .

ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف، فتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه لا يأتق، قال: فذهبوا به حتى قدموا مصر، وعرضه مالك على البيع فاشتراه قبطير قاله ابن عباس .

وقيل: إظفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن شروان من العمالقة .

وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه، ثم مات ويوسف حي . قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما دخلوا مصر تلقى قبطير مالك بن ذعر فابتاع منه يوسف بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين .

وقال وهب بن منبه: قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ووزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً، وكان وزنه أربعمائة رطل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة فابتاعه قبطير من مالك بن ذعر بهذا الثمن، فذلك قوله تعالى :

﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته﴾، واسمها: راعيل، وقيل: زليخا، ﴿أكرمي مثواه﴾، أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة .

وقيل: أكرمي في المطعم والملبس والمقام .

وقال قتادة وابن جريج: منزلته .

﴿عسى أن ينفعنا﴾، أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع، أو يكفيننا إذا بلغ بعض أمورنا .

﴿أو نتخذہ ولدًا﴾، أي: نتبناه .

= عليه وسلم. وقد يحتمل أن يكون كان عشرين، ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقل من ذلك وأكثر. وأي ذلك كان، فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضرر فيه. والإيمان بظاهر التنزيل فرض. وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا، وابنة شعيب عليه السلام حيث قالت لأبيها في موسى عليه السلام: يا أبتِ استأجره، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه^(١).

﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض﴾، [أي: في أرض مصر]^(٢) أي: كما أنقذنا يوسف من القتل وأخرجناه من الجب، كذلك [مكّنا له]^(٣) في الأرض فجعلناه على خزائنها.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، أي: [مكّنا له]^(٣) في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا.

﴿والله غالب على أمره﴾، قيل الهاء في أمره كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يردُّ حكمه رادّ.

وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام معناه: إن الله مستول على أمر يوسف بالتدبير [والحيطة]^(٤) لا يَكِلُهُ إلى أحد حتى يبلغ منتهى علمه فيه.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ما الله به صانع.

﴿ولمّا بلغ أشده﴾، منتهى شبابه وشدته وقوته. قال مجاهد: ثلاثاً وثلاثين سنة.

وقال السدي: ثلاثين سنة.

وقال الضحاك: عشرين سنة.

وقال الكلبي: الأشدُّ ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة.

وسئل مالك رحمه الله عن الأشد قال: هو الحلم^(٥).

﴿وآتيناہ حکماً وعلماً﴾، فالحكم: النبوة، والعلم: الفقه في الدين.

(١) صححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي، المستدرک: ٣٤٦/٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٦٨/١٠): «رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح إن كان محمد بن كثير هو العبدی، وإن كان الثقفی فقد وثق على ضعف كثير فيه».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: مكّناه.

(٤) في «ب»: والإحاطة.

(٥) قال الإمام الطبري: (٢٣/١٦) «وأول الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى يوسف لما بلغ أشده حكماً وعلماً

= والأشد: هو انتهاء قوته وشبابه = وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة — ولا دلالة له في كتاب الله، ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ولا في إجماع الأمة، على أي ذلك كان. وإذا لم يكن ذلك موجوداً من الوجه الذي ذكرت، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله عز وجل، حتى تثبت حجة بصفة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حيث يشاء.

وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

وقيل: حكماً يعني: إصابة في القول: وعلماً: بتأويل الرؤيا .
وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم، أن العالم: هو الذي يعلم الأشياء، والحكيم: الذي يعمل بما يوجه العلم .

﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المؤمنين. وعنه أيضاً المهتدين .
وقال الضحاك: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام .
﴿ورَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾، يعني: امرأة العزيز. والمراودة: طلب الفعل، والمراد هاهنا أنها دعتة إلى نفسها ليوافقها، ﴿وَوَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾، أي: أطبقتها، وكانت سبعة، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، أي: هلم وأقبل .

قرأه أهل الكوفة والبصرة: (هَيْتَ لَكَ) بفتح الهاء والتاء .
وقرأ أهل المدينة والشام: (هَيْتَ) بكسر الهاء وفتح التاء .
وقرأ ابن كثير: (هَيْتُ) بفتح الهاء وضم التاء .
وقرأ السلمي وقتادة: (هَيْتُ لَكَ) بكسر الهاء وضم التاء مهموزاً، يعني: تهيأتُ لك، وأنكره أبو عمرو والكسائي، وقالوا لم يُحْك هذا عن العرب .
والأول هو المعروف عند العرب .

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني النبي ﷺ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾^(١) .
قال أبو عبيدة^(٢) كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز معناها [إلي]^(٣) .
تعال .

وقال عكرمة: هي أيضاً بالخورانية هلم .
وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حث وإقبال على الشيء .
قال أبو عبيدة: إن العرب لا تشي ﴿هَيْتَ﴾ ولا تجمع ولا تؤنث، وإنها بصورة^(٤) واحدة في كل حال .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک: ٣٤٦/٢ وصححه على شرط الشيخين .

وانظر: تفسير الطبري: ٣٠/١٦-٣١ مع تعليق الشيخ محمود شاكر .

(٢) في «ب» أبو عبيد. وانظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٠٥/١ .

(٣) زيادة من «ب» .

(٤) في «أ»: بصوت .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

﴿قال﴾ يوسف لها عند ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه، ﴿إنه ربي﴾ يريد أن زوجك قطفير^(١) سيدي ﴿أحسن مثواي﴾، أي: أكرم منزلي. هذا قول أكثر المفسرين .
وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى، يريد: أن الله تعالى ربي أحسن مثواي، أي: آواني، ومن بلاء الجب عافائي .

﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾، يعني: إن فعلت هذا فختته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمون .

وقيل: لا يفلح الظالمون: أي لا يسعد الزناة .
﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾، والهَمُّ هو: المقاربة من الفعل من غير دخول فيه. فهمُّها: عزمُها على المعصية والزنا .

وأما همُّه: فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حلَّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن^(٢) .

وعن مجاهد قال: حلَّ سراويله وجعل يعالج ثيابه. وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن^(٣) .

وقال الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليَد / الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقد أنكر قوم هذا القول، والقول ما قال متقدمو هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء عليهم السلام من غير علم .

وقال السدي وابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوِّقه إلى نفسها، فقالت: يا يوسف ما أحسن شعرك! .

قال: هو أول ما ينتثر من جسدي .

قالت: ما أحسن عينيك!

(١) في تفسير الطبري: (إطفير) .

(٢) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس موقوفاً .

انظر: الدر المنثور: ٥٢١/٤ . وسيأتي التعليق على هذه الروايات قريباً .

(٣) ساق السيوطي الروايات عنهم في الدر المنثور: ٥٢١/٤ - ٥٢٢ .

قال: هي أول ما تسيل على وجهي في قبري .

قالت: ما أحسن وجهك!

قال: هو للتراب يأكله^(١) .

وقيل: إنها قالت: إن فراش الحرير مبسوط، فقم فاقض حاجتي .

قال: إذا يذهب نصيبي من الجنة .

فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة، وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل، وهي امرأة حسناء جميلة، حتى لانا ممّا يرى من كلفها، وهمّ بها، ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيه بالبرهان الذي ذكره^(٢) .

وزعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام^(٣)، وقال: تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾، ثم ابتداء الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم .
وأنكره النحاة، وقالوا: إن العرب لا تؤخّر (لولا) عن الفعل، فلا تقول: لقد قمت^(٤) لولا زيد، [وهو يريد لولا زيد لَقَمْتُ]^(٥) .

وقيل: همت بيوسف أن يفتershها، وهمّ بها يوسف أي: تمنى أن تكون له زوجة .

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٤/١٦ .

(٢) أخرجه الطبري في الموضع السابق .

(٣) وأبدي ابن عطية وجهاً أن هذا لم يكن في حال النبوة، فقال في «الحرر الوجيز»: (٤٧٧/٧-٤٧٨): «والذي أقول في هذه الآية: إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة: لم يصح، ولا تظاهرت به رواية. وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقفته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً - في ذلك الوقت - فلا يجوز عليه - عندي - إلا الهمّ الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلّ تكية ونحو ذلك؛ لأن العصمة مع النبوة .

وما روي من أنه قيل له: «تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء» فإنما معناه: العدة بالنبوة فيما بعد .
وللهمّ بالشيء مرتبتان: فالأولى: تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى: لا تقع إلا مع غير نبي، لأن استصحاب خاطر المعصية والتلذذ بها معصية في نفسها تُكْتَبُ...» .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «دقائق التفسير»: (٢٧٢/٣-٢٧٣): «الهمّ: اسم جنس تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهمّ هَمٌّ: همّ خطرات، وهمّ إصرار. وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن العبد إذا همّ بسيفة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة... ويوسف همّ هماً تركه الله، لذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه... وأما ما ينقل من أنه حلّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فهو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله. لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا صلى الله عليه وسلم حرفاً واحداً» .

(٤) في «ب»: همت .

(٥) ساقطة من «ب» .

وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين يؤخذ عنهم الدين والعلم^(١)..

وقال بعضهم: إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر، والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام^(٢).

(١) قال العلامة الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان»: تفسير القرآن بالقرآن (٣/٦٠-٦٢): «والجواب الثاني - وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان. وهذا الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية، لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب: أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾: أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب، لأن جواب الشروط وجواب ﴿لَوْلَا﴾ لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كآية المذكورة. وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين فهايتوا برهانكم. وعلى هذا القول: معنى الآية، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، أي: لولا أن رآه هم بها. فما قبل ﴿لَوْلَا﴾ هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾، فما قبل ﴿لَوْلَا﴾ دليل الجواب، أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تُبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب ﴿لَوْلَا﴾ وتقديم الجواب في سائر الشروط: وعلى هذا القول يكون جواب ﴿لَوْلَا﴾ في قوله: ﴿لَوْلَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، هو ما قبله من قوله: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾. وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري.

وقال الشيخ أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» (٥/٢٩٤-٢٩٥) ما نصه: «طول المفسرون في تفسير هذين المهمين، ونسب بعضهم ليوسف مالا يجوز نسبه لآحاد الفساق، والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد فارقت لولا أن عصمك الله، ولا تقول: إن جواب ﴿لَوْلَا﴾ متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مُخْتَلَفٌ في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد، بل تقول: إن جواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف للدلالة ما قبله عليه، كما تقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم. إن فعلت، فيقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مُثَبَّتٌ على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فكان موجد الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، ولكنه وجد رؤية البرهان، فانتفى الهم». وبعد أن ردَّ على الزجاج اعتراضاً لغوياً، قال: «وأما أقوال السلف - والتي ساق بعضها الإمام البيهقي هنا - فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً مع كونها قاذحة في فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب لأنهم قدروا جواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوفاً ولا يدل عليه دليل، لأنهم لم يقدروا «لهم بها»، ولا يدل كلام العرب إنها على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط، لأن ما قبل الشرط دليل عليه، ولا يُحذف الشيء لغير دليل عليه.

ثم يقول أبو حيان: «وقد طهرنا كتابنا هذا - أي: تفسيره البحر المحيط - عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما دلَّ عليه لسان العرب ومساق الآيات التي وردت في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين».

وانظر: «الاسرائيليات والموضوعات» لمحمد محمد أبو شهبة ص (٣٠٧-٣١٩)، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: (٢٨٠-٢٨٦/١٢).

(٢) انظر فيما سبق ص (٢١٨) هامش (٥).

روي أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرت المرأة، قال يوسف: ﴿ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب﴾ قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ الآية (١).

وقال الحسن البصري: إن الله تعالى لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليعيبرهم، ولكن ذكرها ليبين موضع النعمة عليهم، ولئلا يياس أحد من رحمته (٢).

وقيل: إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرد بالطهارة والعزة، ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية.

وقيل: ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة وترك الإيأس من المغفرة والعفو.

وقال بعض أهل الحقائق: اللهم همَّان: همَّ ثابت، وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل همَّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمَّ عارض وهو الخطرة، وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همَّ يوسف عليه السلام، فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي، حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله عز وجل: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها،

(١) ليس هذا من كلام يوسف عليه السلام، بل هو من كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بيّنة، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن، حيث قال تعالى: «وقال الملك اتئوني به، فلما جاءه الرسول، قال: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، إن ربي بكيدهن عليم. قال: ما خطبكن إذ راودتُن يوسف عن نفسه؟ قلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبرئ نفسي، إن النفس لأثارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم».

فهذا كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه. ولكن لما ظهرت براعته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: «ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب» أي: لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته. فحيث شد «قال الملك اتئوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين».

وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه.

انظر: «دقائق التفسير» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٧٣/٣).

(٢) ويوسف عليه السلام لم يذكر الله تعالى عنه أنه ارتكب ذنباً، وهو سبحانه لا يذكر لنبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفاراً من تلك الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفاحشة، فلم أنه لم يفعل ذنباً في هذا ولا هذا، بل إن ما فعله كان من الحسنات المبرورة والمساعي المشكورة.

انظر: «دقائق التفسير»: (٢٦٢/٣، ٢٨٠).

وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له، مالم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها»^(١).
 قوله عز وجل: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، اختلفوا في ذلك البرهان: قال قتادة وأكثر المفسرين: إنه رأى صورة يعقوب، وهو يقول له: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء!.
 وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعه^(٢).

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: مثل له يعقوب عليه السلام فضرب يده في صدره فخرجت شهوته من أنامله^(٣).

وقال السدي: نُودي يا يوسف تواقعها! إنما مثلك مالم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لا يطاق، ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق، ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل الثمل في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه.

وعن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ قال: حلّ سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته، فإذا بكف قد بدت بينهما بلا معصم ولا عضد مكتوب عليها «وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون» (الانفطار - ١١)، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فظهرت تلك الكف مكتوباً عليها: «ولا تقرّبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً» (الإسراء - ٣٢) فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهر، ورأى تلك الكف مكتوباً عليها: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» (البقرة - ٢٨١) فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فقال الله عز وجل لجبريل عليه السلام: أدرك عبيد قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل عليه السلام عاضاً على أصبعه، يقول: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء^(٤).

وروي أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (يريدون أن يدلوا كلام الله): ١٩٨/٨، وفي الرقاق: باب من هم بحسنة عن ابن عباس، ١٧٨/٧، ومسلم في الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتب، وإذا هم بسيئة لم تكتب، برقم (٢٠٥): ١١٧/١، من طريق عبد الرزاق بسنده لصحيفة همام بن منبه، انظر: المصنف لعبد الرزاق، كتاب الجامع: ٢٨٧/١١، ومن طريقه أخرجه البغوي في شرح السنة: ٣٣٧/١٤، ٣٣٨.

وراجع: صحيفة همام بن منبه بتحقيق الدكتور رفعت فوزي ص (١٨٩-١٨٨).

(٢) انظر الروايات عنهم في: الدر المنثور: ٥٢١/٤-٥٢٣.

(٣) إذا خرجت منه الشهوة فإنه لا فضل له في ترك الهمة بها، لو أنه حصل منه.

(٤) وهل نزلت هذه الآيات الكريمة على أحد قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟

وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همّ بها فرأى كتاباً في حائط البيت: «لا تقرّبوا الزنا إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً» .

وروى عطية عن ابن عباس: في البرهان أنّه رأى مثال الملك^(١) .

وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: البرهان النبوة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عزّ وجلّ^(٢) .

وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترت به بثوب، فقال لها يوسف: لم فعلت هذا؟ .

فقالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية .

فقال يوسف: أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه؟ فأنا أحق أن أستحي من ربّي، وهرب^(٣) .

(١) انظر تخرّج هذه الروايات في: الدر المنثور: ٥٢١/٤-٥٢٤ .

(٢) وقريب من هذا القول قول من قال: إن البرهان أنّه علم ما أحلّ الله مما حرم الله، فرأى تحريم الزنا، روي عن محمد بن كعب القرظي. قال ابن قتيبة: رأى حجة الله عليه وهي البرهان .

قال ابن الجوزي: في «زاد المسير»: (٢٠٩/٤): «وهذا هو القول الصحيح وما تقدّمه فليس بشيء»، وإنما هي أحاديث من أعمال القصاص، وقد أشرت إلى فسادها في كتاب «المغني في التفسير». وكيف يُظنّ بنبي الله كريم أنّه يخوف ويرعب ويضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مُصيرٌ؟! وهذا غاية القبح .

(٣) قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره: (٤٩/١٦) بعد أن ساق تلك الروايات المختلفة المضطربة: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن همّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من الله زجرته عن ركوب ما همّ به يوسف من الفاحشة = وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا = ولا حجة للمعذر قاطعة بأيّ ذلك كان من أيّ .

والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه .

وقال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان»: (٦٨/٣): «وهذه الأقوال التي رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة إلى قسمين : قسم لم يثبت نقله عن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه .

وقسم ثبت عن بعض من ذكر. ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك، فالظاهر الغالب على الظن، المراحم لليقين: أنّه إنما تلقاه عن الإسرائيليات؛ لأنّه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه صلى الله عليه وسلم .

وهذا تعلم أنّه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنّه جلس بين رجل امرأة كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها، اعتماداً على مثل هذه الروايات. مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب، كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالى بها، لأن ذلك - على فرض صحته - فيه أكبر زاجر لعوام الفساق، فما ظنك بخيار الأنبياء! مع أننا قدّمنا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة، وأوضحنا أن الحقيقة لا تتعدى أحد أمرين :

إما أن يكون لم يقع منه همّ بها أصلاً، بناء على تعليق همه على عدم رؤية البرهان، وقد رأى البرهان .

وإما أن يكون همه الميل الطبيعي المزموم بالتقوى. والعلم عند الله تعالى .

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جواب لولا محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لواقع المعصية .

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، فالسوء: الإثم. وقيل: السوء القبيح. والفحشاء: الزنا . ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، قرأ أهل المدينة والكوفة: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدّين، زاد الكوفيون ﴿مُخْلِصًا﴾ في سورة مريم ففتحوا .

ومعنى / ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ المختارين للنبوّة، دليله: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ» (ص - ١٤٦) .

١٨١/ب

وقرأ الآخرون بكسر اللام، أي: المخلصين لله الطاعة والعبادة .

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾، وذلك أن يوسف لما رأى البرهان قام مبادراً إلى باب البيت هارباً، وتبعته المرأة تمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف، وأدركته المرأة، فتعلّقت بقميصه من خلفه، فجذبه إليها حتى لا يخرج .

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ أي: فشقتة ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾، أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾، أي: وجدا زوج المرأة قطفير عند الباب جالسا مع ابن عم لراعييل، فلما رآته هابته و﴿قَالَتْ﴾ سابقة بالقول لزوجها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله فقالت: ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾، أي: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ضرب بالسياط، فلما سمع يوسف مقالها .

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت .

قيل: ما كان يريد يوسف أن يذكره، فلما قالت المرأة: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً؟ ذكره، فقال:

هي راودتني عن نفسي .

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، وحكم حاكم، ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾، اختلفوا في ذلك الشاهد :

فقال سعيد بن جبير، والضحاك: كان صبيّاً في المهد، أنطقه الله عز وجل^(١)، وهو رواية العوفي عن

(١) أخرجه عنهما: ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي شيبة وابن المنذر. انظر: الدر المنثور: ٥٢٦/٤ .

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ
قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلّم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام»^(١).
وقيل: كان ذلك الصبي ابن خال المرأة.

وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبيّاً ولكنه كان رجلاً حكيماً ذا رأي^(٢).
قال السدي: هو ابن عم راعيل^(٣)، فحكم فقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾، أي: من
قدام، ﴿فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.
﴿فَلَمَّا رَأَى﴾، قطفیر، ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام،
﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّهُ﴾، أي: إن هذا الصنيع، ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقيل: إن هذا من قول
الشاهد ثم أقبل قطفیر على يوسف فقال:
﴿يُوسُفُ﴾، أي: يايوسف، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: عن هذا الحديث، فلا تذكره لأحد حتى
لا يشيع.

وقيل: معناه لا تكثرث له، فقد بان عذرك وبراءتك.
ثم قال لامرأته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾، أي: توبي إلى الله، ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

(١) رواه ابن جرير في التفسير عن ابن عباس: (٥٥/١٦)، والإمام أحمد في المسند مطولاً برقم (٢٨٢٢-٢٨٢٥) — طبعة الحلبي —
ولم يرفعه، وابن حبان في صحيحه ص (٤٠) من موارد الظمان.
وقال الهيثمي في «المجمع»: (٦٥/١): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط — وفيه عطاء بن السائب — وهو ثقة، ولكنه
اختلط».

وأخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ٤٩٧/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وعزاه السيوطي للبيهقي في
الدلائل، وزاد ابن حجر نسبه لابن أبي شيبة وأبي يعلى والبيهقي في الشعب انظر: «الكافي الشاف» ص (٨٩)، وصححه الشيخ
محمود شاكر في تعليقه على الطبري، في الموضوع السابق.

وانظر: فتح الباري لابن حجر: ٤٨٠/٦.

(٢) انظر: الدر المنثور ٥٢٦/٤.

(٣) قال الطبري في التفسير: (٥٩/٢): «والصواب من القول في ذلك، قول من قال: كان صبيّاً في المهدي = للخبر الذي ذكرناه عن
رسول الله ﷺ، أنه ذكر من تكلم في المهدي، فذكر أن أحدهم صاحب يوسف».

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرْنَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُنَّ سَيِّئًا وَقَالَتْ خْرِجْنَ عَلَيْنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ﴾

وقيل: إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعييل .

وأراد بقوله: (واستغفري لذنبك)، أي سلي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من المذنبين، حتى راودت شاباً عن نفسه وثخنت زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، وإنما قال: «من الخاطئين» ولم يقل: من الخاطئات، لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عن من يفعل ذلك، تقديره: من القوم الخاطئين، كقوله تعالى: «وَكَاثِبٌ مِنَ الْقَانِتِينَ» (التحریم - ١٢) بيانه قوله تعالى: «إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ» (النمل - ٤٣) .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الآية .

يقول: شاع أمر يوسف والمرأة في المدينة مدينة مصر. وقيل: مدينة عين الشمس، وتحدث النساء بذلك وقلن - وهن خمس نسوة: امرأة حاجب^(١) الملك، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة الخباز، وامرأة الساقى، وامرأة صاحب السجن، قاله مقاتل .

وقيل: هن نسوة من أشراف مصر - :

﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾، أي: عبدها الكنعاني، ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾، أي: تطلب من عبدها الفاحشة، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: علقها حباً .

قال الكلبي: حجب حبه قلبها حتى لا تعقل سواه .

وقيل: أحبت حتى دخلها حبه شغاف قلبها، أي: داخل قلبها .

قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول: دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب .

وقرأ الشعبي والأعرج^(١): ﴿شَغَفَهَا﴾ بالعين غير المعجمة، معناه: ذهب الحب بها كل مذهب .

ومنه شغف الجبال وهو رؤوسها. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: خطأ ظاهراً. وقيل: معناه إنها تركت ما يكون عليه أمثالها من العفاف والستر .

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، راعيل، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾، بقولهن وحديثهن، قاله قتادة والسدي .

(١) في «ب»: صاحب .

(٢) في «ب»: الأعمش .

قال ابن إسحاق إنما قلن ذلك مكرراً بها لِتُرِيَهُنَّ يوسف، وكان يوصف لهنَّ حسنُهُ وجماله .
وقيل: إنها أفشت إليهنَّ سرّها واستكتمتهن . فأفشين ذلك، فلذلك سماه مكرراً .
﴿أَرْسَلْتُ إِلَيْهَا﴾، قال وهب: اتخذت مأدبة، ودعت أربعين امرأة، منهن هؤلاء اللاتي غيّرنها .
﴿وَأَعْتَدْتُ﴾، أي: أعدت، ﴿لَهُنَّ مَتَكاً﴾، أي: ما يتكأ عليه .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: متكأ أي: طعاماً، سماه متكأ لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكئون على الوسائد، فسمى الطعام متكأ على الاستعارة. يقال: اتكأنا عند فلان أي: طعمنا^(١). ويقال: المتكأ ما اتكأت عليه للشرب أو الحديث أو الطعام^(٢)، ويقرأ في الشواذ مَتَكاً بسكون التاء .

واختلفوا في معناه: فقال ابن عباس: [هو الأترج. ويروى عن مجاهد مثله. وقيل]^(٣) هو الأترج بالحيشة .

وقال الضحاك: هو الرباورد^(٤) .

وقال عكرمة: هو كل شيء يقطع بالسكين .

وقال أبو زيد الأنصاري: كل ما يجز بالسكين فهو عند العرب متك، والمتك والبتك بالميم والباء: القطع، فزيت [المأدبة باللون]^(٥) الفواكه والأطعمة، ووضعت الوسائد ودعت النسوة .

﴿وَأَتَتْ﴾: وأعطت، ﴿كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾، فكن يأكلن اللحم حزاً بالسكين .

﴿وَقَالَتْ﴾، ليوسف، ﴿اخْرُجْ عَلَيْنَا﴾، وذلك أنها كانت أجلسته في مجلس آخر، فعخرج عليهن

يوسف .

قال عكرمة: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم .

وروي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ يَوْسُفَ

كَالقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»^(٦) .

قال إسحاق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلاً على وجهه على الجدران .

(١) في «أ»: أطمعنا .

(٢) في «أ»: لشراب أو لحديث أو لطعام .

(٣) ساقط من «أ» .

(٤) في «ب»: الزنارود .

(٥) في «ب»: بيتاً بأنواع .

(٦) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص (٨٩): «رواه الثعلبي من رواية أبي هارون العبيدي عن أبي سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في

الدلائل، وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً، وأبو هارون العبيدي ضعيف» .

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ
مَاءَ امْرُؤَةٍ لَيْسَ جَنًّا وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٤﴾

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتُهُ﴾، أعظمته، قال أبو العالية: هالهُنَّ أمرُهُ وبُهِتَنَ. وقيل: أكبرته أي: حضن لأجله من جماله^(١). ولا يصح.

﴿وَقَطَّعْنَ﴾، أي: حزنن بالسكاكين التي معهن، ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف.

أ / ١٨٢ قال مجاهد: / فما أحسنن إلا بالدم.

وقال قتادة^(٢) أبنُ أيديهن حتى ألقينها.

والأصح كان قطعاً بلا إبانة.

وقال وهب: ماتت جماعة منهن^(٣).

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾، أي: معاذ الله أن يكون هذا بشراً. قرأ أبو عمرو: حاشى لله، بإثبات الياء في الوصل، على الأصل. وقرأ الآخرون بحذف الياء لكثرة ورودها على الألسن، واتباعاً للكتاب.

وقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ نصب بنزع حرف الصفة، أي: ليس هذا ببشر، ﴿إِنْ هَذَا﴾، أي: ما هذا، ﴿إِلَّا مَلَكٌ﴾، من الملائكة، ﴿كَرِيمٌ﴾، على الله تعالى.

﴿قَالَتْ﴾، يعني: راعيل، ﴿فَلَذِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾، أي: في حبه، ثم صرحت بما فعلت، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ﴾، أي: فامتنع، وإنما صرحت به لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهن وقد أصابهن ما أصابها من رؤيته، فقلن له: أطع مولاتك. فقالت راعيل: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾، ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، ﴿لَيْسَ جَنًّا﴾، أي: ليعاقبن بالحبس، ﴿وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، من الأذلاء. ونون التوكيد تثقل وتخفف، والوقف على قوله: ﴿لَيْسَ جَنًّا﴾ بالنون لأنها مشددة، وعلى قوله ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالألف لأنها مخففة، وهي شبيهة بنون الإعراب في الأسماء، كقوله: رأيت رجلاً، وإذا وقفت، قلت: رأيت رجلاً، بالألف، ومثله: «لنسفعاً بالناصية ناصية» (العلق - ١٥، ١٦). فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعدته المرأة.

(١) وضعف هذا التفسير أيضاً: الطبري: ٧٦/١٦-٧٧، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٤٩٥/٧-٤٩٦.

(٢) في «ب»: مجاهد.

(٣) قال الطبري في التفسير: ٧٩/١٦: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عنهن أنهن قطعن أيديهن وهن لا يشعرن بإعظام يوسف، وجائز أن يكون ذلك قطعاً بإبانة = وجائز أن يكون قطع حَزَّ وخدش = ولا قول في ذلك أصوب من التسليم لظاهر التنزيل».

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَآيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

﴿قال رب﴾، أي: يارب، ﴿السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾، قيل: كان الدعاء منها خاصة، ولكنه أضاف إليهن خروجاً من التصريح إلى التعريض .
وقيل: لأنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن .

وقرأ يعقوب وحده: السِّجْنُ بفتح السين. وقرأ العامة بكسرها .
وقيل: لو لم يقل: السجن أحب إلي لم يُتَلَّ بالسجن، والأولى بالمرء أن يسأل الله العافية .
قوله تعالى: ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾، أمل إليهن وأتابعهن، يقال: صبا فلان إلى كذا يصبو صبوا وصبوا وصبوة إذا مال واشتاق إليه .

﴿واكن من الجاهلين﴾، فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنباً يرتكبه عن جهالة .
﴿فاستجاب له﴾ أجاب له. ﴿ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾، [لدعائه] ^(١) العليم بمكرهن .

﴿ثم بدا لهم﴾، أي: للعزيز وأصحابه في الرأي، وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض. ثم بدا لهم أن يجسوه. ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾، الدالة على براءة يوسف من قذ القميص، وكلام الطفل، وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن، ﴿ليسنجنه حتى حين﴾، إلى مدة يرون فيه رأيهم .
وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة ^(٢) الناس .

قال عكرمة: سبع سنين .

وقال الكلبي: خمس سنين .

قال السدي: وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يخبرهم أني راودته عن نفسه، فإذا أن تأذن لي فأخرج فأعذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فحبسه، وذكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف عليه السلام من همّه بالمرأة ^(٣) .

(١) ساقط من ١، ١ .

(٢) في وب: قاله .

(٣) تفسير الطبري: ٩٣/١٦ .

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ
 إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات حين همّ بها ففسجن، وحين قال «اذكري عند ربك» فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال للإخوة «إنكم لسارقون»، فقالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»^(١). قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ﴾، وهما غلامان كانا [للريان بن الوليد بن شروان العمليق]^(٢) ملك مصر الأكبر، أحدهما: خبّازه وصاحب طعامه، والآخر: ساقيه وصاحب شرابه. غضب الملك عليهما فحبسهما .

وكان السبب فيه: أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله، فضمنوا لهذين مالا، ليسما الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم، ثم إن الساقى نكل عنه، وقبل الخباز الرشوة فسّم الطعام، فلما أحضر الطعام والشراب .

قال الساقى: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم . فقال الملك للساقى: اشرب فشربه فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك، [فأبى فجرب]^(٣) ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما .

وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أعبر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمّ فلنجرب هذا العبد العبراني، فترأّيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا، قال ابن مسعود ما رأيا شيئا وإنما تحالما ليجرّبا يوسف .

وقال قوم: بل كانا رأيا حقيقة، فرأهما يوسف وهما مهمومان، فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما صاحبا الملك، حبسهما، وقد رأيا رؤيا غمتهما. فقال يوسف: قُصّا عليّ ما رأيتما، فقصّا عليه . ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، أي: عنباً، سمي العنب خمراً باسم ما يؤل إليه، كما يقال: فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبن للآجر. وقيل: الخمر العنب بلغة عمان، وذلك أنه قال إني رأيت كأني في بستان، فإذا بأصل حبلّة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيته وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه .

(١) تفسير الطبري: ٩٣/١٦ .

(٢) في (ب): للوليد بن ثوان العمليقي .

(٣) في (ب): فإني مجرب .

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ كَمَا مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿وقال الآخر﴾، وهو الخباز: ﴿إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾، وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منه. ﴿نبأنا بتأويله﴾، أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤل إليه أمر هذه الرؤيا .

﴿إِنَّا نُرَاكَ مِنَ الْإِحْسَانِ﴾، أي: العالمين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى العلم .

وروي أن الضحاك بن مزاحم سئل عن قوله: ﴿إِنَّا نُرَاكَ مِنَ الْإِحْسَانِ﴾، ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق [عليه المجلس] ^(١) وسع له، وإذا احتاج جمع له شيئاً، وكان مع هذا يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصلاة ^(٢) .

وقيل ^(٣): إنه لما دخل السجن وجد فيه قوماً قد اشتد بلاؤهم وانقطع رجائهم وطال حزنهم، فجعل يُسَلِّمهم ويقول: أبشروا واصبروا توجروا، فيقولون: بارك الله فيك يافتي ما أحسن وجهك وخلقت وحديتك، لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يافتي؟ قال: أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق ^(٤) بن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: يافتي والله لو استطعت لخلّيت سبيلك، ولكن سأحسن جوارك فتمكن في أي بيوت السجن شئت .

ويروى أن الفتيين لما رأيا يوسف قالاه: لقد أحبيناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل علي من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل علي بلاء، ثم أحبني أبي فألقيت في الحب، وأحبتني / امرأة العزيز فحبست. فلما قصاً عليه الرؤيا كره يوسف ١٨٢/ب أن يعبر لهما ما سألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره في إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد ^(٥) .

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾، قيل: أراد به في النوم يقول لا يأتكما طعام ترزقانه في نومكما، ﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ﴾، في اليقظة .

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) وقول الضحاك هذا، هو الذي رجحه أبو جعفر الطبري: ١٠٠/١٦ .

(٣) رواه الطبري في التفسير: ٩٩/١٦ عن قتادة، وقال في عقبه: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الضحاك وفتادة .

(٤) راجع فيما سبق التعليق (١) في ص (٢١٥) عن الذبيح .

(٥) أخرجه الطبري في التفسير: ١٠٢/١٦، وعزاه السيوطي أيضاً لابن أبي حاتم عن ابن إسحاق .

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ
 مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنُ وَأَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ
 الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

وقيل: أراد به في اليقظة، يقول: لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه، تطعمانه وتأكلانه
 إلا نباتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما .

﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾، قبل أن يصل إليكما، وأي طعام أكلتم ولم أكلتم ومتى أكلتم، فهذا مثل
 معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: «وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» (آل عمران - ٤٩)
 فقالوا: هذا فعل العرافين والكهنة^(١)، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن وإنما ﴿ذَلِكَ﴾،
 العلم، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، وتكرار
 ﴿هُمْ﴾ على التأكيد .

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، أظهر أنه من ولد الأنبياء ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾، ما
 ينبغي لنا، ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، معناه: أن الله قد عصمنا من الشرك، ﴿ذَلِكَ﴾، التوحيد
 والعلم، ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، ما بين لهم من الهدى، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَشْكُرُونَ﴾، ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ﴾، جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، كما يقال لسكان الجنة: أصحاب
 الجنة، ولسكان النار: أصحاب النار، ﴿أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾، أي: آلهة شتى، هذا من ذهب، وهذا من
 فضة، وهذا من حديد، وهذا أعلى، وهذا أوسط، وهذا أدنى، متباينون لا تضر ولا تنفع، ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، الذي لا ثاني له. القهار: الغالب على الكل. ثم بين عجز الأصنام فقال :

(١) العراف: هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور الغيبية بمقدمات وأسباب قولية أو فعلية، يستدل بها على مواقعها، كالشيء يُسرق، فيعرف
 المظنون به السرقة ..

وجعله شيخ الإسلام ابن تيمية إسماً للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم .
 والكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه: استراق الجني السمع
 من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن .

وهذه صورة لادعاء علم الغيب حرّمها الإسلام، إذ لا يعلم الغيب إلا الله .

انظر بالتفصيل: عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي، تأليف عثمان جمعة ضميرية، ص (١١٧-١٣١) .

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ
خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

﴿ما تعبدون من دونه﴾، أي: من دون الله، وإنما ذكر بلفظ الجمع وقد ابتدأ الخطاب للثنين لأنه أراد جميع أهل السجن، وكل من هو على مثل حالهما من [أهل] ^(١) الشرك، ﴿إلا أسماء سميتوها﴾، آلهة وأرباباً خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء، ﴿أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾، حجة وبرهان، ﴿إن الحكم﴾، ما القضاء والأمر والنهي، ﴿إلا الله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾، المستقيم، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ثم فسر رؤياهما فقال:

﴿يا صاحبي السجن أَمَا أحذركم﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿فيسقي ربّه﴾، [يعني الملك] ^(٢) ﴿خمرًا﴾، والعناقيد الثلاثة ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة ^(٣) أيام، ويردّه إلى منزلته التي كان عليها، ﴿وأما الآخر﴾، يعني: صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسلال الثلاثة ^(٣) أيام يبقى في السجن، ثم يخرج، ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾.

قال ابن مسعود: لما سمعنا قول يوسف قالاً: ما رأينا شيئاً إلّا كنّا نلعب، قال يوسف: ﴿قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ ^(٤)، أي: فرغ من الأمر الذي عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتكما به، رأيتمَا أو لم تريَا.

﴿وقال﴾، يعني: يوسف عند ذلك، ﴿للذي ظن﴾، علم ﴿أنه ناج منهما﴾، وهو الساقى، ﴿اذكُرني عند ربك﴾، يعني: سيدك الملك، وقل له: إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً طال حبسه،

(١) ساقط من (ب).

(٢) ما بين القوسين ساقط من (ب).

(٣) في (ب): ثلاثة.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور: (٥٤٠/٤) لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، قيل: أنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف للملك، تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه .

قال ابن عباس وعليه الأكثر: أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه حين ابتغى الفرج، من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان^(١) .

﴿فَلَبِثَ﴾، فمكث، ﴿فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، واختلفوا في معنى البضع، فقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع .

وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع .

وقال ابن عباس: ما دون العشرة .

وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة .

قال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين، وعذب بختنصر فحول في السباع سبع سنين^(٢) .

قال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقى اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذت من دولي وكيلاً لأطيلن حبسك، فبكى يوسف، وقال: يارب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت كلمة ولن أعود^(٣) . وقال الحسن: دخل جبريل على يوسف في السجن، فلما رآه يوسف عرفه فقال له: يا أبا المنذرين

(١) رجح أبو حيان أن الضمير عائد على الساقى، وهو القول الأول، وهو أيضاً ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية من وجوه عديدة، فقال: «... بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: «اذكرني عند ربك» قال تعالى: «فأنساه الشيطان ذكر ربه»، والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك، ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه، بل كان ذاكرًا لربه...»

ثم قال بعد وجوه عديدة: فتبين أن قوله «فأنساه الشيطان ذكر ربه» أي: أنسى الفتى ذكر ربه، أن يذكر هذا لربه، ونسي ذكر يوسف ربه، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه هذا الذكر الخاص، فإنه وإن كان يسقى ربه محرراً فقد لا يحظر هذا الذكر بقلبه، وأنساه الشيطان تذكير ربه، وإذكار ربه لما قال: «اذكرني» أمره بإذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه .

فإذكار ربه أن يجعله ذاكرًا فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرًا ليوسف، والذكر هو مصدر، وهو اسم فقد يضاف من جهة كونه إسمًا، فيعم هذا كله، أي: أنساه الذكر المتعلق بربه، والمضاف إليه .

ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك: «وقال الذي نجا منهما، واذكر بعد أمة، أنا أنبيكم بتأويله فأرسلون»، وقوله: «واذكر بعد أمة» دليل على أنه نسي فاذكر .

انظر: دقائق التفسير لابن تيمية: ٢٥٩/٣-٢٦٣، وراجع البحر المحيط لأبي حيان: ٣١١/٥-٣١٢ .

(٢) قال الطبري في التفسير: (١١٥/١٦): «والصواب في البضع» من الثلاث إلى التسع، إلى العشر، ولا يكون دون الثلاث. وكذلك ما زاد على العقد إلى المائة، وما زاد على المائة فلا يكون فيه «بضع» .

(٣) أخرجه الطبري في التفسير: ١١١/١٦ .

مالي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: ياطاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين، ويقول لك: أما استحييت مني أن استشفعت بالآدميين، فوعزتي لأبثنك في السجن بضع سنين، قال يوسف: وهو في ذلك عني راض؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبالي .

وقال كعب: قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول من خلقك؟ قال: الله، قال: فمن حببك إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمن نجاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمن علمك تأويل الرؤيا؟ قال: الله، قال: فمن صرف عنك سوء والفحشاء؟ قال: الله، قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك؟^(١) .

فلما انقضت سبع سنين - قال الكلبي: وهذا السبع سوى الخمسة^(٢) التي كانت قبل ذلك - ودنا فرج يوسف، رأى ملك مصر الأكبر رؤياً عجيبة هالته، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان، خرجت من البحر، ثم خرج عقبن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجاف السمان فدخلن في بطونهن، ولم يرَ منهن شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبُّها، [وسبعاً أخرى]^(٣) يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبق من خضرتها شيء، فجمع السحرة والكهنة والحازة^(٤) والمعبرين وقص عليهم رؤياه، فذلك قوله تعالى :

(١) هذه الروايات عن الحسن وهب ومالك بن دينار من الاسرائيليات، وهي بجملتها تعني أن يوسف عليه السلام لبث في السجن بضع سنين بسبب استشفاعه أو طلبه من الذي علم أنه ناج أن يذكره عند ربه، وكان الأولى أن يتوكل على الله ولا يقول اذكرني عند ربك، فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين .

وقد رد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في «دقائق التفسير»: (٢٦١/٣): «ليس في قوله: (اذكرني عند ربك) ما يناقض التوكل، بل قد قال يوسف: (إن الحكم إلا لله) كما أن قول أبيه: (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) لم يناقض توكله؛ بل قال: (وما أغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) .

وأيضاً: فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصاً مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركاً، لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: (والأنا تصرفني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)، فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده؟! .

وقوله: (اذكرني عند ربك) مثل قوله لربه (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضاً للتوكل، ولا هو من سؤال الإمامة المنهي عنه. فكيف يكون قوله للفتى: (اذكرني....) مناقضاً للتوكل، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به، ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس .

ولهذا بعد أن طلب (وقال الملك اتوني به) قال: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟ إن ربي بكيدهن عليم) فيوسف يذكر ربه في هذه الحال، كما ذكره في تلك... فلم يكن في قوله له: (اذكرني...) ترك لواجب، ولا فعل لحرم، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين. وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا، ظمناً له، مع علمهم ببراءته من الذنب، ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال .

وانظر: «الاسرائيليات والموضوعات» ص (٣٢٠-٣٢١) .

(٢) ظاهر الآيات لا يدل على أن هناك خمساً قبل ذلك، والله أعلم .

(٣) في «ب»: وسبع أخر .

(٤) في هامش «أ»: الحازة: المنجمون .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
 سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا
 تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ
 الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
 الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ
 خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾، فقال لهم، ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أخلاط أحلام مشتبهة، أهاويل، واحدها (١) ضَغْث، وأصله الحزمة من أنواع الحشيش، والأحلام جمع الحلم، وهو الرؤيا، والفعل منه حلمت أحلم، بفتح اللام في الماضي وضمها في الغابر، حُلماً وحُلماً، مثقلاً ومخففاً. ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾.

﴿وقال الذي نجا﴾، من القتل، ﴿منهُمَا﴾، من الفتيين وهو الساقى، ﴿وادَّكَرَ﴾، أي: تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك، ﴿بعد أُمَّةٍ﴾، بعد حين وهو سبع سنين. ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾، وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك، وقال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا، ﴿فأرسلون﴾ وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها الملك إليه، فأرسله فأتى السجن / قال ابن عباس: ولم يكن السجن في المدينة.

أ / ١٨٣

فقال: ﴿يوسف﴾، يعني: يا يوسف، ﴿أيها الصديق﴾، والصديق الكثير الصدق، ﴿أفينا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾، فإن الملك رأى هذه الرؤيا، ﴿لعلِّي أرجع إلى الناس﴾، أهل مصر، ﴿لعلهم يعلمون﴾، تأويل الرؤيا. وقيل: لعلهم يعلمون منزلتك في العلم.

فقال لهم يوسف معبراً ومعلماً: أما البقرات السمان والسنبلات الخضر: فسبع سنين مخصبة، والبقرات العجاف والسنبلات [اليابسات] (٢): فالسنون المجذبة، فذلك قوله تعالى إخباراً عن يوسف:

(١) في «ب»: واحدها.

(٢) ساقط من «أ».

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ^ط فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ ^ج إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً﴾، هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة .

والدأب: العادة. وقيل: بجد واجتهاد .

وقرأ عاصم برواية حفص: ﴿دأباً﴾ بفتح الهمزة، وهما لغتان، يقال: دأبت في الأمر أدأب دأباً ودأباً إذا اجتهدت فيه. ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾، أمرهم بترك الحنطة في السنبل لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد، ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾، أي: مما تدرسون قليلاً للأكل، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة .

﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد﴾. سمي السنين المجدة شداداً لشدةها على الناس، ﴿يأكلن﴾، أي: يفنين ويهلكن، ﴿ما قدمتم لهن﴾، أي: يؤكل فيهن ما أعدتم^(١) لهن من الطعام، أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع ﴿إلا قليلاً مما تخلصن﴾ تخرزون وتدخرون للبذر .
﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس﴾، أي: يمطرون، من الغيث: وهو المطر. وقيل: ينقذون من قول العرب استغثت فلاناً فأغاثني، ﴿وفيه يعصرون﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿تعصرون﴾، بالتاء، لأن الكلام كله على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء رداً إلى الناس، ومعناه: يعصرون العنب خمرأ والزيتون زيتاً والسمسم دهناً. وأراد به كثرة النعم والخير. وقال أبو عبيدة: يعصرون أي ينجون من الكروب والجدب، والعصر والعصرة: المنجاة والملجأ^(٢) .

﴿وقال الملك ائتوني به﴾، وذلك أن الساقى لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفاته^(٣) يوسف من تأويل رؤياه، وعرف الملك أن الذي قاله كائن، قال: ائتوني به .

(١) في «ب»: قدمتم .

(٢) قول أبي عبيدة هذا في كتابه «مجاز القرآن»: (٣١٣/١، ٣١٤) وقد رده الطبري في التفسير: (١٦/١٣١، ١٣٢) وقال: «...»

وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه: خلافة قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين .

(٣) في «ب»: أخبره .

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

﴿فلما جاءه الرسول﴾، وقال له: أجب الملك، أي أن يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته ثم، ﴿قال﴾، للرسول: ﴿ازجع إلى ربك﴾، يعني: سيدك الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾، ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً.

قال النبي ﷺ: «لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١).
﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾، أي: إن الله بصنيعهن عالم، وإنما أراد يوسف بذكرهن بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة، ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة وامرأة العزيز.

﴿قال﴾، لهن، ﴿ما خطبكن﴾، ما شأنكن وأمركن، ﴿إذ راوَدْتَنِّي يوسف عن نفسه﴾، خاطبن والمراد امرأة العزيز، وقيل: إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرته بطاعتها فلذلك خاطبن.
﴿قلن حاش لله﴾ معاذ الله، ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾، خيانة.

﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ ظهر وتبين. وقيل: إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فقررنها [فأقرت]^(٢)، وقيل: خافت أن يشهدن عليها فأقرت. ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾، في قوله: هي راودتني عن نفسي، فلما سمع ذلك يوسف قال^(٣):
﴿ذلك﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردي رسول الملك إليه، ﴿ليعلم﴾، العزيز، ﴿أني لم أخنه﴾،

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة يوسف، باب (فلما جاءه الرسول قال ارجع...): ٣٦٦/٨.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) هذا القول عن يوسف حكاه ابن جرير وابن أبي حاتم، ولم يذكره غيره (انظر: الطبري ١٤٠/١٦، ابن كثير: ٤٨٢/٢).
والأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام: أن ذلك من قول امرأة العزيز، تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلماذا اعترفت ليعلم أنني بريئة... (انظر: ابن كثير: ٤٨٢/٢).

وهذا التفسير ذكره الماوردي، وانتدب لنصره شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «هذا كله من كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه. ولكن ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: (ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب) أي: لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته».

انظر: دقائق التفسير: (٢٧٣/٢)، تفسير المنار: (٣٢٤-٣٢٣/١٢).

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
 ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
 آمِينَ ﴿٥٤﴾

في زوجته، ﴿بالغيب﴾، أي: في حال غيبته، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، قوله ذلك ليعلم من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز: أنا راودته عن نفسه، من غير تمييز، لمعرفة السامعين^(١).
 وقيل: فيه تقديم وتأخير: معناه: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربِّي بكيدهنَّ عليهنَّ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب^(١).
 قيل: لما قال يوسف هذه المقالة، قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف عند ذلك: وما أبرئ نفسي^(٢).

قال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف؟ فقال يوسف^(٢):
 ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾، من الخطأ والزلل فازكيها، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، بالمعصية ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾، أي: إلا من رحم ربي فعصمه، ﴿مَا﴾ بمعنى من - كقوله تعالى: «فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ» (النساء - ٣) أي: مَنْ طَابَ لَكُمْ - وهم الملائكة، عصمهم الله عز وجل فلم يركب فيهم الشهوة.

وقيل: «إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان.
 ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فلما تبين للملك عذر يوسف عليه السلام وعرف أمانته وعلمه:
 ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾، أي: أجعله خالصاً لنفسي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾، فيه اختصار تقديره: فجاء الرسول يوسف فقال له: أجب الملك الآن.

رُوي أنه قام ودعا لأهل السجن فقال: اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عليهم الأخيار، فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على باب السجن: هذا قبر الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء. ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً حسناً وقصد الملك^(٣).

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) انظر التعليق السابق، وراجع فيما سبق ص (٢٢٨) تعليق (٢).

(٣) انظر: البحر المحيط: ٣١٩/٥. ومثل هذه الأخبار، والخبران التاليان مما لا يوقف على صحته، وساق المصنف ذلك بصيغة التبريز، ولا يتوقف فهم الآيات على شيء منها. والله أعلم.

قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنياي، وحسبي ربي من خلقه، عزّ جاره، وجلّ ثناؤه، ولا إله غيره. ثم دخل الدار فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره. فلما نظر إليه الملك سلّم عليه يوسف بالعربية فقال: الملك ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال هذا لسان آبائي، ولم يعرف الملك هذين اللسانين .

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلما تكلم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية، فأعجب الملك [ما رأى منه] ^(١) مع حداثة سنه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأجلسه و، ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾، [المكانة في الجاه] ^(٢)، ﴿أَمِينٌ﴾، أي: صادق .
وروي أنّ الملك قال له إني أحب أن أسمع رؤيائي منك شفاهاً .

فقال يوسف: نعم أيها الملك، رأيت سبع بقرات سمان شهب غرّ جسان، كشف لك عنهنّ النيل، فطلعنّ عليك من شاطئه تشخب أخلافهنّ لبناً، فبينما أنت تنظر إليهن ويعجبك حُسنهنّ إذ نضبّ النيل فغار ماؤه وبدا ييسه، فخرج من حماته سبع بقرات عجافٍ شعثٍ غير مُتقلّصات [البطون، ليس هنّ ضروع ولا أخلاف] ^(٣)، ولهنّ أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فافترسن السمان افتراس السبع، فأكلن لحومهن، ومزقن جلودهنّ، وحطمن عظامهنّ، وتمششن مخهنّ، ١٨٣ ب/ فبينما أنت تنظر وتتعجب / إذ سبع سنابل خضر وسبع آخر سود في منبت واحد [عروقهنّ في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك أفى هذا؟ خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد وأصولهنّ في الماء] ^(٤) إذ هبّ ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهنّ النار، فاحترقن فصرن سوداً فهذا ما رأيت، ثم انتبهت من نومك مدعوراً .
فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا - وإن كانت عجيبة - بأعجب مما سمعتُ منك، فما ترى في رؤيائي أيها الصديق؟

فقال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجعل الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله ليكون القصب والسنبل علفاً للدواب، وتأمّر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس، فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي للميرة فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك .

(١) ساقط من «أ» .

(٢) في «أ»: أي: ذو مكانة وجاه .

(٣) جاءت هذه العبارة في «ب» هكذا: (متقلصات الضروع ليس هنّ بطون ولا أخلاف) .

(٤) ساقط من «أ» .

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

فقال الملك: ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه ويكفيني الشغل فيه؟ .
 ف ﴿قال﴾، يوسف، ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾، الخزائن: جمع خزانة، وأراد خزائن الطعام والأموال، والأرض: أرض مصر، أي: خزائن أرضك .
 وقال الربيع بن أنس: على خراج مصر ودخله .
 ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، أي: [حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها. وقيل: حفيظ عليم]^(١): كاتب وحاسب .

وقيل: حفيظ لما استودعته، عليم بما وليتني .
 وقيل: حفيظ للحساب^(٢) عليم بالألسن أعلم لغة كل من يأتيني .
 وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين الخصبة [في الأرض الجدبة]^(٣) عليم بوقت الجوع حين يقع، فقال له الملك. ومن أحق به منك؟! فولاه ذلك وقال له: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ، ذو مكانة ومنزلة، أمين على الخزائن .

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الفننجوي، حدثنا محمد بن جعفر البقرجي، حدثنا الحسن بن علوية، حدثنا إسماعيل بن عيسى، حدثنا إسحاق بن بشر، عن جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخره لذلك سنة فأقام في بيته سنة مع الملك»^(٤) .

وبإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرفت السنة من اليوم الذي سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه [وقلده بسيفه]^(٥) ووضع له سريراً من ذهب مكلّل بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مفرمة، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجّاً، ولونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه، فانطلق

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) في «ب»: حساب .

(٣) ساقط من «أ» .

(٤) حديث موضوع. قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص (٩٠): «أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر، عن جوير، عن الضحاك عنه. وهذا إسناد ساقط» .

قال الألباني: «ومن طريق الثعلبي رواه الواحد في تفسيره. (سلسلة الأحاديث الضعيفة) (٣٣٥/١)» .

(٥) في «ب»: ورداه بسيفه .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مَا يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا
 مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
 يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قاله ابن إسحاق^(١).

وقال ابن زيد: وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سُلطانه كله إليه وجعل أمره وقضائه نافذاً، قالوا: ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي فزوج الملك يوسف راعيل امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين: أفرايم بن يوسف، وميشا بن يوسف^(٢).

واستوثق ليوسف ملك مصر، أي: اجتمع، فأقام فيهم العدل، وأحبه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، يعني: أرض مصر ملكناه^(٣)، ﴿يَتَّبِعُونَ مَا يَشَاءُ﴾، أي: ينزلون ما يشاء.

قرأ ابن كثير: ﴿نَشَاءُ﴾ بالنون رداً على قوله: ﴿مَكَّنَّا﴾ وقرأ الآخرون بالياء رداً على قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾. ﴿نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ﴾، أي: بنعمتنا، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين.

قال مجاهد وغيره: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف له حتى أسلم الملك وكثير من الناس. فهذا في الدنيا.

﴿وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ﴾، ثواب الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

فلما أطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام بأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام للسنين المجدة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنوات المخصبة ودخلت السنوات المجدة بهول لم يعهد الناس بمثله.

(١) ساق ابن عطية هذه الرواية عن ابن إسحاق ثم قال: وروي في نحو هذا من القصص مالا يوقف على صحته، ويطول الكلام بسوقه.

انظر: المحرر الوجيز: (٨/ ٨).

(٢) في «أ»: مكناه.

ورُوي أنه كان قد دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار^(١)، فلما دخلت سنة القحط كان أول من أخذه الجوع هو الملك في نصف الليل فنادى يا يوسف الجوع الجوع! . فقال يوسف: هذا أوان القحط .

ففي السنة الأولى من سنِّي الجذب هلك كل شيء أعدوه في السنين المخصصة، فجعل أهل مصر يتاعون من يوسف الطعام، فباعهم أول سنة بالنقود حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضة، وباعهم السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، وباعهم السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق في يد أحد عبد ولا أمة، وباعهم السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها، وباعهم السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم السنة السابعة برقابهم [حتى استرقهم]^(٢)، ولم يبق بمصر حرّ ولا حرة إلا صار عبداً له .

فقال الناس: ما رأينا يوماً كالיום ملكاً أجّل ولا أعظم من هذا .
ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي فيما حولني فما ترى في ذلك؟
فقال له الملك: الرأي رأيك ونحن لك تبع .

قال: فإني أشهد الله وأشهدك أنني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم^(٣) .
ورُوي أن يوسف كان لا يشبع من طعام في تلك الأيام، فقيل له: أتجوع ويملك خزائن الأرض؟ .
فقال: أخاف إن شبت أن أنسى الجائع، وأمر يوسف عليه السلام طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قال: وقصد الناس مصر من كل أوطى يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكن أحداً منهم - وإن كان عظيماً - من أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس، وتراحم الناس عليه وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدة، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، فأرسل بنيه إلى مصر للميرة، وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه، فذلك قوله تعالى :

(١) حكى الثعلبي أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار. قال: فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك .

انظر: البداية والنهاية ٢١٩/١ .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) قال الخافظ ابن كثير في تفسيره: (٤٨٤/٢): «وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال...، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب» .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿وجاء إخوة يوسف﴾ وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالعرنات من أرض فلسطين، بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع ١٨٤ / أ الطعام، فتجهزوا لتشتروا / منه الطعام، فأرسلهم فقدموا مصر، ﴿فدخلوا عليه﴾، على يوسف، ﴿فعرّفهم﴾، يوسف عليه السلام.

قال ابن عباس ومجاهد: عرفهم بأول ما نظر إليهم.

وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه.

﴿وهم له منكرون﴾، أي: لم يعرفوه. قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه.

وقال عطاء: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك.

وقيل: لأنه كان بزيّ ملوك مصر، عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب، فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم؟ قالوا قوم من أرض الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار.

فقال: لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي.

قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، إنما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق يقال له يعقوب^(١) نبي من أنبياء الله.

قال: وكم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فذهب أخ لنا معنا إلى البرية، فهلك فيها، وكان أحبنا إلى أبينا.

قال: فكم أنتم هاهنا؟

قالوا: عشرة.

قال: وأين الآخر؟

قالوا: عند أبينا، لأنه أخو الذي هلك لأمه^(٢)، فأبونا يتسلّى به.

قال: فمن يعلم أن الذي تقولون حق؟

قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا أحد [من أهلها]^(٣).

(١) في «أ»: صديق.

(٢) في «ب»: من أمه.

(٣) ساقط من «ب».

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي
 الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ
 ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي
 رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

فقال يوسف: فاتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك .
 قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه .

قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم، فافتروا بينهم، فأصابته القرعة شمعون،
 وكان أحسنهم رأياً في يوسف، فخلفوه عنده. فذلك قوله عز وجل :

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾، أي: حمّل لكل واحد بغيراً بعدتهم، ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾، يعني بنيامين، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ﴾. أي: أتمه ولا أبخس الناس شيئاً، فأزيدكم حمل بغير لأجل أخيك، وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، قال مجاهد: أي خير المضيفين. وكان قد أحسن ضيافتهم .

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِندِي﴾، أي: ليس لكم عندي طعام أكيّله لكم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، أي: لا تقربوا داري [وبلادي] ^(١) بعد ذلك وهو جزم على النبي .

﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾، ما أمرتنا به .
 ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿لِفَتْيَانِهِ﴾ بالالف والنون، وقرأ الباقون: ^(٢) ﴿لِفَتَيْتِهِ﴾
 بالتاء من غير ألف، يريد لغلماناه، وهما لغتان مثل الصبيان والصبية، ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ﴾
 ثمن طعامهم وكانت دراهم .

وقال الضحاك عن ابن عباس: كانت النعال والأدم .

وقيل: كانت ثمانية جرب من سوق المقل. والأول أصح .

﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾، أوعيتهم، وهي جمع رحل، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا﴾، انصرفوا، ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله، قيل: أراد أن يريهم كرمه في رد البضاعة وتقديم

(١) ساقط من «أ» .

(٢) في «أ»: الآخرون .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا
نَكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ
أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٤﴾

الضمان في البر والإحسان، ليكون أدعى لهم إلى العود، لعلهم يعرفونها، أي: كرامتهم علينا .
وقيل: رأى لؤمًا أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه، فردّه عليهم من حيث لا يعلمون
تكرماً .

وقال الكلبي: تخوف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى .
وقيل: فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة نفيًا للغلط ولا يستحلون إمساكها .
﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا﴾، إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً
من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرؤوه مني السلام، وقولوا له:
إِنَّ أَبَانَا يَصْلِي عَلَيْكَ وَيَدْعُو لَكَ بِمَا أُولَيْتَنَا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتنه ملك مصر، وأخبروه بالقصة،
فقال لهم: وَلِمَ أَخْبَرْتُمُوهُ؟ قالوا: إنه أخذنا وقال أنتم جواسيس - حيث كلمناه بلسان العبرانية - وقصّوا
عليه القصة، وقالوا يا أبانا:

﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾، [قال الحسن: معناه يمنع منا الكيل] ^(١) إن لم تحمل أخانا معنا .
وقيل: معناه أعطى باسم كل واحد حملاً ومنع منا الكيل لبنيامين، والمراد بالكيل: الطعام، لأنه
يكال .

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا﴾، بنيامين، ﴿نَكَتْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (يكتل) بالياء، يعني: يكتل
لنفسه كما نحن نكتال، [وقرأ الآخرون: (نكتل) بالنون، يعني: نكتل نحن] ^(٢) وهو الطعام. وقيل: نكتل
له، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ﴾، يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: كيف آمنكم عليه
وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿حَافِظًا﴾ بالألف على
التفسير، كما يقال هو خير رجلاً، وقرأ الآخرون: (حفظاً) بغير ألف على المصدر، يعني: خيركم حفظاً،
يقول: حفظه خير من حفظكم. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي
هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ
كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي
بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾، الذي حملوه من مصر، ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾، ثمن الطعام، ﴿رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾، أي: ماذا نبغي وأي شيء نطلب؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه السلام
إحسان الملك إليهم وحثوه على إرسال بنيامين معهم، فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة، ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا
رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، أي شيء نطلب بالكلام، فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أوفى لنا الكيل وردَّ
علينا الثمن. أرادوا تطيب نفس أبيهم، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: نشترى لهم الطعام فنحمله إليهم. يقال:
مار أهله يَمِيرُ مِيرًا: إذا حمل إليهم الطعام من بلد [إلى بلد آخر] ^(١). ومثله: امتار يمتار امتيارًا. ﴿وَنَحْفَظُ
أَخَانَا﴾ بنيامين، أي: مما تخاف عليه. ﴿وَنَزِدَادُ﴾، على أحمالنا، ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، أي: حمل بعير يكان لنا
من أجله، لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير، ﴿ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾، [أي: ما حملناه قليل لا
يكفيينا وأهملنا. وقيل: معناه نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير] ^(٢) لا مؤنة فيه ولا مشقة.

وقال مجاهد: البعير هاهنا هو الحمار. كيل بعير، أي: حمل حمار، وهي لغة، يقال للحمار: بعير.
وهم كانوا أصحاب حُمُرٍ والأول أصح أنه البعير المعروف.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب، ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ﴾، تعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾، ميثاقاً وعهداً، ﴿مِنْ
اللَّهِ﴾، والعهد الموثق: المؤكّد بالقسم. وقيل: هو المؤكّد [بإشهاد الله] ^(٣) على نفسه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾،
وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام اليمين، ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾، قال مجاهد إلا أن تهلكوا جميعاً.
وقال قتادة: إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك.

وفي القصة: أن الأخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا أشد الجهد، فلم يجد يعقوب بداً من إرسال
بنيامين معهم.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾، / أعطوه عهودهم ^(٤)، ﴿قَالَ﴾، يعني: يعقوب ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ ١٨٤/ب

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: بالشهادة.

(٤) في «ب»: عهودهم.

وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
 ٢٧ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨

وكيل، شاهد. وقيل: حافظ. قال كعب: لما قال يعقوب فالله خير حافظاً، قال الله عز وجل: وعزني
 لأرُدَّنَّ عليك كليهما بعدما تَوَكَّلْتُ عليّ .

﴿وقال﴾، لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده، ﴿يَابْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ
 أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾، وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوةً وامتداداً قامةً، وكانوا
 ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم لئلا يصابوا بالعين، فإن العين حق^(١)، وجاء في الأثر:
 «إِنَّ الْعَيْنَ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقَدْرَ»^(٢) .

وعن إبراهيم النخعي: أنه قال ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرق. والأول أصح .
 ثم قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، معناه: إن كان الله قضى فيكم قضاءً فيصيبكم
 مجتمعين كنتم أو متفرقين، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع من القدر، ﴿إِنْ الْحُكْمُ﴾، ما الحكم، ﴿إِلَّا
 لِلَّهِ﴾، هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعتمدت، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .
 ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: من الأبواب المتفرقة. وقيل: كانت المدينة مدينة
 الفرعاء ولها أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها، ﴿مَا كَانَ يُغْنِي﴾، يدفع ﴿عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾،
 صدق الله تعالى يعقوب فيما قال، ﴿إِلَّا حَاجَةٌ﴾، مراداً، ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾، أشفق عليهم
 إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى الأمر عليه، ﴿وَإِنَّهُ﴾، يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾،
 يعني: كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل، ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾، أي: لتعليمنا إياه. وقيل: إنه لعامل
 بما علم .

(١) انظر تفصيلاً في تفسير القرطبي: ٢٢٦/٩-٢٢٨ .

(٢) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩٠/٧) عن جابر رضي الله عنه، وابن عدي في الكامل عن أبي ذر: ٢٤٠٣/٦، وابن
 حبان في المجروحين: ١٠٧/٢ وقد ضعفه السخاوي في المقاصد الحسنة وقد أشار إليه الذهبي فقال: إنه منكر وحسنه الشيخ الألباني
 في الصحيحة ٢٥٠/٣، وانظر: كشف الخفاء: ٩٩/٢-١٠٠ .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

قال سفيان: من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً. وقيل: وإنه لذو حفظ لما علمناه .
﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ما يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. وقال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما أهم الله أوليائه .

قوله عز وجل : ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾، قالوا هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم وأكرمهم^(١)، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيداً، فأجلسه معه على مائدته، فجعل يؤاكله فلماً كان الليل أمر لهم [بمثل ذلك]^(٢) وقال: لينم كل أخوين منكم على مثال، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي، فنام معه، فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ربحه حتى أصبح، وجعل روبين يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح، قال لهم إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمه إليّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام، وأنزل أخاه لأمه معه، فذلك قوله تعالى :

﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، أي: ضم إليه أخاه فلما خلا به قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المشكل، وذلك أنه لما ولد هلكت أمه. قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوى، فقال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين، [قال: فهل لك من أخ لأمك، قال: كان لي أخ فهلك، قال يوسف]^(٣): أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، فقال بنيامين: ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه^(٤)، وقال له: ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، أي: لا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، ولا تعلمهم شيئاً مما أعلمتك، ثم أوفى يوسف لاختوته الكيل، وحمل لهم بعيراً بعيراً، ولبنيامين بعيراً باسمه، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين .

(١) في «ب» فأكرم منواهم .

(٢) في «ب»: بمثل .

والمثل هي: القُرْش، واحدها مثال .

(٣) ما بين القوسين من المطبوع، وهي زيادة تناسب السياق .

(٤) هذه التفصيلات في لقاء يوسف لأخيه أخرجها الطبري في التاريخ: ٣٥٢/١ ولم يقم عليها دليل، وظاهر الآيات أنه اختلج بأخيه وأطلعهم على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معزراً مكرماً معظماً .

انظر: ابن كثير: ٤٨٦/٢ .

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ
 إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ
 الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٨﴾

قال السدي: جعلت السقاية في رحل أخيه، والأخ لا يشعر .

وقال كعب: لما قال له يوسف إني أنا أخوك، قال بنيامين: أنا لا أفارقك، فقال له يوسف: قد علمت اغتنام والذي بي وإذا حبستك ازداد غمه ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى مالا يحمد^(١)، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، فإني لا أفارقك، قال: فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة، ليهيأ لي ردك بعد تسريحك. قال: فافعل فذلك قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾، وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها.

قال ابن عباس: كانت من زبرجد .

وقال ابن إسحاق: كانت من فضة. وقيل: من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر، جعلها يوسف مكيالاً لثلاث كال بغيرها، وكان يشرب منها .

والسقاية والصواع واحد، وجعلت في وعاء طعام بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً .

وقيل: حتى خرجوا من العمارة، ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم .

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، نادى منادٍ، ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾، وهي القافلة التي فيها الأحمال. قال مجاهد: كانت العير حميراً. وقال الفراء: كانوا أصحاب إبل. ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، قفوا. قيل: قالوه من غير أمر يوسف. وقيل: قالوه بأمره، وكان هفوة منه. وقيل: قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه، فلما انتهى إليهم الرسول، قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلتكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولا ننهيها غيرها. فذلك قوله عز وجل :

﴿قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾، عطفوا على المؤذن وأصحابه، ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾، ما الذي ضل عنكم.

والفقدان: ضد الوجد .

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، من الطعام، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، كفيل،

يقوله المؤذن .

(١) في «ب»: يحمل .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا
فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ
كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا
مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿قالوا﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿تالله﴾ أي: والله، وخصت هذه الكلمة بأن أبدلت الواو فيها بالتاء في اليمين دون سائر أسماء الله تعالى. ﴿لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾، لنسرق في أرض مصر .
فإن قيل: كيف قالوا لقد علمتم؟ ومن أين علموا ذلك؟ .

قيل: قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، فإننا منذ قطعنا هذا الطريق لم نرأ أحداً شيئاً
فاسألوا عتاً من مررنا به، هل ضررنا أحداً .

وقيل: لأنهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم، قالوا: فلو كنا سارقين ما رددناها .
وقيل: قالوا ذلك لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وكانوا إذا دخلوا مصر كمموا
أفواه دوابهم لكيلا تتناول شيئاً من حروث الناس .
﴿وما كنا سارقين﴾ .

﴿قالوا﴾، يعني: المناادي وأصحابه ﴿فما جزاؤه﴾، أي: جزاء السارق، ﴿إن كنتم كاذبين﴾، في
قولكم «وما كنا سارقين» .

﴿قالوا﴾، [يعني: إخوة يوسف] ^(١)، ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾، أي: فالسارق
جزاؤه أن يسلم السارق بسرقة إلى المسروق منه فيسترقه سنة، وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم
السارق، وكان حكم مصر أن يضرب السارق / ويغرم ضعف قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس ١٨٥/أ
أخاه عنده، فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم .

﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾، الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير .

فقال الرسول عند ذلك: لا بد من تفتيش أمتعتكم .

فأخذ في تفتيشها. وروي أنه ردهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه .

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾، لإزالة التهمة، ﴿قبل وعاء أخيه﴾، فكان يفتش أوعيتهم واحداً واحداً. قال

(١) زيادة من «ب» .

قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تأثماً مما قذفهم به حتى إذا لم يبق إلا رحل بنيامين، قال: ما أظن هذا أخذه، فقال إخوته: والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه. فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجْهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾، وإنما أنث الكناية في قوله «ثم استخرجها» والصَّوَّاعُ مذكر، بدليل قوله: «ولن جاء به حمل بغير»؛ لأنه ردَّ الكناية هاهنا إلى السقاية.

وقيل: الصَّوَّاعُ يذكر ويؤنث.

فلما أخرج الصَّوَّاعُ من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل؟ ما يزال لنا منكم البلاء، متى أخذت هذا الصَّوَّاعُ؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضع هذا الصَّوَّاعُ في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكُم، فأخذوا بنيامين رقيقاً^(١).

وقيل: إن ذلك الرجل أخذ برقبته وردَّه إلى يوسف كما يرد^(٢) السراق.

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، والكيد هاهنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم. وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف: «فيكيذوا لك كيداً»، فكدنا ليوسف في أمرهم.

والكيد من الخلق: الحيلة، ومن الله تعالى التدبير بالحق.

وقيل: كدنا: ألهمنا. وقيل: دبرنا. وقيل: أردنا.

ومعناه: صنعنا ليوسف حتى ضم أخاه إلى نفسه، وحال بينه وبين إخوته.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ فيضمه إلى نفسه، ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾، أي: في حكمه. قاله قتادة. وقال ابن عباس: في سلطانه. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، يعني: إن يوسف لم يكن يتمكن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كدنا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجرى على السنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَأٍ﴾، بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته.

وقرأ يعقوب: ﴿يَرْفَعُ﴾ و﴿يَشَاءُ﴾ بالياء فيهما [وإضافة درجات إلى ﴿مِنْ﴾ في هذه السورة. والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالى، وقد تقدم ذكره في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: يرفع الله درجات من يشاء. وقرأ الباقر بالنون فيهما، إلا أن الكوفيين قرؤوا: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ بالتنوين، ومن سواهم بالإضافة، أي: نرفع به نحن، والواقع أيضاً هو الله تعالى^(٣).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٦/٢٠٠، تاريخ الطبري: ٣٥٥/١.

(٢) في «أ»: يرق.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ ۖ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾

﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى. فالله تعالى فوق كل عالم.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، يريدون أخاً له من أمه، يعني: يوسف. واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف عليه السلام، فقال سعيد بن جبير وقتادة: كان لجده، أبي أمه، صنم يعبد، فأخذه سراً، أو كسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد^(١). وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يوماً، فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل. وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاه سائلاً. وقال وهب: كان يجبأ الطعام من المائدة للفقراء^(٢).

وذكر محمد بن إسحاق: أن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق، بعد موت أمه راحيل، فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً، فلما ترعرع وقعت حبة يعقوب عليه، فأثاها وقال: يا أختاه سلمى إلي يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: لا والله، فقال: والله ما أنا بتاركه، فقالت: دعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه، ففعل ذلك، فعمدت إلى منطقة لإسحاق كانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت عندها لأنها كانت أكبر ولد لإسحاق، فحزمت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لسلم لي، فقال يعقوب: إن كان فعل ذلك فهو سلم لك^(٣)، فأمسكته حتى ماتت، فذلك الذي قال إخوة يوسف: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٤).

﴿فأسرها﴾، أضرها ﴿يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾، وإنما أتت الكناية لأنه عني بها الكلمة، وهي قوله: ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾، ذكرها سراً في نفسه ولم يصرح بها، يريد أنتم شر مكاناً^(٥).

(١) أخرجه عنهما ابن جرير في التفسير: ١٩٥/١٦، وانظر: الدر المنثور: ٥٦٤/٤.

(٢) انظر: الدر المنثور: ٥٦٤/٤.

(٣) السلم (بفتح الحاء): انقياد المدعن المستخذي، كالأسير الذي لا يتمتع من أمره، يقال: «أخذه سلماً» إذا أسره من غير حرب، فجاء به منقاداً لا يتمتع.

انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: ١٩٦/١٦.

(٤) أخرجه الطبري: ١٩٦/١٦-١٩٧، وعزاه السيوطي لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم. (الدر المنثور: ٥٦٣/٤).

هذا، ولم يرد نص ثابت عن النبي ﷺ في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوها بها، والله أعلم بالذي كان.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ^ط إِنَّا نَرَىكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ^ط إِنَّا
إِذَا لَظَلِمُونَ ﴿٧٩﴾

أي: منزلة عند الله ممن ربيتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف، لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية، وخيانتكم^(١) حقيقة، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، تقولون .

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾. وفي القصة أنهم غضبوا غضباً شديداً لهذه الحالة، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقى كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها، وكان مع هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه . وقيل: كان هذا صفة شمعون من ولد يعقوب .

وروي أنه قال لإخوته: كم عدد الأسواق بمصر؟ فقالوا عشرة، فقال: اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك، أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فقال روبيل: لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقي بمصر امرأة حامل إلا ألقى ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابن له صغير: قم إلى جنب روبيل فمسه. وروي: خذ بيده فانتني به، فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه. فقال روبيل: إن هاهنا لبرراً من بزر^(٢) يعقوب، فقال يوسف: من يعقوب؟ .

وروي أنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيه، فوقع على الأرض وقال: أنتم معشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشد منكم؟

فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا، وقالوا: يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً يحبه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾، بدلاً منه، ﴿إِنَّا نُرَاكَ مِنَ الْإِحْسَانِ﴾، في أفعالك^(٣). وقيل: من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة. وقيل: يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين .

﴿قَالَ﴾، يوسف، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله، ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾، ولم يقل إلا من سرق تحرزاً من الكذب، ﴿إِنَّا إِذَا لَظَلِمُونَ﴾، إن أخذنا بريئاً بمجرم .

(١) في «ب»: جنائيتكم .

(٢) البرر (بفتح فسكون): الولد، يقال: ما أكثر برره! أي: ولده .

(٣) أخرجه الطبري مطولاً في تاريخه: ٣٥٥-٣٥٦، ومختصراً في التفسير: ٢٠٠/١٦ - ٢٠١، وعزاه السيوطي في الدر: ٥٦٥/٤ .

فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَالَصُواِ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ﴾، أي: أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه. وقال أبو عبيدة: استئاسوا استيقنوا أن الأخ لا يُرد إليهم. ﴿خَالَصُوا نَجِيًّا﴾، أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم.

والنجي يصلح للجماعة كما قال هاهنا ويصلح للواحد كقوله: «وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا» (مريم - ٥٢) /، وإنما جاز للواحد والجمع لأنه مصدر جعل نعتاً كالعدل والزور، ومثله النجوى يكون اسماً ومصدراً، قال الله تعالى: «وَإِذْ هُمْ نَجْوَى» (الإسراء - ٤٧)، أي: متناجون. وقال: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ» (المجادلة - ٧)، وقال في المصدر «إِنَّمَا النَجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ» (المجادلة - ١٠).

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، يعني: في العقل والعلم لا في السن.

قال ابن عباس والكلبي: هو يهوذا وهو أعقلهم.

وقال مجاهد: هو شمعون، وكانت له الرئاسة على إخوته.

وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل، وكان أكبرهم في السن، وهو الذي نهى الإخوة عن قتل يوسف (١).

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا﴾، عهداً. ﴿مِنْ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ﴾ قصرتم ﴿فِي يَوْسُفَ﴾.

واختلفوا في محل ﴿مَا﴾؛ قيل: هو نصب بإيقاع العلم عليه، يعني: ألم تعلموا من قبل تفريطكم في يوسف.

(١) ذكر هذه الروايات: السيوطي في الدر المنثور: ٥٦٥/٤، والطبري في التفسير: ٢٠٦/١٦-٢٠٨، وقال مرجحاً أنه «روبييل»: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: عني بقوله «قال كبيرهم» روبيل، لإجماع جميعهم على أنه كان أكبرهم سناً. ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم: «فلان كبير القوم» مطلقاً بغير وصل، إلا أحد معنيين: إما في الرئاسة عليهم والسؤدد، وإما في السن. فأما في العقل؛ فإنهم إذا أرادوا ذلك وصلوه فقالوا: «هو كبيرهم في العقل». فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك، فلا يفهم إلا ما ذكرت.

وقد قال أهل التأويل: لم يكن لشمعون = وإن كان من العلم والعقل بالمكان الذي جعله الله به = على إخوته رئاسة وسؤدد، فيعلم بذلك أنه عني بقوله: «قال كبيرهم». فإذا كان ذلك كذلك، فلم يبق إلا الوجه الآخر، وهو الكبير في السن. وقد قال الذين ذكرنا جميعاً: «روبييل كان أكبرهم سناً» فصح بذلك القول الذي اخترناه.

أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا
وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

[وقيل: وهو في محل الرفع على الابتداء وتم الكلام عند قوله: ﴿من الله﴾ ثم قال ﴿ومن قبل﴾ هذا تفريطكم في يوسف] ^(١).

وقيل: ﴿ما﴾ صلة. أي: ومن قبل هذا فرطتم في يوسف.

﴿فَلَنْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ﴾، التي أنا بها وهي أرض مصر ﴿حتى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾، بالخروج منها ويدعوني، ﴿أو يحكم الله لي﴾، برّد أخي إليّ، أو بخروجي وترك أخي.

وقيل: أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأسترد أخي.

﴿وهو خير الحاكمين﴾، أعدل من فصل بين الناس.

﴿ارجعوا إلى أبيكم﴾، يقوله الأخ المحتبس [بمصر] ^(٢) لإخوته ارجعوا إلى أبيكم، ﴿فقولوا يا أبانا إن ابْنَكَ﴾، بنيامين، ﴿سَرَقَ﴾.

قرأ ابن عباس والضحاك سُرّق بضم السين وكسر الراء وتشديدها، يعني: نُسب إلى السرقة، كما يقال خُونته أي نسبته إلى الخيانة.

﴿وما شهدنا إِلَّا بما علمنا﴾ [يعني: ما قلنا هذا إِلَّا بما علمنا] ^(٣) فإنّا رأينا إخراج الصاع من متاعه.

وقيل: معناه: وما شهدنا، أي: ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إِلَّا بما علمنا، وليست هذه شهادة منا إنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم.

وقيل: قال لهم يعقوب عليه السلام: ما يدري هذا الرجل أن السارق يُؤخذ بسرقة إِلَّا بقولكم، فقالوا: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إِلَّا بما علمنا، وكان الحكم ذلك عند الأنبياء؛ يعقوب وبنيه.

﴿وما كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾، قال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم إن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا إليه، وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل.

وعن ابن عباس: ما كنا ليلته ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين.

وقال عكرمة: وما كنا للغيب حافظين فلعلها دُسَّتْ بالليل في رحله.

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «أ».

(٣) ساقط من «ب».

وَسَّالِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ
 بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا
 إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْضَّتْ
 عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾، أي: أهل القرية وهي مصر. قال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر. ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾، أي: القافلة التي كنا فيها. وكان أصحابهم قوم من كنعان من جيران يعقوب. قال ابن إسحاق: عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند أبيهم لما كانوا صنعوا في أمر يوسف، فأمرهم أن يقولوا هذا لأبيهم. ﴿وإنا لصادقون﴾.

فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه، وحبس أخاه مع علمه بشدة وجد أبيه عليه، وفيه معنى العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة؟ قيل: قد أكثر الناس فيه، والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى، أمره بذلك، ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويلحقه في الدرجة بآبائه الماضين. وقيل: إنه لم يظهر نفسه لإخوته لأنه لم يأمن أن يدبروا في أمره تدبيراً فيكتموه عن أبيه. والأول أصح. ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾، زينت، ﴿أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وفيه اختصار معناه: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم، فقال يعقوب: (بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا)، أي: حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، يعني: يوسف، وبنيامين، وأخاهم المقيم بمصر. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، يحزني ووجدي على فقدهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾، في تدبير خلقه. قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾، وذلك أن يعقوب عليه السلام لما بلغه خبر بنيامين تتألم حزنه وبلغ جهده، وتهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم، ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى﴾، يا حزناء، ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾، والأسف أشد الحزن، ﴿وَأَبْضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، غمي بصره. قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يثته. وقال قتادة: يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيراً. قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاماً لا تحف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ
 ٨٥ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿قالوا﴾، يعني: أولاد يعقوب، ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُ تَذَكَّرُ يَوْسُفَ﴾، أي: لا تزال تذكر يوسف، لا تفتقر من حبه، و﴿لا﴾ محذوفة من قوله ﴿تَفْتَوُ﴾ يقال: ما فتىء يفعل كذا أي: مازال، كقول امرئ القيس: قُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَائِمًا * وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(١) أي: لا أبرح .

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾، قال ابن عباس: دفناً^(٢) .
 وقال مجاهد: الحرَض ما دون الموت، يعني: قريباً من الموت .
 وقال ابن إسحاق: فاسداً لا عقل لك .
 والحرَض: الذي فسد جسمه وعقله . وقيل: ذائباً من الهم .
 ومعنى الآية: حتى تكون دَنِفَ الجسم مخبول العقل .

وأصل الحرَض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهرم، أو العشق^(٣)، يقال: رجل حَرَضٌ وامرأة حَرَضٌ، ورجلان وامرأتان حَرَضٌ، ورجال ونساء كذلك، يستوي فيه الواحد والإثنان والجمع والمذكر والمؤنث، لأنه مصدر وُضع موضع الاسم^(٤) . ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، أي: من الميتين :
 ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عند ذلك لما رأى غِلظَتَهُم ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، والْبَثُّ: أشدُّ الحزن، سمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يثبته أي يظهره، قال الحسن: بَثِّي أي: حاجتي .
 ويروى أنه دخل على يعقوب جارٌ له وقال: يا يعقوب مالي أراك قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال: هشمي وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب

(١) البيت في ديوان امرئ القيس ص (٣٢) واستشهد به الطبري في: ٤/٤٢٥، ١٦/٢٢١، وابن قتيبة في المشكل ص (١٧٤) . وفيها: قاعداً بدل قائماً .

(٢) في «ب»: دفناً .

(٣) ومنه قول الفرّجّي :

إِنِّي انْزَرُ لِحْ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي . حَتَّى يَلِيْتُ، وَحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ
 يعني بقوله «فأحرضني»: أذابني فتركني مُحرَضاً .
 فإذا وصف بهذا اللفظ ثني وجمع، وذَكَرَ وأُنْثَى .

(٤) ووَحَّد «حَرَض» بكل حال ولم يدخله التانيث؛ لأنه مصدر، فإذا أخرج على «فاعل» على تقدير الأسماء لزمه ما يلزم الأسماء من التثنية والجمع والتذكير والتانيث .
 انظر: الطبري: ١٦/٢٢٢ .

أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي، فقال: قد غفرتها لك، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله^(١).

وروي أنه قيل له: يايعقوب ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك؟

قال: أذهب بصري بكائي على يوسف، وقوس ظهري حزني على أخيه؟

فأوحى الله إليه: أتشكوني؟ فوعزتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني.

فعند ذلك قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي لو كنا ميتين

لأخرجتهما لك، وإنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة / فقام بيايكم مسكين فلم تطعموه منها شيء، ١٨٦/أ وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين فاصنع طعاماً وادع إليه المساكين.

فصنع طعاماً ثم قال: من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب^(٢).

وروي أنه كان بعد ذلك إذا تغدى أمر من ينادي: من أراد الغداء فليأت يعقوب، وإذا أفطر أمر

من ينادي: من أراد أن يفطر فليأت يعقوب، فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين^(٣).

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أندري لِمَ عاقبتك وحبست عنك يوسف

ثمانين سنة؟ قال: لا، يا إلهي، قال: لأنك قد شويت عناقاً وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه.

وروي: أن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عاجلاً بين يدي أمه وهي تخور^(٤).

وقال وهب والسدي وغيرهما: أتى جبريل يوسف عليه السلام في السجن فقال: هل تعرفني أيها

الصديق؟

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٢٢٧/١٦-٢٢٨ عن طلحة بن مصرف اليامي موقوفاً عليه، (وفي الأصل الإيامي) والمثبت من تهذيب التهذيب، فقد ترجم له وقال: كوفي، فاضل قارئ، من الخامسة.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک عن أنس بن مالك: ٣٤٨/٢، وقال: «هكذا في سماعي بخط يد حفص بن عمر بن الزبير. وأظن «الزبير» وهما من الراوي، فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، ابن أخي أنس بن مالك، فإن كان كذلك فالحديث صحيح.

ثم قال: وقد أخرج الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم هذا الحديث في التفسير مرسلاً. وساقه الميثمي من رواية أنس ثم قال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي البصري وهو ضعيف جداً».

انظر: مجمع الزوائد: (٤٠/٧).

وذكره ابن كثير في التفسير: (٤٨٨-٤٨٩) من رواية ابن أبي حاتم: وقال: «هذا حديث غريب فيه نكارة».

وزاد السيوطي نسبته لابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان.

انظر: الدر المنثور: ٥٧٤/٤.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٥/٤.

قال: أرى صورة طاهرة وريحاً طيبة .

قال: إني رسول رب العالمين وأنا الروح الأمين .

قال: فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين [وأمين رب العالمين]؟^(١)

قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله تعالى يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأراضين، وأن الله تعالى قد طهر بك السجن وما حوله يا طهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين .

قال: وكيف لي باسم الصديقين وتعديني من المخلصين الطاهرين، وقد أدخلت مدخل المذنبين وسميت باسم الفاسقين؟

قال جبريل: لأنه لم يفتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربك لذلك سماك الله في الصديقين، وعدك من المخلصين، وألحقك بآبائك الصالحين .

قال يوسف: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟

قال: نعم، وهبه الله الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم .

قال: فكم قدر حزنه؟

قال: حزن سبعين ثكلى .

قال: فما زاد له من الأجر يا جبريل؟

قال: أجر مائة شهيد .

قال: أفتراني لاقية؟

قال: نعم، فطابت نفس يوسف، وقال: ما أبالي بما لقيت إن رأيته^(٢) .

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أعلم من حياة يوسف مالا تعلمون .

رُوي أن ملك الموت زار يعقوب فقال له: أيها الملك الطيب ريحه، الحسن صورته، هل قبضت روح ولدي في الأرواح؟ قال: لا، فسكن يعقوب وطمع في رؤيته، وقال: وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة وإني وأنتم سنسجد له .

وقال السدي: لما أخبره ولده بسيرة الملك أحسّت نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف، فقال:

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ^(٣) .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) أخرجه عنهما الطبري في التفسير: ٢٢٩/١٦-٢٣١ .

وهب يكثر من الروايات الإسرائيلية ورواية السدي ضعيفة .

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢٥٣/٩ . ورواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي وهو ضعيف جداً .

انظر: مجمع الزوائد ٤٠/٧ .

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَاةٍ فَاؤْفَ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

وروي عن عبدالله بن يزيد بن أبي فروة: أن يعقوب عليه السلام كتب كتاباً إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله^(١) بن إبراهيم خليل الله [إلى ملك مصر]^(٢) أما بعد: فإننا أهل بيت وكُلُّ بَنَا الْبَلَاءِ؛ أما جدي إبراهيم فشَدَّتْ يده ورجلاه وألقي في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشَدَّتْ يده ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناى [من البكاء عليه]^(٣)، ثم كان لي ابن وكان أخاه لأمه، وكنت أتسلى به، وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإننا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل صبره، فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالى^(٤).

قوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾، تخبروا واطلبوا الخير، ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، والتحسس بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر، إلا أن التحسس بالحاء في الخير وبالجيم في الشر، والتحسس هو طلب الشيء بالحاسة. قال ابن عباس: معناه التمسوا ﴿وَلَا تَأْيَسُوا﴾، ولا تقنطوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾، أي: من رحمة الله، وقيل: من فرج الله. ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، وفيه إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على يوسف عليه السلام. ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾، أي: الشدة والجوع، ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾، أي: قليلة رديئة كاسدة، لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها، وأصل الإجزاء: السوق والدفع. وقيل: للبضاعة مزجاة لأنها غير نافقة، وإنما تجوز على دفع من آخذها.

(١) انظر التعليق رقم (١) ص (٢١٥).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) ساقط من «ب».

أخرجه الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه، وهو ضعيف. انظر: الدر المنثور ٥٧٩/٤.

واختلفوا فيها، فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفاً^(١).

وقيل: كانت تَحْلَقُ الغرائر والحبال^(٢).

وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط.

وقال الكلبي ومقاتل: كانت الحبة الخضراء.

وقيل: كانت من سوق المقل^(٣).

وقيل: كانت الأدم والنعال^(٤).

﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَئِيلَ﴾، أي: أعطنا ما كنت تعطينا قَبْلُ بالثمن الجيد الوافي.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، أي: تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والردىء ولا تنقصنا. هذا قول أكثر

المفسرين.

وقال ابن جريج والضحاك: وتصدق علينا برد أخينا إلينا^(٥).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي﴾، يشب، ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

وقال الضحاك: لم يقولوا إن الله يجزيك؛ لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن.

وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا عليه الصلاة

والسلام؟ فقال سفيان: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾^(٦)، يريد أن

الصدقة كانت حلالاً لهم.

وروي أن الحسن سمع رجلاً يقول: اللهم تصدق علي، فقال: إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق من

يبغي الثواب، قل: اللهم أعطني أو تفضل علي^(٧).

(١) الدراهم التي ظهر فيها غش ورداءة.

(٢) «الْحَلَقُ»: البالي. و«الغرائر»: جمع غرارة، وهي وعاء من خيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.

انظر: المعجم الوسيط: ٦٤٨/٢.

(٣) المقل: حَمْلُ الدوم؛ والدوم يشبه النخل.

(٤) قال الطبري في معنى «وجئنا ببضاعة مزجاة»: بدراهم، أو ثمن لا يجوز في ثمن الطعام إلا لمن يتجاوز فيها... واختلف أهل التأويل في

البيان عن تأويل ذلك، وإن كانت معاني بيانهم متقاربة. التفسير: ٢٣٤/١٦، ٢٣٥.

(٥) قال الطبري تعقيماً على ما ذكره ابن جريج: وهذا القول وإن كان قولاً له وجه، فليس بالقول المختار... لأن «الصدقة» في متعارف

العرب إنما هي: إعطاء الرجل ذا حاجة بعض أملاكه ابتغاء ثواب الله عليه، وإن كان كل معروف صدقة. فتوجيه تأويل كلام الله إلى

الأغلب من معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه = أولى وأحرى.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٤٢/١٦. وردّه ابن عطية بحديث (نحن معاشر الأنبياء لا تحمل لنا الصدقة) انظر: المحرر الوجيز: ٦٣/٨.

(٧) ويمثله قال مجاهد، فقد سئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدّق علي؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبغي الثواب.

انظر: الطبري: ٢٤٣/١٦، الدر المنثور: ٥٧٧/٤.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٦﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾، اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، قال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة فافرض دمه^(١)، فباح بالذي كان يكتُم منهم^(٢).

وقال الكلبي: إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن ذعر قال إني وجدت غلاماً في بئر من حالة كيت وكيت، فابتعته بكذا درهماً فقالوا: أيها الملك، نحن بعنا ذلك الغلام، فغاض يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يحزن ويكي لفقد واحد منا حتى كف بصره، فكيف إذا أتاها قتل بنيه كلهم؟ ثم قالوا له: إن فعلت ذلك فابعث بأمّعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا، فذلك حين رحّمهم وبكى، وقال ذلك القول^(٣).

وقيل: قاله حين قرأ كتاب أبيه إليه فلم يتمالك البكاء /، فقال: هل علمتُم ما فعلتُم بيوسف ١٨٦/ب وأخيه إذ فرقتم بينهما، وصنعتُم ما صنعتُم إذ أنتم جاهلون بما يؤل إليه أمر يوسف؟ وقيل: مذبنون وعاصون. وقال الحسن: إذ أنتم شباب ومعكم جهل الشباب.

فإن قيل: كيف قال ما فعلتُم بيوسف وأخيه، وما كان منهم إلى أخيه، وهم لم يسعوا في حبسه؟ قيل: قد قالوا له في الضاع ما يزال لنا بلاء، وقيل: ما رأينا منكم يا بني راحيل خيراً. وقيل: لما كانا من أم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف.

﴿قَالُوا أَأَنْتَ أَنْتَ يُوسُفُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر: ﴿إِنَّكَ﴾ على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستفهام.

قال ابن إسحاق: كان يوسف يتكلم من وراء ستر فلما قال يوسف: هل علمتُم ما فعلتُم، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب، فعرفوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لما قال هذا القول تبسم يوسف فأروا ثنياه كاللؤلؤ المنظوم فشبّهوه بيوسف، فقالوا استفهاماً أنتك لأنت يوسف؟.

(١) ارفض الدمع ورفض: نزل وسال.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ٢٤٣/١٦.

(٣) رواه أبو صالح عن ابن عباس: انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٩/٤.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

وقال عطاء عن ابن عباس: إن أخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها شبه الشامة، فعرفوه فقالوا: أأنك لأنت يوسف .
وقيل: قالوه على التوهم حتى، ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾^(١)، بنيامين، ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أنعم علينا بأن جمع بيننا .

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾، بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، ﴿وَيَصْبِرْ﴾، عما حرم الله عز وجل عليه. قال ابن عباس: يتقي الزنا ويصبر عن العزوبة. وقال مجاهد: يتقي المعصية ويصبر على السجن، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿قَالُوا﴾، معذرين، ﴿ثَالِثُ لَقَدْ أَثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: اختارك الله وفضلك علينا، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، أي: وما كنا في صنيعنا بك إلا مخطئين مذنبين. يقال: تخطيء خطأ إذا تعمد، وأخطأ إذا كان غير متعمد^(٢) .

﴿قَالَ﴾، يوسف وكان حليماً، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، لا تعيير عليكم اليوم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

فلما عرفهم يوسف نفسه سألمهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهب عيناه فأعطاهم قميصه، وقال :

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، أي: يعد مبصراً. وقيل: يأتيني بصيراً لأنه كان قد دعاه .

(١) راجع في هذه الأقوال: زاد المسير: ٢٨١/٤ .

(٢) قال الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن» ص (١٥١): «الخطأ: العدول عن الجهة، وذلك أضرَبَ : أحدها: أن يريد غير ما تحسن إرادته، فيفعله، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، يقال: تخطيء بخطأً يخطئ خطأً وخطأةً، قال تعالى: (وإن كنا لخطاطئين) .

والثاني: أن يريد ما تحسن فعله، لكن يقع منه خلاف ما يريد، فيقال: أخطأ إخطأةً فهو مُخطئٌ. وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) ..

والثالث: أن يريد مالا يحسن فعله ويتفق منه خلافه، فهذا مخطيء في الإرادة ومصيب في الفعل، فهو مذموم بقصده، وغير محمود على فعله...» .

وانظر: تفسير الطبري: ١١٠/٢، ١٣٤/٦، ٢٤٥/١٦ .

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾

قال الحسن: لم يعلم أنه يعود بصيراً إلا بعد أن أعلمه الله عز وجل .

وقال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة .

وعن مجاهد قال: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه، وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه جرد من ثيابه وألقي في النار عرياناً، فأثاه جبريل بقميص من حرير الجنة، فألبسه إياه فكان ذلك القميص عند إبراهيم عليه السلام، فلما مات ورثه إسحاق، فلما مات ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة، وسدّ رأسها، وعلقها في عنقه، لما كان يخاف عليه من العين، فكان لا يفارقه. فلما ألقى في البئر عرياناً جاءه جبريل عليه السلام وعلى يوسف ذلك التعويذ، فأخرج القميص منه وألبسه إياه، ففي هذا الوقت جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام وقال: أرسل ذلك القميص، فإن فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفي، فدفن يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال: ألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١) .

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾، أي خرجت من عريش مصر متوجهة إلى كنعان ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾، أي:

قال يعقوب لولد ولده، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ .

روي أن ريح الصبا استأذنت رها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير .

قال مجاهد: أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام. وحكي عن ابن عباس: من مسيرة

ثمان^(٢) ليال .

وقال الحسن: كان بينهما ثمانون فرسخاً^(٣) .

وقيل: هبت ريح فصفت القميص فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فلذلك قال إني لأجد ريح يوسف .

﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، تسفهوني، وعن ابن عباس: تُجْهَلُونِي. وقال الضحاك: تهرمون فتقولون شيخ

كبير قد خرف وذهب عقله. وقيل: تضعفوني. وقال أبو عبيدة: تضللوني. وأصل الفَنْد: الفساد .

(١) عَقَّب ابن عطية على هذه الروايات، فقال: «وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر: أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بُعد، ولو كان من قُصَص الجنة لما كان في ذلك غرابة، ولوجده كلُّ أحد» .

انظر: المحرر الوجيز: (٧٢-٧١/٨) .

(٢) في «ب»: ثلاث .

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٢١٦/١ .

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا
أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿قَالُوا﴾، يعني: أولاد أولاده، ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، أي: خطئك القديم من ذكر يوسف لا تنساه، والضلال هو الذهاب عن طريق الصواب، فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره .

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾، وهو المبشر عن يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير . قال ابن عباس: هو يهوذا .

قال [السدي: قال يهوذا] (١): أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأخبره أن ولده حي فأفرحه كما أحزنته (٢) .

قال ابن عباس: حملة يهوذا وخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً . وقيل: البشير مالك بن ذعر .

﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾، يعني: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، ﴿فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾. فعاد بصيراً بعدما كان عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن .

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا . ورؤي أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة (٣) .

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، مذنبين .

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، قال أكثر المفسرين: أخر الدعاء إلى السَّحَر، وهو الوقت الذي

(١) ساقط من (أ) .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٩/١٦ .

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير: (٢٨٦/٤): رواه يحيى بن يمان عن سفيان. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥٨٣/٤) لابن أبي حاتم عن الحسن موقوفاً عليه .

يقول الله تعالى: «هل من داع فاستجيب له»^(١) فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لأولادي ما أتوا إلى أخيه يوسف، فأوحى الله تعالى إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين . وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: سوف استغفر لكم [ربي يعني ليلة الجمعة]^(٢) . قال وهب: كان يستغفر لهم كل^(٣) ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة . وقال طاووس: أخر الدعاء إلى السَّجَر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء^(٤) . وعن الشعبي قال: سوف أستغفر لكم ربي، قال: أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفر لكم ربي^(٥) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

روي أن يوسف كان / قد بعث مع البشير إلى يعقوب مائتي راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب ١٨٧ أ وأهله وأولاده، فتهباً يعقوب للخروج إلى مصر، فخرجوا وهم اثنان وسبعون من بين رجل وامرأة. وقال مسروق: كانوا ثلاثة وتسعين^(٦)، فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذي فوّه فخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجنود وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر، قال: لا هذا ابنك، فلما دنا كل واحد من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان^(٧) . وروي أنهما نزلا وتعانقا .

وقال الثوري: لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة الصحيح: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» .

أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل: ٢٩/٣، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، برقم (٧٥٨): ٥٢١/١ .

(٢) أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً: يقول حتى تأتي ليلة الجمعة. وهو قول أخي يعقوب لبيه، التفسير: ٢٦٢/١٦ وانظر تحريجه في تعليق محمود شاكر عليه .

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: (٢١٧/١): «وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما» .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٣/٩ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) في «ب»: ثلاثة وسبعين .

(٧) غالب هذه الأخبار متلقة عن أهل الكتاب. انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٢١٧/١-٢١٨ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ

يوسف: يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يا بني ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك^(١).

فلذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ﴾، أي: ضم إليه، ﴿أَبَوَيْهِ﴾، قال أكثر المفسرين: هو أبوه وخالته ليا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين^(٢). وقال الحسن: هو أبوه وأمه، وكانت حية^(٣).

وفي بعض التفاسير أن الله عز وجل أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر^(٤). ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾، فإن قيل: فقد قال فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه فكيف قال ادخلوا مصر [إن شاء الله آمين]^(٥) بعدما أخبر أنهم دخلوها؟ وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول؟

قيل: إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقاهم قبل دخولهم مصر. وفي الآية تقديم وتأخير، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله^(٦).

(١) انظر: البحر المحيط: ٣٤٧/٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه، والطبري عن السدي.

انظر: الدر المنثور: ٥٨٧/٤-٥٨٨، الطبري: ٢٦٧/١٦.

(٣) أخرجه الطبري عن ابن إسحاق، وقال هو أولى بالصواب «لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في «أبوين» إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها، فيسلم لها حيثيذ». انظر: تفسير الطبري: ٢٦٧/١٦، المحرر الوجيز لابن عطية ٧٩/٨.

(٤) انظر: البحر المحيط: ٣٤٧/٥.

وقال الآلوسي: ٥٧/١٣: «والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثله لاشتهر».

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٦) فصل الطبري ذلك فقال: «... اختلف أهل التأويل في ذلك: فقال بعضهم: إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه قبل دخول مصر. قالوا: وذلك أن يوسف تلقى أباه تركة له قبل أن يدخل مصر، فأواه إليه، ثم قال له ولين معه: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمين) بها قبل الدخول... وهو قول السدي».

وقال آخرون: بل قوله (إن شاء الله) استثناء من قول يعقوب لبنيه: (أستغفر لكم ربي). قال: وهو من المؤخر الذي معناه التقديم. قالوا: وإنما معنى الكلام: قال: أستغفر لكم ربي إن شاء الله، إنه هو الغفور الرحيم، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، وقال: ادخلوا مصر، ورفع أبويه.. وهو قول ابن جريج.

ثم رجح القول الأول فقال: «والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السدي، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولادها وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين تلقاهم، لأن ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن جريج، ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانه إلا بحجة واضحة».

انظر: تفسير الطبري: ٢٦٤/١٦-٢٦٦.

ءَامِنِينَ ﴿١٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ
رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُهَا رِيًّا حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ
مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٠﴾

وقيل: الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز لأنهم كانوا لا يدخلون مصر قبله إلا بجواز^(١) من
ملوكهم، يقول: آمين [من الجواز إن شاء الله تعالى^(٢)]، كما قال: «لَتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إن شاء الله
آمين» (الفتح - ٢٧) [٣].

وقيل: ﴿إِنْ﴾ هاهنا بمعنى إذ، يريد: إذ شاء الله، كقوله تعالى: «وَأَنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (آل
عمران - ١٣٩). أي: إذ كنتم مؤمنين^(٤).

﴿وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أي: على السرير، أجلسهما. والرفع: هو النقل إلى العلو. ﴿وَخَرُّوا
لَهُ سُجَّدًا﴾، يعني: يعقوب وخالته وإخوته.

وقد جَوَّدَ الحافظ ابن كثير ردَّ الطبري على ابن جريج واختياره لقول السدي، ثم قال: (٤٩١/٢): «وما المانع أن يكون قال لهم -
بعد ما دخلوا عليه وأوأمهم إليه -: ادخلوا مصر، وضمَّته اسكنوا مصر إن شاء الله آمين، أي: بما كنتم فيه من الجهد والقحط...» .
وهذا التفسير ذكره ابن عطية: (٧٩/٨): فقال في تفسير قوله تعالى: (ادخلوا مصر) «معناه: تمكَّنوا واسكنوا واستقروا، لأنهم قد
كانوا دخلوا عليه» ثم ذكر قول السدي، وقال: (٨٠/٨): «وهذا الاستثناء هو الذي ندب إليه القرآن، أن يقوله الإنسان في جميع ما
ينفذه في المستقبل...» وذكر قول ابن جريج وقال: وفي هذا التأويل ضعف.

وانظر: تفسير القرطبي: (٢٦٣/٩).

(١) في زاد المسير: بالراء المهملة. ولعله أنسب .
(٢) قال في الكشف: إن المشقة تعلقت بالدخول المكثف بالأمن؛ لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل: اسلموا
وأمنوا في دخولكم إن شاء الله... والتقدير: ادخلوا مصر آمين إن شاء الله دخلتم آمين، فحذف الجزاء للدلالة الكلام. ثم اعترض
بالجملة الجزائية بين الحال وذو الحال .

وقال الطيبي: فكأنه أشار بقوله: فكأنه قيل... إلخ إلى أن في التركيب معنى الدعاء .

انظر: الكشف للزحشري: ٢٧٧/٢، روح المعاني للآلوسي: ٥٧/١٣ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٤) فتحصَّل من ذلك أربعة أقوال لخصها ابن الجوزي في زاد المسير: (٢٨٩/٤):

أحدها: أن في الكلام تقدماً وتأخيراً .

والثاني: أن الاستثناء يعود إلى الأمن، ثم فيه قولان: أحدهما، أنه لم يبق بانصراف الحوادث عنهم. والثاني: أن الناس كانوا يخافون فيما

خلا من ملوك مصر، فلا يدخلون إلا بجوارهم .

والثالث: أنه يعود إلى دخول مصر، لأنه قال هذا حين تلقَّاهم .

والرابع: أن «إِنْ» بمعنى «إِذ» .

وكانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يُرَدَّ بالسجود وضع الجباه على الأرض، وإنما هو الانحناء والتواضع^(١).

وقيل: وضعوا الجباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم، لا على طريق العبادة. وكان ذلك جائزاً في الأمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة^(٢).

وروي عن ابن عباس أنه قال: معناه: خروا لله عز وجل سجداً بين يدي يوسف^(٣). والأول أصح^(٤).

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، وهو قوله: «إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين».

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾، [ربي، أي]^(٥): أنعم عليّ، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، ولم يقل من الجُبِّ مع كونه أشدَّ بلاء من السجن، استعمالاً للكرم، لكيلا يخجل إخوته بعدما قال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم»، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعد الخروج من الحب صار إلى العبودية

(١) قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن. انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٥/٩، زاد المسير ٢٩٠/٤.

(٢) قاله الثوري والضحاك وغيرهما، كما نقله القرطبي: ٢٦٥/٩، ونقله الطبري أيضاً عن الضحاك وسفيان الثوري. قالوا: كان السجود تحية بينهم، وقال ابن زهد: ذلك السجود لشرفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، ليس بسجود عبادة.

قال الطبري: وإنما عني بذلك: أن ذلك كان منهم على الخلق، لا على وجه العبادة، وما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديماً قبل الإسلام على غير وجه العبادة من بعضهم لبعض قول أعشى بني ثعلبة:

فَلَمَّا أَتَانَا بُعِثَ الْكَاثِرُ سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا عَمَارَا
انظر: تفسير الطبري: ٢٧٠/١٦.

(٣) أخرج الطبري عن ابن عباس، قال: رفع أبويه على السرير، وسجدا له، وسجد له إخوته. وهذا يخالف ما ذكره البغوي. قال النقاش: وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف عليه السلام لقوله تعالى في أول السورة: (رأيتهم لي ساجدين)، وكان تحيتهم أن يسجدوا للشريف، والصغير للكبير.

انظر: تفسير الطبري: ٢٦٩/١٦، تفسير القرطبي: ٢٦٤/٩.

(٤) أجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي وجه كان - إنما كان تحية لا عبادة؛ قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة.

وقد لاحظ القرطبي أن هذا المنسوخ صار عادة في زمنه عند بعض الناس، فشنع عليهم قائلاً: هذا الانحناء والتكفي الذي تُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثية مستقرة، لاسيما عند الأُمراء والرؤساء. نكبو عن السُّنن، وأعرضوا عن السُّنن.

وروي أنس بن مالك قال: قلنا يارسول الله! أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: لا، قلنا: أفيعتق بعضنا بعضاً؟ قال: لا. قلنا: أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال: نعم (خرجه أبو عمر بن عبد البر في التمهيد).

انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٥/٩-٢٦٦، وراجع المحرر الوجيز: ٨٠/٨، تفسير ابن كثير: ٤٩١/٢-٤٩٢.

(٥) ساقط من (أ).

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١)

والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك، ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته، وفي السجن مكافأة من الله تعالى لزلّة كانت منه .

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾، والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيئهم، وكانوا أهل بادية ومواشي، يقال بدا يبدؤ إذا صار إلى البادية. ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَغَ﴾ أفسد، ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، بالحسد .

﴿إِنْ رَبِّي لَطِيفٌ﴾، أي: ذو لطف، ﴿لَمَّا يَشَاءُ﴾، وقيل: معناه بمن^(١) يشاء .

وحقيقة اللطيف: الذي^(٢) يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

قال أهل التاريخ: أقام يعقوب بمصر عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهناً عيش، ثم مات بمصر، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر .

قال سعيد بن جبير: نُقِلَ يعقوبُ عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، فوافق ذلك اليوم الذي مات فيه العيص فدفنوا في قبر واحد، وكانا ولداً في بطن واحد، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة^(٣) .

فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله علم أن نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حُسنَ العاقبة، فقال : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾، يعني: ملك مصر، والمُلْك: اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، يعني: تعبیر الرؤيا. ﴿فَاطِرَ﴾، أي: يافاطر، ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ﴿أَنْتَ وَلِيِّ﴾، أي: مُعِينِي ومتولي أمري، ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، يقول اقضني إليك مسلماً، ﴿وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، يريد بآبائي النبيين . قال قتادة: لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف^(٤) .

(١) في «ب»: لمن .

(٢) في «ب»: أنه يوصل .

(٣) هذه الأخبار متلقة عن أهل الكتاب، وقد ذكرها المؤرخون مع أخبار غيرها، والله أعلم بصحتها، وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير، بل إنه قال: وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب.... إلخ .

انظر: تفسير الطبري: ٢٧٦/١٦، تاريخ الطبري: ٣٦٣/١-٣٦٤، البداية والنهاية لابن كثير: ٢٢٠/١، تفسير ابن كثير: ٤٩٢/٢، الدر المنثور للسيوطي: ٥٨٩/٤-٥٩٠ .

(٤) وهو مروي عن ابن عباس أيضاً: انظر الدر المنثور: ٥٩١/٤، وانظر ما كتبه ابن كثير في التفسير: ٤٩٣/٢ .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

وفي القصة: لما جمع الله شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربه عز وجل فقال هذه المقالة . قال الحسن: عاش بعد هذا سنين كثيرة. وقال غيره: لما قال هذا القول لم يمض عليه أسبوع حتى توفي .

واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه، فقال الكلبي: اثنتان وعشرون سنة . وقيل: أربعون سنة .

وقال الحسن: ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وفي التوراة مات وهو ابن مائة وعشر سنين، وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد: أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب المبلى عليه السلام .

وقيل: عاش يوسف بعد أبيه ستين سنة. وقيل: أكثر. واختلفت الأقاويل فيه .

وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، فدفنوه في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاح الناس فيه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلته رجاء بركته، حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري الماء عليه وتصل بركته إلى جميعهم .

وقال عكرمة: دفن في الجانب الأيمن / من النيل، فأخصب ذلك الجانب وأجذب الجانب الآخر، [فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجذب الجانب الآخر] ^(١)، فدفنوه في وسطه وقَدَرُوا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان جميعاً إلى أن أخرجه موسى فدفنه بقرب آبائه بالشام ^(٢) .

١٨٧ ب

﴿ذَلِكَ﴾، الذي ذكرْتُ، ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ﴾، أي: ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب، ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾، أي: عَزَمُوا على إلقاء يوسف في الحب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، ييوسف .

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾، يا محمد، ﴿لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، على إيمانهم .

وروي أن اليهود وقريشاً سألو رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا، فحزن النبي ﷺ، فقليل له: إنهم لا يؤمنون وإن حَرَصْتَ على إيمانهم ^(٣) .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) انظر المراجع السابقة .

(٣) قال ابن الأنباري: إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحاً شافياً وهو يؤمل أن يكون ذلك =

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿وما تسألهم عليه﴾، أي: على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى، ﴿من أجر﴾، جعل^(١)
وجزاء، ﴿إن هو﴾، ما هو يعني القرآن، ﴿إلا ذكر﴾، عظة وتذكير، ﴿للعالمين﴾.
﴿وكأين﴾، وك، ﴿من آية﴾، عبرة ودلالة، ﴿في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها
مُعْرِضُونَ﴾، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾، فكان من إيمانهم إذا سُئِلُوا: من خلق السموات
والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من ينزل القطر؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون^(٢).
وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تليبتهم، لييك اللهم
لييك لييك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك^(٣).

وقال عطاء: هذا في الدعاء، وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في
الدعاء^(٤)، كما قال الله تعالى: «وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين» الآية (يونس - ٢٢)
وقال تعالى: «فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يُشركون»
(العنكبوت - ٦٥)، وغير ذلك من الآيات .

= سبباً لإسلامهم، فخالقوا ظنّه، فحزن رسول الله ﷺ، فعزاه الله تعالى بهذه الآية .

انظر: زاد المسير: ٢٩٣/٤، البحر المحيط: ٣٥٠/٥ .

(١) الجُعْل - بالضم - ومصدره الجُعْل - بالفتح - وهو الأجرة على الشيء فعلاً أو قولاً .

انظر: النهاية لابن الأثير: ٢٧٦/١ أنيس الفقهاء للقنوي ص (١٦٩) .

(٢) وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وعطاء والشعبي وقتادة والضحاك وابن زيد .

انظر: تفسير الطبري: ٢٨٦/١٦-٢٨٨، ابن كثير: ٤٩٥/٢، الدر المنثور: ٥٩٣/٤ .

(٣) ثبت ذلك في الصحيحين، وفي صحيح مسلم: (٨٤٣/٢) أنهم كانوا إذا قالوا: لييك لا شريك لك. قال رسول الله ﷺ: «ويلكم
قِدْ قِدْ» (أي: حسبكم لا تزيدوا على هذا) فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك .

هذا، ولم تذكر هذه الأحاديث أن الآيات نزلت في ذلك. فهي حكاية عن حالهم في الجاهلية وتليبتهم هذه .

وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٩٥/٢ .

(٤) انظر: البحر المحيط: ٣٥١/٥. وهذه الأقوال التي تقدمت وغيرها من الأقوال الأخرى المروية، داخله كلها في عموم الآية الكريمة،

ولا تنافي بينها، فذلك كله كان واقعاً منهم، فالآية تحكي هذا كله .

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَوَاتَتْهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
 ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا
 أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾، أي: عقوبة مجللة. قال مجاهد: عذاب يغشاهم، نظيره قوله تعالى: «يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ» الآية (العنكبوت - ٥٥). قال قتادة: وقعة. وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، بقيامها. قال ابن عباس: تهبج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.

﴿قُلْ﴾، يا محمد، ﴿هَذِهِ﴾، الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها، ﴿سَبِيلِي﴾، سُنَّتِي ومنهاجي. وقال مقاتل: ديني، نظيره قوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ» (النحل - ١٢٥) أي: إلى دينه. ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، على يقين. والبصيرة: هي المعرفة التي تُمَيِّزُهَا بين الحق والباطل، ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، أي: ومن آمن بي وصدقني أيضاً يدعو إلى الله. هذا قول الكلبي وابن زيد، قالوا: حقٌّ على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن^(١).

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ ثم استأنف: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، يقول: إني على بصيرة من ربي وكل من اتبعني.

قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان، وجند الرحمن.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٣/١٦.

والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا؛ وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه.

وهذه الدرجات الثلاث التي هي: «الإسلام» و«الإيمان» و«الإحسان» داخله في الدين، كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» بعد أن أجابه عن هذه الثلاث..

فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصل ذلك: عبادته وحده لا شريك له، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل به كتبه.. فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية.

والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة إلى الله، وهي بإذنه سبحانه، لم يشرع ديناً لم يأذن به الله، وبما بين ذلك: أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة، وتارة بالدعوة إلى سبيله، إذ قد عُلم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لابد له فيما يدعو إليه من أمرين: أحدهما: المقصود المراد، والثاني: الوسيلة والطريق الموصِل إلى المقصود، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المعبود المقصود بالدعوة.

انظر: دقائق التفسير، لابن تيمية: ٢٨٤/٣ وما بعدها.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾

قال عبدالله بن مسعود: من كان مُسْتَنًا فليستن بمن قد مات [فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة] ^(١) أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، [فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم] ^(٢)، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾، أي: وقل سبحان الله تنزيهاً له عما أشركوا به. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾، يا محمد، ﴿إِلَّا رَجَالًا﴾ لا ملائكة، ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾، قرأ حفص: ﴿نُوحِيَ﴾ بالنون وكسر الحاء وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء.

﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾، يعني: من أهل الأمصار دون البوادي، لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم.

[وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً من بدو، ولا من الجن، ولا من النساء.

وقيل: إنما لم يبعث] ^(٣) من أهل البادية لغلظهم وجفائهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني: هؤلاء المشركين المكذبين، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾، آخر أمر، ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: الأمم المكذبة فيعتبروا.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، يقول جل ذكره: هذا فعلنا بأهل ولايتنا وطاعتنا؛ أن ننجيهم عند نزول العذاب، وما في الدار الآخرة خيرٌ لهم، فترك ما ذكرنا اكتفاءً، لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾، قيل: معناه ولدان الحال الآخرة.

وقيل: هو إضافة الشيء إلى نفسه، كقوله: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ» (الواقعة - ٩٥) وكقولهم: يوم

الخميس، وربيع الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فتؤمنون.

(١) ما بين القوسين من «المسند» للإمام أحمد، وهو في المطبوع، وساقط من النسختين الخطيتين.

(٢) أثر موقوف على ابن مسعود، رواه الإمام أحمد في المسند: (٢١١/٥) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر.

قال الهيثمي في المجمع: (١٧٨/١): «رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون».

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، اختلف القراء في قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾:

فقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر: ﴿كَذَّبُوا﴾ بالتخفيف وكانت عائشة تنكر هذه القراءة^(١).
وقرأ الآخرون بالتشديد.

فمن شدد قال: معناه حتى استيسس الرسل من إيمان قومهم.
[روى عن مجاهد أنه قرأ: وقد كذبوا، بفتح الكاف والذال مخففة، ولها تأويلان: أحدهما، معناه: أن القوم المشركين ظنوا أن الرسل قد كذبوا. والثاني: معناه: أن الرسل ظنوا - أي: علموا - أن قومهم قد افتروا على الله بكفرهم من إيمان قومهم]^(٢).

وظنوا: أي أيقنوا - يعني الرسل - أن الأمم قد كذبوهم تكذيباً لا يرجى بعُد إيمانهم.
والظن بمعنى اليقين: وهذا معنى قول قتادة.

وقال بعضهم: معناه: حتى إذا استيسس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يُصدّقوهم، وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم، وارتدوا عن دينهم، لشدة الحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر. ومن قرأ بالتخفيف قال: معناه: حتى إذا استيسس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أي: ظنّ قومهم أن الرسل قد كذبتهم في وعيد العذاب.

وروي عن ابن عباس: معناه ضعف قلوب الرسل، يعني: وظنت الرسل أنهم كذبوا فيما وعدوا من النصر. وكانوا بشراً فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم أُخِلُّوا، ثم تلا: «حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى

(١) أخرج البخاري في تفسير سورة يوسف (٣٦٧/٨) عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: (حتى إذا استيسس الرسل) قال:

قلت: أكذبوا أم كُذِّبوا؟

قالت عائشة: كُذِّبوا.

قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، فما هو بالظن.

قالت: أجل لعمرى، لقد استيقنوا بذلك.

فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِّبوا؟

قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظنّ ذلك برّها.

قلت: فما هذه الآية؟

قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا برّهم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى استيسس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاء نصر الله عند ذلك.

وهذه القراءة هي قراءة الجمهور، وانتصر لها الطبري في التفسير: ٣٠٩/١٦.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب». ومن المطبوع أيضاً.

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

نصرُ الله ﴿البقرة - ٢١٤﴾ أي: جاء الرسل نصرنا^(١).

﴿فَنَجِّي مَن نَّشَاءُ﴾، [قرأ العامة بنونين، أي: نحن ننجي من نشاء]^(٢). وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله، لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة، فيكون محل ﴿مَن﴾ رفعا، على هذه القراءة. وعلى القراءة الأولى يكون نصبا، فَنَجِّي مَن نشاء عن نزول العذاب، وهم المؤمنون المطيعون.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِأَسْنَاءٍ﴾، عذابنا، ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ /، أي: في خبر يوسف وإخوته، ﴿عِبْرَةٌ﴾ عظة، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ﴾ ١٨٨ / أ، يعني: القرآن، ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، أي: يُخْتَلَقُ، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي﴾، أي: ولكن كان تصديق الذي، ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، من التوراة والإنجيل، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، بيانا ونعمة، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) في توجيه القراءتين والترجيح بينهما، انظر: تفسير الطبري: ٢٩٦/١٦-٣١١، البحر المحيط: ٣٥٤/٥-٣٥٥، تفسير ابن كثير:

٢/٤٩٨-٤٩٩، دقائق التفسير لابن تيمية: ٣٠١/٣ وما بعدها.

(٢) ساقط من (أ).

سُورَةُ الرَّعْدِ

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكية إلا قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾^(١)، [وهي ثلاث وأربعون آية]^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْجُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿المرج﴾ قال ابن عباس: معناه: أنا الله أعلم وأرى^(٣)، ﴿تلك آيات الكتاب﴾، يعني: تلك الأخبار التي قصصتها [عليك]^(٤) آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، ﴿والذي أنزل إليك﴾، يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك، ﴿من ربك الحق﴾، أي: هو الحق فاعتصم به . فيكون محل «الذي» رفعا على الابتداء، و«الحق» خبره .

(١) أخرج النحاس في «الناسخ والمنسوخ» عن ابن عباس، وسعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير أن سورة الرعد مكية. وبه قال الحسن وعطاء وقتادة .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس، وابن مردويه عن ابن الزبير: أن سورة الرعد نزلت بالمدينة. وبه قال جابر ابن زيد .

وروي عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة، ورواه ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة . ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها، أو في جوها العام الذي لا يخطيء تنسؤه من يعيش فترة في ظلال القرآن .

انظر: الدر المنثور: ٥٩٩/٤، الاتقان: ٤٤-٤٠/١، زاد المسير: ٢٩٩/٤، في ظلال القرآن: ٢٠٣٩/١٣ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ» .

(٣) انظر فيما سبق: ٥٨/١، وراجع تفسير الطبري: ٢٢٤-٢٠٥/١، ١٤٩/٦، ٢٩٣/١٢، ٢٩٤، ٩/١٥، ٣١٩/١٦-٣٢٠ . طبعة دار المعارف، زاد المسير: ٣٠٠/٤ .

(٤) ساقط من «ب» .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

وقيل: محله خفض، يعني: تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك، ثم ابتداء: «الحق»، يعني: ذلك الحق^(١).

وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن، ومعناه: هذه آيات الكتاب، يعني القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق.

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يقول من تلقاء نفسه^(٢)، فردّ قولهم ثم بين دلائل ربوبيته، فقال عزّ من قائل:

﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾، يعني: السّواري، واحدها عمود، مثل: أديم وأدم، وعمد أيضاً جمعه، مثل: رسول ورسل.

ومعناه نفى العمد أصلاً، وهو الأصح، يعني: ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها.

قال إياس بن معاوية: السماء مقببة على الأرض مثل القبة^(٣).

وقيل: «ترونها» راجعة إلى العمد، [معناه]^(٤): لها عمد ولكن لا ترونها^(٥).

(١) انظر في هذا وشواهد من العربية: تفسير الطبري: ٣٢١/١٦-٣٢٢، البحر المحيط: ٣٥٩/٥، المحرر الوجيز: ١١٠-١٠٩/٨.

(٢) وقيل: المراد اليهود والنصارى. والأولى أنه عامٌ يندرج تحته هؤلاء وأولئك.

انظر: البحر المحيط: ٣٥٩/٥.

(٣) وهذا مروى أيضاً عن قتادة، ويدل عليه تصريحه تعالى في سورة الحج أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ).

فعلى هذا يكون قوله (ترونها) تأكيداً لنفي ذلك. أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها. وهذا هو الأكمل في القدرة. وعلى هذا يكون الضمير في قوله «ترونها» عائد على «السموات»، وجملة «ترونها» في موضع الحال.

انظر: تفسير الطبري: ٣٢٥/١٦، تفسير ابن كثير: ٥٠٠/٢، أضواء البيان: ٧٧-٧٨/٣، المحرر الوجيز: ١١٠/٨.

(٤) ساقط من «ب».

(٥) وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد.

وقال الطبري تعقيباً على هذين الرأيين: (٣٢٥/١٦): «أولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: «الله الذي

رفع السموات بغير عمد ترونها» فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال ربنا - جل ثناؤه - ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه».

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
 جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

وزعم: أن عمدتها جبل قاف، وهو محيط بالدنيا، والسماء عليه مثل القبة^(١).

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، علا [عليه]^(٢)، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، ذلّلهما لمنافع خلقه
 فهما مقهوران، ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أي: يجريان على ما يريد الله عز وجل، ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي:
 إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا. [وقال ابن عباس]^(٣): أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما
 ينتهيان إليها لا يجاوزانها، ﴿يُدَبَّرُ الْأَمْرُ﴾، يقضيه وحده، ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، يبين الدلالات، ﴿لَعَلَّكُمْ
 بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾، بسطها، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، جبلاً ثابتة، واحدها: راسية،
 قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض^(٤)، ﴿وَأَنْهَارًا﴾، وجعل فيها أنهاراً.
 ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، أي: [صنفين اثنين]^(٥) أحمر وأصفر، وحلوا

(١) التعبير بكلمة «زعم» تشير إلى تضعيف هذا الرأي، لأن زعم مطية الكذب، كما تقول العرب، ولذلك، ثبت هنا كلمة
 قيمة للحافظ ابن كثير، رحمه الله، في تفسيره لسورة (ق): (٢٢٢/٤) قال:

«روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق جبل محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف، وكان هذا - والله أعلم - من
 خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدّق ولا يكذب.
 وعندي: أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة
 - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ، وما بالعهد من قديم، فكيف بأمة بني إسرائيل،
 مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته!
 وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوز العقل. فأما ما تحيله العقول
 ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه: فليس من هذا القبيل. والله أعلم».

ثم قال: «وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في
 تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمثنة ثم أورد أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس،
 أخرجه ابن أبي حاتم الرازي عن جبل قاف المحيط بالأرض وقال: «وإسناد الأثر فيه انقطاع».

هذا، وقد جمع الشيخ أحمد شاكر كلمات ابن كثير في الاسرائيليات، في عمدة التفسير: ١٩٤/١ - ١٩٥.

(٢) في «ب»: علمه.

(٣) في «ب»: وقيل.

(٤) نقله القرطبي عن ابن عباس وعطاء: ٢٨٠/٩.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وحامضاً، ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، أي: يلبس النهار بظلمة الليل، ويلبس الليل بضوء النهار، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيستدلون. والتفكر^(١): تصرف القلب في طلب معاني الأشياء. ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾، متقاربات يقرب بعضها من بعض، وهي مختلفة: هذه طيبة تنبت، وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع، وهذه كثيرة الريع، ﴿وَجَنَاتٌ﴾: بساتين، ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٌ﴾، رفعها كلها ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب، عطفاً على الجنات، وجراها الآخرون نسقاً على الأعناب.

والصنوان: جمع صنو، وهو النخلات يجمعهن أصل واحد.

﴿وغير صنوان﴾، هي النخلة المنفردة بأصلها.

وقال أهل التفسير^(٢): صنوان: مجتمع، وغير صنوان: متفرق. نظيره من الكلام: قنوان جمع قنو. ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «عمّ الرجل صنو أبيه»^(٣).

ولا فرق في الصنوان والقنوان بين الثنية والجمع إلا في الإعراب، وذلك أن النون في الثنية مكسورة غير منونة، وفي الجمع منونة.

﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿يُسْقَى﴾ بالياء أي يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: ﴿وَجَنَاتٍ﴾ ولقوله تعالى من بعد «بعضها على بعض»، ولم يقل بعضه. والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام.

﴿وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾، في الثمر والطعم.

قرأ حمزة والكسائي ﴿وَيُفَضِّلُ﴾ بالياء، لقوله تعالى: «يُدبر الأمر يُفَضِّلُ الآيات» (الرعد - ٢).

وقرأ الآخرون بالنون على معنى: ونحن نفضل بعضها على بعض في الأكل، وجاء في الحديث

[في قوله]: «ونفضل بعضها على بعض في الأكل»، قال: «الفارسي، والدَّقْلُ، والحلو، والحامض»^(٤).

(١) في «أ»: والفكر.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥-٣٤٠.

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه مسلم في الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم (٩٨٣): ٦٧٧-٦٧٦/٢.

وانظر فيما سبق: ١٥٤/١. تفسير الطبري: ٣٣٨-٣٣٩ مع تعليق محمود شاكر.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير: ٥٤٤/٨ وقال: «هذا حديث حسن غريب، وقد رواه زيد ابن أبي أنيسة عن الأعمش نحو هذا. =

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْلِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قال مجاهد: كمثل بني آدم، صالحهم وخبيثهم، وأبوهم واحد^(١).
قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، يقول: كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عز وجل، فسطحها، فصارت قطعاً متجاورة، فينزل عليها المطر^(٢) من السماء، فتخرج هذه زهرتها، وشجرها وثمرها ونباتها، وتخرج هذه سبغها وملحها وخبيثها^(٣)، وكل يُسقى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو.

قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»^(٤) (الإسراء - ٨٢).
﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، العجب تغير النفس برؤية المُستبَعَد في العادة، والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه: إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق [من الله عز وجل]^(٥) فعجب أمرهم.

وكان المشركون ينكرون البعث، مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب.

= وسيف بن محمد هو أخو عمار بن محمد، وعمار أثبت منه، وهو ابن أخت سفيان الثوري.
وأخرجه الطبري في التفسير: ٣٤٤/١٦، وعزاه السيوطي في الدر: ٦٠٥/٤ أيضاً للبخاري وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.
و«الفارسي» - من القم - نوع منه، ولعله عني به (البرني) وهو ضرب من القم أصفرمدور، عذب الحلاوة وهو أجوده.
وقالوا: إن لفظ «البرني» فارسي معرب.

و«الدُّقْل»: أردأ أنواع القم.
انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: ٣٤٣/١٦.

(١) الطبري: ٣٤٢/١٦.

(٢) في «ب»: الماء.

(٣) في «ب»: خبيثها.

(٤) الطبري: ٣٤٠/١٦.

(٥) ساقط من «ب».

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨٨﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿١٨٩﴾

وقيل: معناه: وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم مالا يضر ولا ينفع آلهة يعبدونها وهم قد رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم، أي: فتعجب أيضاً من قولهم: ﴿أئذا كنا تراباً﴾، بعد الموت، ﴿أئذا لفي خلق جديد﴾، أي: نعاد خلقاً جديداً كما كنا قبل الموت.

قرأ نافع والكسائي ويعقوب «أئذا» مستفهماً: «إئنا» بتركه، على الخبر، ضده: أبو جعفر وابن عامر. وكذلك في «سبحان» في موضعين، والمؤمنون، وآلم السجدة، وقرأ الباقون بالاستفهام فيها وفي / الصافات في موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعاً في أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية «أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون» (الصافات - ٥٣). قال الله تعالى: ﴿وأولئك الذين كفروا ببرهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾، يوم القيامة ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ويستعجلونك بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، الاستعجال: طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته، والسَّيِّئَةُ هاهنا هي: العقوبة، والحسنة: العافية. وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم» (الأنفال - ٣٢).

﴿وقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾، أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات. والمثلات جمع المَثَلَةِ بفتح الميم وضم الثاء، مثل: صَدَقَةٌ وَصَدَقَاتُ (١). ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿ويَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على محمد ﷺ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾، مُخَوِّفٌ، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى. وقال الكلبي: داع يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة.

(١) الصَّدَقَات: مهور النساء.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ

وقال عكرمة: الهادي محمد ﷺ، يقول: إنما أنت منذر وأنت هادٍ لكل قوم، أي: داعٍ .
وقال سعيد بن جبير: الهادي هو الله تعالى (١) .
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾، من ذكر أو أنثى، سويّ الخلق أو ناقص الخلق، واحداً أو اثنين أو أكثر ﴿وما تغيض الأرحام﴾، أي ما تنقص ﴿وما تزداد﴾ .
قال أهل التفسير (٢): غيض الأرحام: الحيض على الحمل؛ فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في الولد، لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم، فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقة باستمساك الدم .
وقيل: إذا حاضت ينتقص (٣) الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة (٤) أشهر ظاهراً، فإن رأت (٥) خمسة أيام دماً وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام، فالنقصان في الغذاء، والزيادة في المدة (٦) .

(١) ساق الطبري الأقوال في التفسير ثم قال: «وقد بينت معنى «الهداية» وأنه الإمام المتبع الذي يقدم القوم. فإذا كان ذلك كذلك، فجائز أن يكون هو الله الذي يهدي خلقه، ويتبع خلقه هداة، ويأتون بأمره ونهيه .
وجائز أن يكون نبي الله الذي تأت به أمته .
وجائز أن يكون إماماً من الأئمة يؤتم به، ويتبع منهجه وطريقته أصحابه .
وجائز أن يكون داعياً من الدعاة إلى خير أو شر .
وإن كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: إن محمداً هو المنذر من أرسل إليه بالإنذار، وأن لكل قوم هادياً يهديهم فيتبعونه ويأتون به» .
تفسير الطبري: ٣٥٨/١٦ .

(٢) انظر في هذه الأقوال وتخريجها: الدر المنثور: ٦٠٨/٤-٦١٠، تفسير الطبري: ٣٥٩/١٦-٣٦٥. وقرأ كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار، فصل دورة الأرحام ص (٦٩-٨٢) .

(٣) في «ب»: ينقص .

(٤) في «ب»: بسبعة .

(٥) في «ب»: زادت .

(٦) هذه الأقوال في تفسير الآية بناء على أن الحمل تحيض، وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض. وبه قال أبو حنيفة، ودليله الآية .

قال ابن عباس في تأويل الآية: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد، وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع .
وقال أبو حنيفة: لو كان الحمل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صحَّ استبراء الأمة بحيض، وهو إجماع .
وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض .

انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٦/٩. أحكام القرآن للجصاص: ٣٩٧/٤-٣٩٩، تفسير ابن عطية: ١٣٠/٨-١٣١، أحكام القرآن لابن العربي: ١١١/٣ .

وقال الحسن: غيضاها: نقصانها من تسعة أشهر، والزيادة: زيادتها على تسعة أشهر .

وقيل النقصان: السَّقَط، والزيادة: تمام الخلق .

وأقل مدة الحمل: ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش^(١) .

واختلفوا في أكثرها: فقال قوم: أكثرها ستان، وهو قول عائشة رضي الله عنها، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله .

وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، قال حماد بن سلمة. إنما سمي هَرَم بن حَيَّان هَرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين^(٢) .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾، أي: بتقدير وَحْدٌ لا يجاوزه ولا يقصر عنه .

(١) وذلك منتزع من قوله تعالى: «وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» (الأحقاف - ١٥) مع قوله تعالى: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» (البقرة - ٢٣٣) فبقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهراً لمدة الحمل ستة أشهر . وكلام الأطباء يتفق مع هذا، فالطب يقرر أن أقل الحمل الذي يمكنه العيش بعده ستة أشهر، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «وأما أقل مدة الحمل: فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر» .

انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٨/٩، التبيان في إقسام القرآن لابن القيم ص (٣٣٩)، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار ص (٤٥١-٤٥٢) .

(٢) وقد أنكر بعض المالكية وابن حزم أن يكون هناك حمل أكثر من تسعة أشهر، فقال ابن حزم: «... ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر... فمن ادعى أن حملاً وفصلاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال بالباطل والحال وردّ كلام الله عز وجل جهاراً» .

وبعد أن ذكر جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من ستة أشهر، قال: «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يُصَدِّق ولا يُعرف من هو، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا. ومن روي عنه مثل قولنا: عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، فهو يقول: أيما رجل طلق امرأته فحاضت حيضة أو حيضتين ثم قعدت فلتجلس تسعة أشهر حتى يستبين حملها، فإن لم يستبين حملها في تسعة أشهر فلتعتد بعد التسعة الأشهر ثلاثة أشهر عدة التي قعدت عن الحيض . فهذا عمر لا يرى الحمل أكثر من تسعة أشهر، وهو قول محمد بن عبدالله بن عبد الحكم، وأبي سليمان، وأصحابنا . قال علي ابن حزم -: إلا أن الولد قد يموت في بطن أمه فيتأذى بلا غاية حتى تلقيه متقطعاً في سنين. فإن صح هذا فإنه حمل صحيح لا تنقضي عدتها إلا بوضعه كله...» .

وهذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده، وإلا لمات الجنين في بطن أمه. ويعتبرون ما زاد عن ذلك نتيجة خطأ في الحساب، وأما ما يحكى عن مولودين لسنوات بعد الحمل، أو أن الحمل عند امرأة استمر لسنوات... فهي ما يسمونه «الحمل الكاذب» وهي حالة تصيب النساء اللاتي يبحثن عن الإنجاب دون أن ينتجين فيتنفخ البطن بالغازات وتتوقف العادة الشهرية، وتعتقد المرأة بأنها حامل رغم تأكيد جميع الفحوصات المخبرية والطبية بأنها غير حامل. والله أعلم .

انظر في هذا كله: تفسير القرطبي: ٢٨٨/٩-٢٨٩، أحكام القرآن لابن العربي: ١١٠٩/٣، الدر المنثور: ٦٠٩/٤. وقارن به: المحلى لابن حزم: ٣١٨-٣١٦/١٠، خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار، ص (٤٥٤-٤٥٢) .

عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ
وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٢﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلا مَرَدٍّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالِ ﴿١١﴾

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾، الذي كل شيء دونه، ﴿المتعال﴾، المستعلي على كل شيء
بقدرته .

قوله تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾، أي: يستوي في علم الله المُسرُّ
بالقول والجاهر به، ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾، أي: مستتر بظلمة الليل، ﴿وسارب بالنهار﴾،
أي: ذاهب في سره ظاهر .

والسَّرب - بفتح السين وسكون الراء -: الطريق^(١) .

قال القتيبي: سارب بالنهار: أي متصرف في حوائجه .

قال ابن عباس [في هذه الآية]^(٢): هو صاحب رية، مستخف بالليل، فإذا خرج بالنهار أرى
الناس أنه بريء من الإثم^(٣) .

وقيل: مستخف بالليل، أي: ظاهر، من قولهم: خفيت الشيء؛ إذا أظهرته، وأخفيته: إذا كتمته.
وسارب بالنهار: أي متوارٍ داخل في سرب .

﴿له معقبات﴾، أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل
جاء في عقبها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل .

والتعقيب: العود بعد البدء، وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب، وجمعه معقبه، ثم

(١) اختلف أهل العلم بكلام العرب في «السرب» :

فقال بعضهم: «هو آمن في سره»، بفتح السين .

وقال بعضهم: «هو آمن في سره» بكسر السين .

انظر: الطبري: ٣٦٧/١٦ .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) الطبري: ٣٦٧/١٦ .

جمع الجمع معقبات، كما قيل: ابناوات^(١) سعد ورجالات بكر .

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يَرْجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»^(٢) .

قوله تعالى: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار، ومن خلفه: من وراء ظهره، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجيء المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه .

وقيل: يحفظونه من أمر الله: أي مما أمر الله به من الحفظ عنه .

قال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك موكل به، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريد به إلا قال وراءك! إلا شيء يأذن الله فيه فيصبيه .

قال كعب الأحبار: لولا أن الله عز وجل وكل بكم ملائكة يذّبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطقكم الجن .

وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم^(٣) .

(١) في «ب»: اثناوات. وصححها الشيخ محمود شاكر في الطبري: سادات سعد، يقال: «سيد» و«سادة» و«سادات» .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر: ٣٣/٢، وفي بدء الخلق، ومسلم في المساجد، باب فضل

صلاحي الصبح والعصر والمحافظة عليهما برقم (٦٣٢): ٤٣٩/١، والمصنف في شرح السنة: ٢٢٦/٢ .

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (٣٤/٢): «قال القرطبي: الواو في قوله «يتعاقبون» علامة الفاعل المذكور المجموع على لغة بلحارث وهم القائلون: أكلوني البراغيث، ومنه قول الشاعر: «بحوران يعصرون السليط أقاربه» وهي لغة فاشية، وعليها حل الأخفش قوله تعالى: (وَأَسْرُوا النجوى الذين ظلموا) قال: وقد تعسف بعض النحاة في تأويلها وردّها للبدل، وهو تكلف مستغنى عنه، فإن تلك اللغة مشهورة ولها وجه من القياس واضح...» .

(٣) ورجحه الطبري لأن قوله: (له معقبات) أقرب إلى قوله: (ومن هو مستخف بالليل) منه إلى (عالم الغيب) فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذكره، وأن يكون المعنى بذلك هذا مع دلالة قول الله تعالى: (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له) على أنهم المعنيون بذلك .

وذلك أنه - جل ثناؤه - ذكر قوماً أهل معصية له وأهل رية، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومنّة تمنعهم من أهل طاعته أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله. ثم أخبر أن الله - تعالى ذكره - إذا أراد بهم سوءاً لم ينفعهم حرسهم، ولا يدفع عنهم حفظهم .

وأما ابن عطية فرجح التأويل الأول، وقال: وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لمعنيين من البشر .

انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/١٦، المحرر الوجيز لابن عطية ١٣٧/٨ .

وقيل: الآية في المَلَكَيْنِ القَاعِدَيْنِ عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ» (ق - ١٧) .

قال ابن جريج: معنى يحفظونه أي: يحفظون عليه أعماله من أمر الله، يعني: الحسنات والسيئات .
وقيل: الهاء في قوله «له»: راجعة إلى رسول الله ﷺ :

روى جوير عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: له معقبات يعني لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، [يعني: من شر الجن]^(١) وطوارق الليل والنهار^(٢) .

وقال عبدالرحمن بن زيد: نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل، وأريد بن ربيعة، وكانت قصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

أقبل عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة، وهما عامريان، يريدان رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه، فدخلوا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من [أجل]^(٣) الناس / .

أ/١٨٩

فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فإن يرد الله به خيراً بيده .

فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد مالي إن أسلمت؟

قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين» .

قال: تجعل لي الأمر بعدك .

قال: ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ، يجعله حيث يشاء .

قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: لا .

قال: فماذا تجعل لي؟

قال: أجعل لك أئنة الخيل تغزو عليها .

قال: أوليس ذلك إلي اليوم؟ قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ .

وكان [عامر]^(٤) أوصى إلى أريد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فذر من خلفه فاضربه بالسيف،

فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدار أريد من خلف النبي ﷺ ليضربه، فاخترط من سيفه

(١) ساقط من «ب» .

(٢) هذا التفسير جاء ضمن حديث ابن عباس الآتي في قصة أريد، انظر التعليق التالي .

(٣) في «ب»: أجمل .

(٤) ساقط من «ب» .

شيراً، ثم حبسه الله تعالى عنه، فلم يقدر على سلّه، وجعل عامر يومئذ إليه، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: اللهم أكفنيهما بما شئت .

فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائط فأحرقتة، وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مرداً .

فقال النبي ﷺ : يمنعك الله تعالى من ذلك، وأبناء قيلة يريد: الأوس والخزرج .

فنزل عامر بيت امرأة سلولية، فلما أصبح ضمّ عليه سلاحه وقد تغير لونه، فجعل يركض في الصحراء، ويقول: ابرز يا ملك الموت، ويقول الشعر، ويقول واللات والعزى لئن أبصرت محمد وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برحمي، فأرسل الله إليه ملكاً فلطمه بجناحه فأرداه في التراب وخرجت على ركبته في الوقت غداة عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية. ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله ﷺ، فقتل عامر بن الطفيل بالطعن وأربد بالصاعقة، وأنزل الله عزّ وجلّ في هذه القصة قوله: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه﴾، يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله (١)، [يعني تلك المعقبات من أمر الله] (٢)، وفيه تقديم تأخير .

وقال لهما: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، من العافية والنعمة، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾،

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٩/١٦-٣٨١، تفسير القرطبي: ٢٩٦/٩، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٤-٣١٥)، ابن كثير: ٥٠٧/٢ .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٤٢/٧): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفي إسنادهما عبدالعزیز بن عمران: ضعيف» . ورواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ضعيفة .

قال الطبري: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في تأويل هذه الآية، قول بعيد من تأويل الآية، مع خلافه أقوال من ذكرنا قوله من أهل التأويل .

وذلك أنه جعل «الهاء» في قوله: «له معقبات» من ذكر رسول الله ﷺ، ولم يجز له في الآية التي قبلها ولا في التي قبل الأخرى ذكر، إلا أن يكون أراد أن يردها على قوله: «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد»، «له معقبات» فإن كان ذلك، فذلك بعيد، لما بينهما من الآيات بغير ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ .

وإذا كان ذلك كذلك، فكانت عائدة على «من» التي في قوله: «ومن هو مستخف بالليل» أقرب، لأنه قبلها، والخبر بعدها عنه . فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم - أي الناس - من أسر القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخف بنفسه وريته في ظلمة الليل، وسارب يذهب ويحيى في ضوء النهار ممتنعاً بجنده وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدّ الله عليه، وذلك قوله: «يحفظونه من أمر الله» .

وكذلك قال ابن عطية في المحرر الوجيز: (١٣٧/٨): «وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة، فيضعف القول أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في «له» عليه» .

(٢) ساقط من «ب» ..

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ ﴿١٣﴾

من الحال الجميلة فيعصوا ربهم .

﴿وإذا أراد الله بقوم سوء﴾، أي: عذاباً وهلاكاً ﴿فلا مرد له﴾ أي: لا راد له ﴿وما لهم من دونه من وال﴾، أي: ملجأ يلجئون إليه. وقيل: وإل يلى أمرهم ويمتنع العذاب عنهم .
قوله عز وجل: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾، قيل: خوفاً من الصاعقة، طمعاً في نفع المطر .

وقيل: الخوف للمسافر، يخاف منه الأذى والمشقة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة .
وقيل: الخوف من المطر في غير مكانه وإبانته، والطمع إذا كان في مكانه وإبانته، ومن البلدان ما إذا أمطروا وقحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا .

﴿وينشئ السحاب الثقيل﴾، بالمطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي: أبداها فبدت،
والسحاب جمع، واحدها سحابة، قال علي رضي الله عنه: السحاب غربال الماء .
﴿ويسبح الرعد بحمده﴾، أكثر المفسرين على أن الرعد اسم مَلَكٍ يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه^(١) .

قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعلي ديته .

وعن عبدالله بن الزبير: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث: وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد^(٢) .
وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد»^(٣) .

(١) انظر فيما سبق: ٦٩/١-٧٠ .

(٢) انظر: الأذكار للنووي ص (١٥٤) تفسير ابن كثير: ٥٠٦/٢ ففيها الأذكار التي تقال عند سماع صوت الرعد .

(٣) حديث ضعيف أخرجه أبو داود والطيالسي في «المسنَد» ص (٣٣٧) رقم (٢٥٨٦)، والإمام أحمد في المسند: ٣٥٩/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وصححه الحاكم في المستدرک: ٣٤٩/٢ فتعقبه الذهبي وقال: «صدقة وإه»، وهو صدقة بن موسى الدقيقي، صدوق له أوهام (تقريب) .

وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وأن بحور الماء في نقرة إبهامه، وأنه يسبح الله تعالى، فإذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل القطر. ﴿والملائكة من خيفته﴾، أي: تسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وخشيته .

وقيل أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد، جعل الله تعالى له أعواناً، فهم خائفون خاضعون طائعون .

قوله تعالى: ﴿ويرسل الصواعق﴾، جمع صاعقة، وهي: العذاب المهلك، ينزل من البرق فيحرق من يصيبه، ﴿فيصيب بها من يشاء﴾، كما أصاب أربد بن ربيعة .

وقال محمد بن علي الباقر: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكِر .
﴿وهم يجادلون﴾، يخاصمون، ﴿في الله﴾، نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ: مِمَّ ربك أم دُرُّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقتة^(١) .

وسئل الحسن عن قوله عز وجل: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، قال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفرأ يدعوهم إلى الله وإلى رسوله .

فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه مِمَّ هو؟ من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس؟

فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه!

فقال: ارجعوا إليه، فرجعوا إليه، فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه؟

فانصرفوا وقالوا: يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى وأخبت .

فقال ارجعوا إليه، فرجعوا، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونهم، وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة، فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وبرقت، ورمت بصاعقة، فاحترق الكافر، وهم جلوس، فجأؤوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ، فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ، فقالوا لهم: احترق صاحبكم. فقالوا: من أين علمتم فقالوا أوحى الله إلى النبي ﷺ: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾^(٢) .

= وساقه ابن الجوزي في العلل المتناهية: ٣٠٦/٢، وضعفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح: ١٤٦١/٣ .

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٥٠٧/٢ .

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٣١٤)، الدر المنثور للسيوطي: ٦٢٥/٤، ٦٢٦، البحر المحيط: ٣٧٥/٥، ابن كثير: =

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ
كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ ۝١٤

﴿وهو شديد المحال﴾، قال علي رضي الله عنه: شديد الأخذ^(١).

وقال ابن عباس: شديد الحول^(٢).

وقال الحسن: شديد الحقد^(٣).

وقال مجاهد: شديد القوة^(٤).

وقال / أبو عبيدة: شديد العقوبة.

وقيل: شديد المكر.

والمحال والمُحَالَّة: المماكرة والمغالبة.

﴿له دعوة الحق﴾، أي: لله دعوة الصدق.

قال علي رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد^(٥).

وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله^(٥).

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عز وجل^(٦).

﴿والذين يدعون من دونه﴾، أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى. ﴿لا يستجيبون لهم

بشيء﴾، أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرر، ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ

= ٥٠٧/٢، وبنحوه عن أنس، أخرجه أبو يعلى والبخاري في الأوسط. ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير ديلم

ابن غزوان، وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي شارة وهو ضعيف.

انظر: مجمع الزوائد: ٤٢/٧.

(١) أخرجه الطبري: ٣٩٦/١٦. وقال الشيخ محمود شاكر: ٣٩٢/١٦. وهذا إسناد منكر.

(٢) الطبري: ٣٩٦/١٦.

(٣) نسبة السيوطي لأبي الشيخ عن عكرمة الدر المنثور: ٦٢٧/٤. وأخرج الطبري عن عكرمة قال: ما أصاب أريد من الصاعقة.

وأخرج الطبري أيضاً عن الحسن في تفسير الآية: يعني الهلاك. قال: إذا محل فهو شديد.

وما إخال هذا التفسير الذي ذكره المصنف يصح عن الحسن رحمه الله لأننا وجدنا خلافاً في الطبري، والله سبحانه وتعالى

لا يليق وصفه بهذا. والله أعلم.

(٤) انظر الطبري: المرجع السابق.

(٥) الطبري: ٣٩٨/١٦.

(٦) وهذه المعاني كلها متقاربة وليس بينها اختلاف.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ
وَالْأَصَالِ ﴿١٥﴾

فاه وما هو ببالغه، أي: إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء [والقابض على الماء]^(١) لا يكون في يده شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام، وهي لا تضر ولا تنفع، لا يكون بيده شيء.

وقيل: معناه كالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد، فهو يشير بكفه إلى الماء، ويدعوه بلسانه، فلا يأتيه أبداً، هذا معنى قول مجاهد.

ومثله عن علي وعطاء: كالعطشان الجالس على شفير^(٢) البئر، يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء، ولا يرتفع إليه الماء، فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم دعاؤها، وهي لا تقدر على شيء.

وعن ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء، ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطاً كفيه. وهو مثل ضربه لحيية الكفار^(٣).

﴿وما دعاء الكافرين﴾، أصنامهم، ﴿إلا في ضلال﴾، يضل عنهم إذا احتاجوا إليه، كما قال: «وضل عنهم ما كانوا يفترون» (الأنعام - ٢٤ وغيرها).

وقال الضحاك عن ابن عباس: وما دعاء الكافرين زبهم إلا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً﴾، يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿وكرهاً﴾، يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف.

﴿وظلالهم﴾، يعني: ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً تسجد لله عز وجل طوعاً.

قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره.

﴿بالغدو والأصال﴾، يعني إذا سجد بالغدو أو العشي يسجد معه ظله.

و«الأصال»: جمع «الأصل»، و«الأصل»: جمع «الأصيل»، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس.

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «أ»: شفة.

(٣) قال الطبري: ٣٩٩/١٦: والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً، بالقابض على الماء. قال بعضهم: فإني وإنّاكم وشوقاً إليكم كقابض ماء لم تسقه أنابله وقوله: «لم تسقه» من وسقت الشيء أسقه وسقاً: إذا حملته.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ
وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

وقيل: ظلّهم أي: أشخاصهم، بالغدو والآصال: بالبكر والعشاي.

وقيل: سجود الظلّ تذليله لما أريد له.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما ومدبرهما [فسيقولون الله] ^(١)،
لأنهم يقولون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإذا أجابوك فقل أنت أيضاً يا محمد: «الله» .
وروي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أجب أنت، فأمره الله عز وجل فقال:
﴿قُلِ اللَّهُ﴾ .

ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، معناه: إنكم مع إقراركم بأن
الله خالق السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم
﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، فكيف يملكون لكم؟

ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، كذلك لا يستوي الكافر
والمؤمن، ﴿أَمْ هَلْ يَسْتَوِي﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يَسْتَوِي﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء
لأنه لا حائل بين الاسم والفعل المؤنث. ﴿الظلمات والنور﴾، أي: كما لا يستوي الظلمات والنور
لا يستوي الكفر والإيمان .

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾، أي: جعلوا، ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: اشتبه ما
خلقه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم .

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل، فقال عز وجل :

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا
يُقَدِّوْنَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ
وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿أنزل﴾ يعني: الله عز وجل، ﴿من السماء ماء﴾، يعني المطر، ﴿فسالت﴾ من ذلك الماء،
﴿أودية بقدرها﴾، أي: في الصغر والكبر، ﴿فاحتمل السيل﴾، الذي حدث من ذلك الماء، ﴿زبدًا
رأياً﴾، الزبد: الخبث الذي يظهر على وجه الماء، وكذلك على وجه القدر، «رأياً» أي عالياً مرتفعاً
فوق الماء، فالماء الصافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية
هو الباطل.

وقيل: قوله «أنزل من السماء ماء» هذا مثل للقرآن، والأودية مثل للقلوب، يريد: ينزل القرآن،
فتحمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشك والجهل. فهذا أحد المثلين.
والمثل الآخر: قوله عز وجل: ﴿وَمَا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾.
قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿يوقدون﴾ بآلاء لقوله تعالى: ﴿مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، ولا مخاطبة
ها هنا.

وقرأ الآخرون بالتاء ﴿وَمَا توقدون﴾، أي: ومن الذي توقدون عليه في النار.
والإيقاد: جعل النار تحت الشيء ليدوب.
﴿ابتغاء حلية﴾، أي لطلب زينة، وأراد الذهب والفضة؛ لأن الحلية تطلبُ منهما، ﴿أو متاع﴾
أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد، والنحاس، والرصاص، والصُّفْر، تذاب فيتخذ
منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها، ﴿زبدٌ مثله﴾..

﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، أي: إذا أذيبَ فله أيضاً زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي
من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل.

﴿فأما الزبد﴾، الذي علا السيل والفيلز، ﴿فيذهب جفاء﴾ أي: ضائعاً باطلاً، والجفاء ما رمى
به الوادي من الزبد، والقدر إلى جنباته.

يقال: جفا الوادي وأجفأ: إذا ألقى غثاءه، وأجفأت القدر وجفأت: إذا غلت وألقت زبدها،
فاذا سكنت لم يبق فيها شيء.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ
 وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ
 هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَلَوْ لَا الْأَلْبَابُ ﴿١٩﴾

معناه: إن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضئجل .

وقيل: «جُفَاءً» أي: متفرقاً. يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرقتة وذهبت به .

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَع النَّاسَ﴾، يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفرة والنحاس، ﴿فِيهِمْ كَثَرٌ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يبقى ولا يذهب .

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، جعل الله تعالى هذا مثلاً للحق والباطل، أي: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع، والحق كالماء والفلز يبقى في القلوب .

وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئاً وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات .

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، أجابوا، لرَبِّهِمْ، فأتاعوه، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾، أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداءً من النار، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾. قال إبراهيم النخعي: سوء الحساب: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له من شيء / ﴿وَمَا وَاهِمٌ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، الفراش، أي: بئس ما مهد لهم .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾، فيؤمن به ويعمل بما فيه، ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾، عنه لا يعلمه ولا يعمل به .

قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل .

وقيل: في عمار وأبي جهل^(١) .

فالأول حمزة أو عمار والثاني أبو جهل، وهو الأعمى .

أي: لا يستوي من يُصِرُّ الحق ويتبعه ومن لا يُصِرُّه ولا يتبعه .

﴿إِنَّمَا يَنْذَرُكَ﴾ يتعظ، ﴿أَوَلَوْ لَا الْأَلْبَابُ﴾. ذوو العقول .

(١) ذكر ذلك ابن عطية في الضرر الوجيز: ١٦٠/٨ ثم قال: «وهي - بعد هذا - مثال في جميع العالم» .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾، بما أمرهم الله تعالى به وفرضه عليهم فلا يخالفونه، ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾، وقيل: أراد العهد الذي أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من صلبه .
﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾، قيل: أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما .

والأكثرون على أنه أراد به (١) صلة الرّحم (٢) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد
ابن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا سفيان بن عيينة،
عن الزهري، عن أبي سلمة أن عبدالرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال - يعني عبدالرحمن - :
سمعت رسول الله ﷺ يقول: فيما يحكي عن ربه عز وجل: «أنا الله، وأنا الرحمن، وهي الرّحم،
شقت لها من اسمي اسماء، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» (٣) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، حدثني حميد
ابن زنجويه، حدثنا ابن أبي أويس (٤)، قال: حدثني سليمان بن بلال عن معاوية ابن أبي مزر، عن
سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ
منه قامت الرّحم فأخذت بحقوي الرحمن، فقال: مة، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة،
قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يارب، قال: فذلك لك»، ثم

(١) جملة «أراد به» ساقطة من «ب» .

(٢) ولم يذكر الطبري غيره، وأما ابن عطية فقال: «ووصل ما أمر الله به أن يوصل، ظاهرة في القربات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات». المهرر الوجيز ١٦٠/٨ .

وعلى ذلك فيدخل في معنى الآية أيضاً الإيمان بجميع الكتب والرسل وسائر ما يجب الإيمان به .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ٥٣٦/٨، وعبدالرزاق في مصنفه: ١٧٢/١١، وأخرجه أبو داود في الزكاة، باب صلة الرحمن: ٢٦٢/٢، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحمن: ٣٣/٦، وقال: حديث صحيح. قال المنذري: وفي تصحيحه نظر فإن يحيى بن معين قال: أبو سلمة بن عبدالرحمن لم يسمع من أبيه شيئاً، وذكر غيره أن أبا سلمة وأخاه لهما سماع من أبيهما .

وصححه الحاكم في المستدرک: ١٥٧/٤-١٥٨، وابن حبان ص (٤٩٨-٤٩٩) من موارد الظلمات، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ١٩٤/١، والمصنف في شرح السنة: ٢٢/١٣. وانظر: مجمع الزوائد: ١٤٩/٨ .

(٤) في «ب»: أوس .

قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم»^(١) (محمد - ٢٢).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أنبأنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا كثير بن عبدالله الشكري، حدثنا الحسن بن عبدالرحمن ابن عوف عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يُحاجُّ العباد، له ظهرٌ وبطنٌ، والأمانة، والرحمُ تنادي ألا مَنْ وصلني وصله الله ومَنْ قطعني قطعه الله»^(٢).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، أخبرنا حميد ابن زنجويه، حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني عُقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يُيسرَ له في رزقه ويُنسأَ له في أثره فليصل رحمه»^(٣).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد ابن عبدالعزيز البغوي، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا شعبة، عن عُيينة بن عبدالرحمن قال: سمعت أبي يحدث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ ذَنْبٍ أحرى أن يعجلَ الله لصاحبه العقوبةَ في الدنيا مع ما يدخرُ له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من وصل وصله الله: ٤١٧/١٠، وفي التفسير أيضاً، وأخرجه مسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها برقم (٢٥٥٤): ١٩٨٠-١٩٨١/٤ وليس فيه «فأخذت بحقوي الرحمن» وفي بعض الروايات «بحقو الرحمن» وفي بعضها «بمحبة الرحمن»، انظر: فتح الباري ٤١٧/١٠-٤١٨.

وأخرجه المصنف بهذا اللفظ في شرح السنة: ٢١/١٣، ثم قال: قيل في معنى التعلق بحقو الرحمن: إنه الاستجارة والاعتصام بالله سبحانه وتعالى، يقال: عُذْتُ بحقو فلان: إذا استجرت به. وقيل: الحقو: الإزار، وإزاره: عُرْه، ولأذت الرحم بعُرْه من القطيعة، كما جاء في الحديث في دعاء المشتكي: «أعوذ بعزة الله من شرِّ ما أجده» (أخرجه مالك، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه).

(٢) أخرجه المصنف في شرح السنة: ٢٢/١٣-٢٣، ونسبه السيوطي في الجامع الصغير للحكيم الترمذي في نوادره، ومحمد بن نصر في فوائده.

قال المناوي في «فيض القدير»: ٣١٧/٣ «وفيه كثير بن عبدالله الشكري، متكلم فيه»، وقال الذهبي في «الميزان»: ٤٠٩/٣: «كثير بن عبدالله، عن الحسن بن عبدالرحمن بن عوف، عن أبيه، وعنه عن مسلم بن إبراهيم، قال العقيلي: لا يصح إسناداه» وذكر له هذا الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم: ٤١٥/١٠، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم، برقم (٢٥٥٧): ١٩٨٢/٤، والمصنف في شرح السنة: ١٩٨/١٣.

وقوله: «يُنسأُ في أثره» معناه: يؤخر في أجله، يقال: نسأ الله في عمرك، ونسأ عمرك. والأثر هاهنا: آخر العمر، وسمي الأجل أثراً؛ لأنه يتبع العمر.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في النهي عن البغي: ٢٢٥/٧، والترمذي في صفة القيامة، باب انظروا إلى من أسفل منكم: =

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحى، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الزياتى، حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطع»^(١).

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزياتى، حدثنا أحمد بن إسحاق الصيدلاني، أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا عمرو بن عثمان قال سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبُدُ الله، لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»^(٢).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه حدثنا أبو يعلى وأبو نعيم قالوا: حدثنا قطر، عن مُجاهد، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكن الواصلُ الذي إذا قُطِعَتْ رَحْمَةُ وَصَلَّاهُ»^(٣)، [رواه محمد بن إسماعيل عن محمد بن كثير عن سُفيان عن قطر وقال: إذا قطعت رحمه وصلها]^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ .
﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾، على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله عز وجل. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: عن الشهوات. وقيل: عن المعاصي .
﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، طلب تعظيمه أن يخالفوه .

= ٢١٣/٧-٢١٤، وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه في الزهد، باب البغي، برقم (٤٢١١): ١٤٠٨/٢، وصححه الحاكم في المستدرک: ١٦٣/٤. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣٨/٥، والمصنف في شرح السنة: ٢٦/١٣.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم القاطع: ٤١٥/١٠، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، برقم (٢٥٥٦): ١٩٨١/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٦/١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة: ٢٦١/١٣، ومسلم في الإيمان باب بيان الإيمان الذي يُدْخِلُ الجنة، برقم (١٣): ٤٢/١-٤٣، والمصنف في شرح السنة: ٢١/١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ: ٤٢٣/١٠، والمصنف في شرح السنة: ٣٠/١٣.

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، يعني يؤدّون الزكاة .
 ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل، وهو معنى قوله: «لأن الحسنات يذهبن السيئات» (هود - ١١٤) .
 وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملت سيئة فاعمل بجانبها حسنة تمحها، السر بالسر والعلانية بالعلانية»^(١) .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب، حدثنا أبو الخير، أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة، فانفكت عنه حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت أخرى، حتى يخرج إلى الأرض»^(٢) .

وقال ابن كيسان: معنى الآية: يدفعون الذنب بالتوبة .
 وقيل: لا يكافون الشر بالشر، ولكن يدفعون الشر بالخير .
 وقال القتيبي: معناه: إذا سفة عليهم حلّموا، فالسفة: السيئة، والحلم: الحسنة .
 وقال قتادة: ردوا عليهم معروفاً، نظيره قوله تعالى: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» (الفرقان - ٦٣) .

وقال الحسن: إذا حرّموا أعطوا وإذا ظلّموا عَفُوا وإذا قُطِعُوا وصلوا .

قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة .

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، يعني الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب. ثم بين ذلك فقال :

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، بساتين إقامة / ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ١٩٠ ب

(١) أخرجه الإمام أحمد: ١٦٩/٥، قال الهيثمي في المجمع: (٨١/١٠): «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن شهر بن عطية حدث به عن أشياخه عن أبي ذر، ولم يسم أحداً» .

وروي الإمام أحمد عن عطاء مرسلاً في «الزهد»: إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية .
 قال العراقي: وفيه انقطاع . انظر: فيض القدير: ٤٠٦/١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ١٤٥/٤، وعزاه الهيثمي للطبراني، وقال: «وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح» .
 وأخرجه المصنف في شرح السنة: ٣٣٩/١٤ . وفيه ابن لهيعة .
 وانظر: مجمع الزوائد: ٢٠١/١٠ - ٢٠٢، فيض القدير للمناوي: ٥٢٠/٢ .

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾، قيل: من أبواب الجنة. وقيل: من أبواب القصور. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يقولون سلام عليكم.

وقيل: يقولون: سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافون منها. قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات، معهم الهدايا والتحف من الله عز وجل، يقولون سلام عليكم، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبدالله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن بقية بن الوليد، حدثني أرطاة بن المنذر قال: سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول: جلستُ إلى أبي أمانة فقال: إن المؤمن ليكون متكثراً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِمَاطَانِ من خَدَمٍ، وعند طرف السَّمَاطَيْنِ باب مَبُوبٌ^(١).

فَيُقْبَلُ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ يَسْتَأْذِنُ، فيقوم أقصى الخدم^(٢) إلى الباب، فإذا هو بالملك يستأذن، فيقول للذي يليه: ملك يستأذن ويقول الذي يليه للذي يليه ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، [فيقول أقربهم إلى المؤمن]^(٣): ائذنوا له، [ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له]^(٣) كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيُفْتَحُ له فيدخل، فيسلم ثم ينصرف^(٤).

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، هذا في الكفار. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض. وقيل: يقطعون الرحم^(٥)، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي

(١) باب مَبُوبٌ: مصنوع معقود، وإن شئت قلت: قد اتخذ له بواباً يحرسه.

(٢) في الأصل: أدنى الخدم. والمثبت من الدر المنثور والطبري: فهو أليق بالسياق.

(٣) ما بين القوسين من «ب».

(٤) أخرجه ابن جرير: ٤٢٥/١٦-٤٢٦، وفيه بقية بن الوليد: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وقد صرح هنا بالتحديث. ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الألهاني، قال: سمعت أبا أمانة، فذكر نحوه.

انظر: الدر المنثور: ٦٤٠/٤، تفسير ابن كثير: ٥١٢/٢، حاشية الشيخ محمود شاكر على الطبري في الموضع السابق.

(٥) انظر فيما سبق تفسير الآية (٢١) من السورة ص (٣١٠) مع التعليق.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
 الْآخِرَةِ إِلَّا لَآمَتَعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
 قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

الأرض ﴿٢٦﴾، أي: يعملون بالمعاصي، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، يعني: النار، وقيل:
 سوء المنقلب لأن منقلب الناس دُورهم .

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يُوسِّعُ على من يشاء ويُضيقُ على
 من يشاء .

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: مشركي مكة أشيروا وبَطَرُوا، والفرح: لذة في القلب بِتَيْلِ
 المشتى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام .

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: قليل ذاهب. قال الكلبي: كمثل السكرجة
 والقصة والقدرح والقدر ينتفع بها [ثم تذهب] (١) .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من أهل مكة، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [أي: يهدي إليه من يشاء بالإنابة. وقيل: يرشد إلى دينه من يرجع
 إليه بقلبه] (٢) .

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، في محل نصب، بدل من قوله: «من أناب»، ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾، تسكن، ﴿قُلُوبُهُمْ
 بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال مقاتل: بالقرآن، والسكون يكون باليقين، والاضطراب يكون بالشك، ﴿أَلَا بِذِكْرِ
 اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين .

قال ابن عباس: هذا في الحليف، يقول: إذا حلف المسلم (٣) بالله على شيء تسكن قلوبُ
 المؤمنين إليه (٤) .

فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال

— ٢)، فكيف تكون الطمأنينة والوجل في حالة واحدة؟

(١) ساقط من «أ» .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) في «ب»: المؤمن .

(٤) ساقط من «ب» .

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَى

قيل: الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وثوابه^(١) وكرمه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ابتداءً، ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ خبره.

واختلفوا في تفسير ﴿طُوبَى﴾^(٢).

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: فرَّحَ لهم وقرَّ عين.

وقال عكرمة: نِعَمَ ما لهم.

وقال قتادة: حسنى لهم.

وقال معمر عن قتادة: هذه كلمة عربية، يقول الرجل للرجل: طوبى لك أي أصبت خيراً.

وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة.

وقال الفراء: [أصله من الطيب، والواو فيه لضممة الطاء، وفيه لغتان، تقول العرب: طوباك

وطوبى لك أي لهم الطيب]^(٣).

﴿وَحُسُنَ مَا أَتَى﴾ أي: حسن المنقلب.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحيشية.

قال الريب: هو البستان بلغة الهند.

وروي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء قالوا: [طوبى شجر في الجنة تُظِلُّ الجنان كلها.

وقال عبيد بن عمير^(٣). هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي كل دار

وغرفة غصن منها لم يخلق الله لوناً ولا زهرة إلا وفيها منها إلا السواد، ولم يخلق الله تعالى فاكهة

ولا ثمرة إلا وفيها منها. تنبع من أصلها عينان: الكافور والسلسيل.

قال مقاتل: كل ورقة منها تُظِلُّ أمة عليها مَلَكٌ يُسَبِّحُ الله عز وجل بأنواع التسبيح^(٤).

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر في تفسير طوبى، والروايات، في: الطبري: ٤٣٤-٤٤٤، الدر المنثور: ٦٤٢/٤-٦٤٣.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) هذه الروايات، وغيرها من الروايات، التي تتضمن زيادات كثيرة عن الحديث الصحيح الذي سيأتي في تفسير «طوبى»،

وفيها مبالغات كثيرة، وقد ساقها الطبري، وتعقب بعضها الحافظ ابن كثير - رحمه الله - هذه الروايات من الاسرائيليات،

وحسبنا في تفسير «طوبى» الحديث الصحيح المتفق عليه الذي ساقه المصنف من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

وانظر: الاسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة ص (٣٢٣-٣٢٦).

وأشار ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٦٨/٨ إلى تلك الروايات والمبالغات التي مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ما طوى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(١).

وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: «طوى شجرة غرسها الله تعالى بيده، ونفخ فيها من رُوحه، تنبت الحُلِي والحُلل وإن أغصانها لَترى من وراء سور الجنة»^(٢).

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زياد مولى بني مخزوم، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة [لا يقطعها]^(٣)، اقرؤوا إن شئتم: «وظل ممدود» (الواقعة - ٣٠) فبلغ ذلك^(٤) كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام والقرآن على محمد ﷺ، لو أن رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرَمًا، إن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من رُوحه، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة^(٥).

وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن الأشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوى، يقول الله عز وجل لها: تفتقي لعبدي عما شاء فتنفتق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيته كما شاء، يفتق له عن الراحلة برحلتها وزمامها

= دار إلا وفيها من أغصانها، وأنها تثمر ثياب أهل الجنة، وأن منها الخيل بسرجهما ولُجُمهما... ونحو هذا مما لا يثبت سنده. (١) أخرجه الطبري: ٤٤٣/١٦-٤٤٤، والإمام أحمد في المسند: ٧١/٣، وابن حبان برقم (٢٦٢٥) ص (٦٥٢) من موارد الظمآن، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ٩١/٤ مطولاً. وانظر: كنز العمال: ٤٥٧/١٤، الدر المنثور: ٦٤٤/٤. والحديث من رواية «دراج» (أبو السَّمْح)، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، وهو إسناد ضعيف. ونقل الإمام عبد الله بن أحمد ابن حنبل عن أبيه أن دراجاً: روايته منكورة.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ٤٤٣/١٦، وفيه محمد بن زياد الجريري: وهو كذاب خبيث يضع الحديث. وفرات بن أبي الفرات: قال ابن معين عنه: ليس بشيء.

انظر تعليق الشيخ محمود شاكر في الموضع السابق.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) ساقط من «ب».

(٥) عزاه السيوطي بطوله في الدر المنثور لعبد بن حميد: ٦٤٩/٤، وقد أخرج عبد بن حميد في المنتخب ص (٤٢٤) القطعة الأولى منه، وأخرجه عن أنس ص (٣٥٦).

وأخرج القطعة الأولى منه إلى قوله: (اقرؤوا إن شئتم...): البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: ٣١٩/٦، ومسلم في الجنة باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها... برقم (٢٨٢٦): ٢١٧٥/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٠٧/١٥.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٠﴾

[وهيئتها] ^(١) كما شاء وعن الثياب ^(٢).

قوله عز وجل ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾: كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة،
﴿قَدْ خَلَتْ﴾، مضت، ﴿مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا﴾، لتقرأ، ﴿عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ
بِالرَّحْمَنِ﴾.

قال قتادة، ومقاتل، وابن جريج: الآية مبدئية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن
عمرؤ لما جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ / لعلني
رضي الله عنه: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة - يعنون
مسيلمة الكذاب - اكتب كما كنت تكتب: «باسمك اللهم»، فهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ
بِالرَّحْمَنِ﴾ ^(٣).

والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعُو
يا الله يارحمَن، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين؛ يدعو الله، ويدعو إلهاً آخر يسمى
الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ
ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ^(٤) (الإسراء - ١١٠).

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي
ﷺ: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن ^(٥)؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾، لهم يا محمد إن الرحمن الذي
أنكرتم معرفته، ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعتمدت ﴿وَالِيَهُ مَتَابُ﴾، أي: توبتي ومرجعي.

(١) ساقط من (ب).

(٢) وأخرجه الطبري: ٤٣٨/١٦، وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف. وعزاه السيوطي أيضاً: لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم.

انظر: الدر المنثور: ٦٤٣/٤.

(٣) أخرجه الطبري: ٤٤٥/١٦-٤٤٦، وزاد السيوطي نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، وابن المنذر عن ابن جريج.
انظر: الدر المنثور: ٦٥٠/٤، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٥)، القرطبي: ٣١٧/٩-٣١٨، البحر المحيط: ٣٩٠/٥.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٣١٨/٩، ٦٤/١٣، البحر المحيط: ٣٩٠/٥.

(٥) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٣١٥)، القرطبي: ٣١٨/٩، البحر المحيط: ٣٩٠/٥.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ اللَّهُ
الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ
الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾، الآية. نزلت في نفر من مشركي مكة؛ منهم أبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية؛ جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا إلى النبي ﷺ، فأتاهم، فقال له عبدالله بن أبي أمية: إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فأذهبنا عنا حتى تنفسح، فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، لنغرس فيها الأشجار ونزرع، ونتخذ البساتين، فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود عليه السلام حيث سخر له الجبال تُسبح معه، أو سخر لنا الريح فركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا، فقد سخرت الريح لسليمان كما زعمت، ولست بأهون على ربك من سليمان، وأحيى لنا جدك قصياً أو من شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحق ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾^(١) فأذهبت عن وجه الأرض، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾، أي: شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ واختلفوا في جواب «لو»:

فقال قوم: جوابه محذوف، اكتفى بمعرفة السامعين مراده^(٢) وتقديره: لكان هذا القرآن، كقول الشاعر: (٣)

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ * سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ تَجِدْ لَكَ مَذْفَعًا
أراد: لرددناه، وهذا معنى قول قتادة قال: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم .
وقال آخرون: جواب لو مقدم. وتقدير الكلام: وهم يكفرون بالرحمن «وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ
بِهِ الْجِبَالُ»^(٤)، كأنه قال: لو سيرت به الجبال «أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ» لكفروا

(١) انظر الطبري: ٤٤٩/١٦-٤٥٠، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٦)، تفسير القرطبي: ٣١٨/٩، البحر المحيط: ٣٩١/٥، الدر المنثور: ٦٥١/٤-٦٥٣، تفسير ابن كثير: ٤١٦/٢ .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٨/١٦-٤٤٩، البحر المحيط: ٣٩١/٥ .

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص (١١٣). وانظر: الطبري: ٢٧٧/١٥، ٤٤٨/١٦ .

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٦/١٦-٤٤٧، البحر المحيط: ٣٩١/٥ .

بالرحمن ولم يؤمنوا، لما سبق من علمنا فيهم، كما قال: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا» (الأنعام - ١١١) ثم قال:

﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾، أي: في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل .

﴿أَفَلَمْ يَأْسِرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم. قال الكلبي: هي لغة النَّحَع (١).

وقيل: لغة هوازن، يدل عليه قراءة ابن عباس: «أفلم يتبين الذين آمنوا» (٢).

وأنكر الفراء أن يكون ذلك بمعنى العلم، وزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول: يتست، بمعنى: علمت، ولكن معنى العلم فيه مضمر (٣).

وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوهم فيؤمنوا فنزل: ﴿أَفَلَمْ يَأْسِرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء، أي لم يأسروا علماء، وكل من علم شيئاً يأس من خلافه، يقول: ألم يأسهم العلم: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةً﴾ أي: نازلة وداهية تفرعهم من أنواع البلاء، أحياناً بالجذب، وأحياناً بالسلب، وأحياناً بالقتل والأسر.

وقال ابن عباس: أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم .

﴿أَوْ تَحُلْ﴾، يعني: السرية والقارعة، ﴿قَرِيْباً مِنْ دَارِهِمْ﴾، وقيل: أو تحل: أي تنزل أنت يا محمد بنفسك قريباً من ديارهم، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسليّةً لنبيه ﷺ:

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٠/٦، ٤٥٢-٤٥٣ مع تعليق الشيخ عمود شاكر .

(٢) الطبري: ٤٥١/١٦ .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٥١/١٦-٤٥٢ .

هذا وقد رجّح الطبري القول الأول الذي قال عنه البغوي إنه قول أكثر المفسرين، فقال: (٤٥٥/١٦): «والصواب من القول في ذلك ما قاله أهل التأويل، أن تأويل ذلك: «أفلم يتبين ويعلم»، لإجماع أهل التأويل على ذلك» .

فتأويل الكلام إذاً: ولو أن قرآناً سوى هذا القرآن كان سبّرت به الجبال، لسبّرت بهذا القرآن، أو قطعت به الأرض، لقطعت بهذا، أو كلّم به الموتى، لكلم بهذا، ولكن لم يفعل ذلك بقرآن قبل هذا القرآن فيفعل بهذا «بل الله الأمر جميعاً» يقول: ذلك كله إليه ويده، يهدي من يشاء إلى الإيمان فيوقه له، ويضل من يشاء فيخذله، أفلم يتبين الذين آمنوا بالله ورسوله = إذ طمعوا في إجابتي من سأل نبيهم ما سأله من تسمير الجبال عنهم، وتقريب أرض الشام عليهم، وإحياء موتاهم = أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان به من غير إيجاد آية ولا إحداث شيء مما سألوهم إحدائهم؟ يقول تعالى ذكره: فما معنى محبتهم ذلك، مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إليّ ويدي، أنزلت آية أو لم أنزلها، أهدي من أشاء بغير إنزال آية، وأضل من أردت مع إنزالها .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ
 كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
 لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَهْرِ مِّنَ الْقَوْلِ
 بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن
 هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿ولقد استهزى برسول من قبلك﴾، كما استهزؤوا بك، ﴿فأملت للذين كفروا﴾، أمهلتهم وأطلت لهم المدة، ومنه «المَلَوَان»، وهما: الليل والنهار، ﴿ثم أخذتهم﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، ﴿فكيف كان عقاب﴾، أي: عقابي لهم .

﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾، أي: حافظها، ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما عملت. وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه .
 ﴿وجعلوا لله شركاء قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بينوا أسماءهم .
 وقيل: صفوهم ثم انظروا هل هي أهل لأن تُعبد؟

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ أي: تخبرون الله تعالى: ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾، فإنه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا في الأرض لها غيره، ﴿أَمْ بظاهر﴾ يعني: أَمْ تتعلقون بظاهر، ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾، مسموع، وهو في الحقيقة باطل لا أصل له .

وقيل: يبطل من القول، قال الشاعر :

وَعَيْرِنِي الْوَاشُونَ أَنِّي أُجِبُّهَا * وَتِلْكَ شِكَاةُ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارُهَا
 أي: زائل^(١) .

﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾، كيدهم. وقال مجاهد: شركهم وكذبهم على الله .
 ﴿وصدّوا عن السبيل﴾، أي: صرفوا عن الدين .

(١) قال أبو منصور في تهذيب اللغة: «الشكاة: توضع موضع العيب والذم؛ وعير رجل عبد الله بن الزبير بأمه، فقال: يابن ذات النطاقين. فتمثل عبد الله بقول الهذلي: وتلك شكاة...»

أراد: أن تعيره إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعاري، ومعنى قوله: «ظاهر عنك عارها» أي: ناب. أراد: أن هذا ليس عاراً يُلزق به وأنه يفتخر بذلك...»

انظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٤٠/١٤-٤٤١ .

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾
 ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ
 وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِ ﴿٣٦﴾

قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿وَصَدَّوْا﴾ وفي حم المؤمن ﴿وَصَدَّ﴾ بضم الصاد فيهما، وقرأ
 الآخرون بالفتح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الحج - ٢٥)، وقوله «الذين
 كفروا وصدوا عن سبيل الله» (النحل - ٨٨ وغيرها).

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾، بخذلانه إِيَّاهُ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، بالقتل والأسر، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾، أشد، ﴿وَمَا لَهُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾، مانع يمنعهم من العذاب.

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة، كقوله تعالى: «ولله المثل
 الأعلى» (النحل - ٦٠) أي: الصفة العليا، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: صفة الجنة التي وعد
 المتقون أن الأنهار تجري من تحتها.

وقيل: «مثل» صلة مجازها «الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار».

﴿أَكُلُهَا دَائِمٌ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، ﴿وَزُلْزِلَ﴾ أي: ظلها ظليل، لا يزول، وهو
 رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى^(١).

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني: الجنة، ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن، وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ

(١) قال شارح الطحاوية عند قول الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبدان...» قال: ص (٤٩١-٤٩٣).
 «فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا
 ففي الجنة خالدون فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) أي غير مقطوع.
 وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأييد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: (لا يدورون فيها الموت إلا الموتة الأولى) (الدخان - ٥٦).
 والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله: «من يدخل الجنة يتنعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت» (رواه مسلم)،
 وقوله: «ينادي مناد: يا أهل الجنة إن لكم أن تصنحوا فلا تسقموا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تحيوا فلا تموتوا
 أبداً» (رواه مسلم).

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

بما أنزل إليك ﴿٣٨﴾ من القرآن، ﴿ومن الأحزاب﴾ يعني: الكفار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ،
وهم اليهود والنصارى، ﴿من ينكر بعضه﴾، هذا قول مجاهد وقتادة (١).

١٩١ / ب

وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم / عبدالله بن سلام
وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن
فرحوا به فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب
من ينكر بعضه﴾ (٢)، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح: بسم
الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا الرحمن الإمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله
عز وجل (٣): «وهم بذكر الرحمن هم كافرون» (الأنبياء - ٣٦) «وهم يكفرون بالرحمن» (الرعد
- ٣٠).

وإنما قال «بعضه» لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن.
﴿قل﴾، يا محمد، ﴿إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وإليه مآب﴾، أي:
مرجعي.

﴿وكذلك أنزلناه حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، يقول: كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد، فأنكره الأحزاب،
كذلك أنزلنا الحكم والدين عربياً. نُسِبَ إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب.
وقيل: نظم الآية: كما أنزلت الكتب على الرسل بلغاتهم، فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكماً
عربياً.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾، في الملة. وقيل: في القبلة، ﴿بعد ما جاءك من العلم مالك من
الله من ولي ولا واق﴾، يعني: من ناصر ولا حافظ.

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ﴾، روي أن اليهود، - وقيل: إن المشركين - قالوا:

(١) انظر: الطبري: ٤٧٣/١٦، الدر المنثور: ٦٥٨/٤.

(٢) ذكره الماوردي واختاره الزمخشري. انظر: البحر المحيط: ٣٩٦/٥، المهر الوجيز: ١٧٩/٨.

(٣) انظر فيما سبق تفسير الآية (٣٠) من السورة ص (٣١٨).

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

إنَّ هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾^(١)، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون .

﴿وما كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، هذا جواب عبدالله بن أبي أمية. ثم قال :

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، يقول لكل أمر قضاءه الله كتابٌ قد كتبه فيه ووقت يقع فيه .

وقيل: لكل أَجَل أَجَلُهُ الله كتابٌ أثبت فيه .

وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: أي، لكل كتاب أَجَلٌ ومدة، أي: الكتب المنزلة لكل واحد

منها وقت ينزل فيه .

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم ويعقوب ﴿ويُثَبِّتُ﴾

بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد .

واختلفوا في معنى الآية :

فقال سعيد بن جبير، وقادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله، ويثبت

ما يشاء منها فلا ينسخه^(٢) .

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة^(٣) .

وروي عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النَّفْسِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ

بأربعين، أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: ياربُّ أَشَقِيَّيْ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَكْتُبَانِ، فيقول: أَنِي رَبُّ أَذْكَرٌ أَمْ أَثْنَى؟

فَيَكْتُبَانِ، وَيُكْتُبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطَوَّى الصَّحْفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»^(٤) .

وعن عمر وابن مسعود - رضي الله عنهما - أنهما قالَا: يمحو السعادة والشقاوة أيضاً، ويمحو

الرزق والأجل ويثبت ما يشاء .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت

كتبتنني في أهل السعادة فأثبتتنني فيها، وإن كنت كتبت عليَّ الشقاوة فامحني، وأثبتتنني في أهل السعادة

والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. ومثله عن ابن مسعود .

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٣١٧) عن الكلبي بدون إسناد، وانظر: تفسير القرطبي: ٣٢٧/٩، البحر المحيط: ٣٩٧/٥ .

(٢) أخرجه الطبري: ٣٩/١٦-٤٠ .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٨٥/١٦-٤٨٦، وسائر الأقوال في تفسير الآية في الصفحات التالية منه، وانظر: الدر المنثور: ٦٦٥-٦٥٩/٤ .

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، برقم (٢٦٤٤): ٢٠٣٧/٤ .

وفي بعض الآثار: أن الرجل يكون قد بقي من عُمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فترد إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمُدُّ إلى ثلاثين سنة .
 أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني زيادة بن محمد الأنصاري، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عزَّ وجلَّ في آخر ثلاث ساعات يَتَّقِينَ من الليل، فينظر في الساعة الأولى منهن في أم الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت»^(١) .
 وقيل: معنى الآية: إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم، فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قوله: أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحوها من كلام هو صادق فيه، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، هذا قول الضحاك والكلبي .
 وقال الكلبي: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب .

وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعة الله عزَّ وجلَّ فهو الذي يثبت .
 وقال الحسن: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ أي من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجيء أجله إلى أجله .

وعن سعيد بن جبير قال: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها .

وقال عكرمة: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من الذنوب بالتوبة، ويثبت بدل الذنوب حسنات، كما قال الله تعالى: «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» (الفرقان - ٧٠) . وقال السدي: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ يعني القمر ﴿ويثبت﴾ يعني الشمس، بيانه قوله تعالى: «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة» (الإسراء - ١٢) .

وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم، فمن أراد موته محاه^(٢) فأمسكه،

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٤٨٩/١٦، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري: منكر الحديث .

قال المهيمني في المجمع: (١٥٤/١٠ - ١٥٥): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري بنحوه، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث» .

(٢) في «ب»: فجأة .

وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٢﴾

ومن أراد بقاءه أثبتته وردّه إلى صاحبه، بيانه قوله عز وجل: «اللّٰهُ يتوفى الأنفس حين موتها» الآية (الزمر - ٤٢). ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير .

وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هما كتابان: كتاب سوى أم الكتاب، يمحو منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب الذي لا يُغيّر منه شيء .

وعن عطاء عن ابن عباس قال: إن الله تعالى لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت، لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ . وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله، ما هو خالق، وما تخلقه عاملون^(١) .

﴿وَأَمَّا ثُرَيَّتُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ﴾، من العذاب قبل وفاتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، ليس عليك إلا ذلك، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، الجزاء يوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أهل مكة، الذين يسألون محمداً ﷺ الآيات، ﴿أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار^(٢) الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ففتّحها محمد أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم، أفلا يعتبرون؟ هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة^(٣) .

(١) ورجح الطبري من هذه الأقوال قول الحسن ومجاهد، لأن الله تعالى ذكره توعد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة، وتهددهم بها، وقال لهم: «وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب»، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلاً مثبتاً في كتاب، هم مؤخرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شاء من قد دنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك ماله، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك مَحْوُهُ، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه . وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله ﷺ. ثم ساق حديث أبي الدرداء الذي سبق تخريجه آنفاً . انظر: تفسير الطبري: (٤٨٨/١٦-٤٨٩) .

(٢) في «ب»: بلاد .

(٣) انظر: الطبري: ٤٩٣/١٦-٤٩٤ .

وقال قوم: هو خراب / الأرض، معناه: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ فَنَجْزِيهَا، وَتُهْلِكُ أَهْلَهَا، ١٩٢/أ
أَفَلَا يَخَافُونَ أَن نَفْعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ^(١)؟

قال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها^(٢).

وعن عكرمة قال: قبض الناس. وعن الشعبي مثله.

وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء^(٣).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِرَاعًا يَنْتَرَعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُسَاءَ جُهَاًلًا فَاسْتَلَوْا فَافْتَوُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(٤).

وقال الحسن: قال عبدالله بن مسعود: موث العالم ثلثة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار^(٥).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يُقبض وقبضه ذهاب أهل^(٦).

وقال علي رضي الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كف لم تعد.

وقال سليمان: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس.

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم^(٧).

(١) الطبري: ٤٩٤/١٦.

(٢) انظر: الطبري ٤٩٥/١٦.

(٣) تفسير الطبري: ٤٩٧/١٦، الدر المنثور: ٦٦٥-٦٦٦/٤، وأخرج الحاكم في المستدرک: ٣٥٠/٢ عن ابن عباس في معنى الآية قال: ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها.

(٤) أخرجه البخاري في العلم، باب كيف يقبض العلم: ١٩٤/١، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه، برقم (٢٦٧٣): ٤/٢٠٥٨، والمصنف في شرح السنة: ٤/١.

(٥) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم ص (٢٤٠) عن الحسن.

(٦) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ٢٥٢/١٠، والطبراني في الكبير: ١٨٩/٩، والدارمي في مقدمة السنن: ٥٤/١، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: ٤٣/١، والبيهقي في المدخل إلى السنن ص (٢٧٢) وقال: هذا مرسل، وروي موصولاً من طريق الشاميين. وأنظر تعليق الدكتور محمد الأعظمي في الموضع نفسه.

(٧) قال الطبري في التفسير: (٤٩٧/١٦-٤٩٨): «وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»، بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقهرهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك، فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم إياهم؟ وذلك أن الله توعد الذين سألوا رسوله الآيات من مشركي قومه بقوله: «وإما نرينك =

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُ الْكَافِرِ
لِمَنْ عُقِبَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾، لا رادُّ لقضائه، ولا ناقض لحكمه، ﴿وهو سريعُ الحساب﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصالُ المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي: عند الله جزاء مكرهم. وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعاً، بيده الخير والشر، وإليه النفع والضرر، فلا يضر مكر أحدٍ أحداً إلا بإذنه.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُ الْكَافِرِ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿الكافر﴾ على التوحيد، وقرأ الآخرون: ﴿الكفار﴾ على الجمع. ﴿لِمَنْ عُقِبَ الدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، إني رسوله إليكم ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، يريد: مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضاً على ذلك.
قال قتادة: هو عبدُ الله بنُ سلام^(١).

وأنكر الشعبي هذا وقال: السورة مكية، وعبدُ الله بن سلام أسلم بالمدينة.
وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ فقال:
وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية^(٢)؟

وقال الحسن ومجاهد: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو الله عزَّ وجلَّ^(٣)، يدلُّ عليه: قراءة عبد الله بن عباس، ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ﴾، بكسر الميم والدال، أي: من عند الله عزَّ وجلَّ، وقرأ الحسن

بعض الذي يُعَدُّهم أو تنويفك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ثم وبُخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم بما يعانين من فعل الله بضربائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات فقال: «أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها» بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك.

(١) أخرجه الطبري عن قتادة: ٥٠٣/١٦، وحكاه أيضاً عن عبد الله بن سلام نفسه، ومجاهد.

(٢) أخرجه الطبري: ٥٠٥/١٦، ٥٠٦.

(٣) انظر: الطبري: ٥٠٤/١٦، ٥٠٦.

وسعيد بن جبير ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ﴾ بكسر الميم والذال ﴿عُلِّمَ الْكِتَابَ﴾ على الفعل المجهول^(١)، دليل هذه القراءة قوله تعالى: «وعلمناه من لدنا علماً» (الكهف - ٦٥) وقوله: «الرحمن علم القرآن» (الرحمن - ٢، ١) ..

(١) قال الطبري: وقد روي عن رسول الله ﷺ خير بتصحيح هذه القراءة وهذا التأويل، غير أن في إسناده نظراً. ثم ساق حديثاً منقطع الإسناد. انظر: تفسير الطبري ٥٠٦/١٦ .
وقال الهيثمي فيه: «رواه أبو يعلى، وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك» انظر: مجمع الزوائد: ١٥٥/٧ .

سُورَةُ اِبْرٰهِيْمَ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مكية [وهي إحدى وخمسون] ^(١) آية إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ إلى قوله: ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ-كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

﴿الرَّكِتَابُ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾، يا محمد يعني: القرآن، ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان ^(٣)، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، [بأمر ربهم] ^(٤).

وقيل: بعلم ربهم ^(٥).

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرج النحاس في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت بمكة سوى آيتين، وهما: ﴿ألم تر إلى الذين...﴾ نزلتا في قتل بدر من المشركين.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وعن الزبير: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة. قال ابن الجوزي: وهي مكية من غير خلاف علمناه بينهم إلا ما روي عن ابن عباس وقتادة.. انظر: الدر المنثور: ٣/٥، المحرر الوجيز: ١٩٢/٨، البحر المحيط: ٤٠٣/٥، زاد المسير: ٣٤٣/٤.

(٣) انظر: الطبري: ٥١١/١٦-٥١٢.

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) قال أبو جعفر الطبري في التفسير: (٥١٢/١٦): «وأضاف تعالى ذكره لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم لهم بذلك، إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خلقه، والموفق من أحبّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهم ما لهم فيه وعليهم. فَيَبَيِّنُ بذلك صحة قول أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كسباً، وإلى الله جل ثناؤه إنشاءً وتدبيراً، وفساد قول أهل القدر الذين أنكروا أن يكون لله في ذلك صنعاً».

اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢﴾

﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي: إلى دينه، و«العزيز»، هو الغالب، و«الحميد»: هو المستحق
للحمد .

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ قرأ أبو جعفر، وابن عامر: ﴿اللَّهُ﴾ بالرفع على الاستئناف، وخبره فيما بعده .
وقرأ الآخرون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد^(١) .
وكان يعقوب إذا وصل خفض .

وقال أبو عمرو: الخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد^(٢)، ﴿الذي
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾^(٣) .
﴿الذين يستحبون﴾، يختارون، ﴿الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله﴾، أي:

(١) انظر: الطبري: ٥١٢/١٦-٥١٣ .

(٢) قال الطبري: (٥١٣/١٦-٥١٤): «وقد اختلف أهل العربية في تأويله إذا قرئ كذلك :

فذكر عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقرؤه بالخفض، ويقول: معناه: بإذن ربهم إلى صراط (الله) العزيز الحميد الذي
له ما في السموات. ويقول: هو من المؤخر الذي معناه التقديم، ويمثله بقول القائل: «مرت بالظريف عبدالله»، والكلام
الذي يوضع مكان الاسم النعت، ثم يجعل الاسم مكان النعت، فيتبع إعرابه إعراب النعت الذي وضع موضع الاسم،
كما قال بعض الشعراء :

لو كنت ذا ثبيل وذا شريب • ما خفت شذات الخبيث الذئب

وأما الكسائي، فإنه كان يقول فيما ذكر عنه، من خفض أراد أن يجعله كلاماً واحداً، وأتبع الخفض الخفض، وبالخفض
كان يقرأه ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان؛ قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القراء،
معناها واحد، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب .

وقد يجوز أن يكون الذي قرأ بالرفع أراد معنى من خفض في إتباع الكلام بعضه بعضاً، ولكنه رفع لانفصاله من الآية
التي قبله، كما قال جل ثناؤه: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم» إلى آخر الآية ثم قال: «التائبون العابدون» (سورة
التوبة: ١١١-١١٢) .

(٣) قال الطبري: (٥١٤/١٦): ومعنى قوله: «اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ»، الله الذي يملك جميع ما في السموات
وما في الأرض .

يقول لنبه محمد ﷺ: أنزلنا إليك هذا الكتاب لدعو عبادي إلى عبادة من هذه صفته، ويدعوا عبادة من لا يملك لهم
ولا لنفسه ضرراً ولا نفعاً من الآلهة والأوثان. ثم توعد جل ثناؤه من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه
من إخلاص التوحيد له، فقال: «وويل للكافرين من عذاب شديد»، يقول: الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم،
لمن جمعد وحدانيته، وعبد معه غيره، من عذاب الله الشديد .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢﴾

يمنعون الناس عن قبول دين الله، ﴿ويغونها عوجاً﴾ أي: يطلبونها زيغاً وميلاً، يريد: يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد .

وقيل: الهاء راجعة إلى الدنيا، معناه: يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق، أي: لجهة الحرام. ﴿أولئك في ضلالٍ بعيدٍ﴾ (١) .

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، بلغتهم ليفهموا عنه . فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟

قيل: بُعث من العرب بلسانهم، والناس تبع لهم، ثم بث الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عز وجل ويترجمون لهم بألسنتهم (٢) .

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان بالدعوة، ﴿وذكّرهم بأيام الله﴾، قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله (٣) .

(١) يعني: هؤلاء الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، هم في ذهابٍ عن الحق بعيد، وأخذ على غير هدى، وجورٍ عن قصد السبيل .

انظر: تفسير الطبري: ٥١٥/١٦ .

(٢) أورد محمد بن أبي بكر الرازي هذا السؤال مطولاً، وأجاب عنه من وجوه :
الأول : إن نزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام بلسان واحد كافٍ، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن، ويكفي التطويل، كما جرى في القرآن العزيز .

الثاني : أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف .
الثالث : أنه لو نزل بألسنة الناس وكان معجزاً في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمراً قريباً من القسر والإجاء، وبعثة الرسل لم تُبَنّ على القسر والإجاء، بل على التمكن من الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد كافياً كان أولى الألسنة قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه .

انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، لمحمد بن عبد القادر الرازي الحنفي ص (١٥٧-١٥٨) .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٢٠-٥٢٣، الدر المنثور: ٦/٥ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ
بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ
وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة. يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعهم، وإنما أراد
بما كان في أيام الله من النعمة والحنة، فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم^(١).
﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، و«الصَّبَّارُ»: الكثير الصبر، و«الشكور»: الكثير
الشكر، وأراد: لكل مؤمن، لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(٢) إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم
سوء العذاب ويذبحون أبناءكم، قال الفراء: العلة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل
فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح، وبالتذبيح، وحيث طرح الواو في «يذبحون»
و«يقتلون» أراد تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم^(٣)، «وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ»، يتركوهن أحياء
﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٤).

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾، أي: أعلم، يقال: أذَّن وتأذَّن بمعنى واحد، مثل أَوْعَدَ وَتَوَعَّدَ، ﴿لَّئِنْ

(١) ورد الطبري هذا القول والشاهد الذي استشهدوا به على ذلك، وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: (٢٠٣/٨): «ولفظه «الأيام»

تعم المعنيين، لأن التذكير يقع بالوجهين جميعاً».

(٢) أخرج الطبري عن ابن عينة في تفسيرها، قال: أيادي الله عندهم وأيامه.

(٣) وزاد الطبري ذلك بيانا فقال في التفسير: (٥٢٤/١٦):

«وَأَدْخَلْتُ الْوَوَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ بِقَوْلِهِ: «وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» الْخَبْرُ عَنْ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ كَانُوا يَعَذِّبُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ غَيْرِ التَّذْبِيحِ وَبِالتَّذْبِيحِ. وَأَمَّا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ جَاءَ بِغَيْرِ الْوَوِ: «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» (البقرة - ٤٩) فِي مَوْضِعٍ، وَفِي مَوْضِعٍ: «يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ» (الأعراف - ١٤١)، وَلَمْ تَدْخُلِ الْوَوُ فِي الْمَوَاضِعِ
الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ فِيهَا لِأَنَّهُ أُرِيدَ بِقَوْلِهِ: «يَذْبَحُونَ» وَبِقَوْلِهِ: «يَقْتُلُونَ»: تَبْيِينُهُ صِفَاتِ الْعَذَابِ الَّتِي كَانُوا يَسُومُونَهُمْ. وَكَذَلِكَ
الْعَمَلُ فِي كُلِّ جُمْلَةٍ أُرِيدَ تَفْصِيلُهَا، فَبِغَيْرِ الْوَوِ تَفْصِيلُهَا، وَإِذَا أُرِيدَ الْعَطْفُ عَلَيْهَا بِغَيْرِهَا وَغَيْرِ تَفْصِيلِهَا فَبِالْوَوِ».

وراجع ما كتبه - بتفصيل أوسع - أبو جعفر بن إبراهيم بن الزبير الفرناطي في كتابه «ملاك التأويل» تحقيق د. محمود
كامل أحمد: ٥٧-٥٣/١.

(٤) يقول تعالى: فيما يصنع بكم آل فرعون من أنواع العذاب، بلاء لكم من ربكم عظيم، أي: ابتلاء واختبار لكم، من ربكم
عظيم. وقد يكون «البلاء» في هذا الموضع ثغماً، وقد يكون من البلاء الذي يصيب الناس من الشدائد.

انظر: تفسير الطبري: ٥٢٥/١٦.

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
 نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
 اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا
 أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٢﴾

شكرتم ﴿١﴾ نعمتي فأنتم وأطعتم ﴿٢﴾ لأزيدنكم ﴿٣﴾ في النعمة .

وقيل: الشكر: قيد الموجود، وصيد المفقود .

وقيل: لكن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب .

﴿ولئن كفرتم﴾، نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها، ﴿إن عذابي لشديد﴾ (١) .

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، أي: غني عن

خلقه، حميد محمود في أفعاله، لأنه فيها متفضل وعادل .

﴿لم يأتكم نبا الذين﴾، خبر الذين، ﴿من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم

ب/١٩٢

لا يعلمهم إلا الله﴾، يعني: من كان بعد قوم نوح وعاد / وثمود .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ثم قال: كذب النسأبون (٢) .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم

إلا الله تعالى (٣) .

وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، وكذلك في حق النبي

ﷺ لأنه لا يعلم أولئك الآباء أحد إلا الله عز وجل .

(١) قال الطبري: (٥٢٨/١٦): وقوله: «ولئن كفرتم...» يقول: ولئن كفرتم، أيها القوم، نعمة الله، فجحدتموها بترك شكره عليها

وخلافه في أمره ونبيه، وركوبكم معاصيه = «إن عذابي لشديد»، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي .

(٢) أخرجه الطبري: ٥٢٩/١٦ و ٥٣٠، وزاد السيوطي نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور: ٩/٥ .

(٣) وروي عن ابن عباس أنه قال: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله» .

وحكى عنه المهدوي أنه قال: «كان بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون»، وقال ابن عطية بعد أن ساق هاتين الروايتين

في المحرر الوجيز: ٢٠٦/٨: «وهذا الوقوف على عدتهم بعيد، ونفْي العلم بها جملةً أصح، وهو لفظ القرآن» .

ونقل ابن الجوزي في زاد المسير: (٣٤٨/٢) عن ابن الأباري، في تفسير الآية، قال: أي: لا يحصي عددهم إلا هو، على

أن الله تعالى أهلكت أمتاً من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم، وعُفَّت آثارهم، فليس يعلمهم أحد إلا الله .

وانظر: تفسير القرطبي: ٣٤٤/٩، ٣٤٥ .

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ
مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ
أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ بالدلالات الواضحات، ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾، قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً^(١) كما قال «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» (آل عمران - ١١٩). قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم^(٢). قال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به^(٣)، يقال: رددت قول فلان في فيه أي كذبت به.

وقال الكلبي: يعني أن الأمم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم، أي: وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة إلى الرسل أن اسكتوا.

وقال مقاتل: فردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك^(٤). وقيل: الأيدي بمعنى النعم. معناه: ردوا ما لو قبلوا كانت أيادي ونعماً في أفواههم، أي: بأفواههم، يعني بالسننهم.

﴿وقالوا﴾ يعني الأمم للرسل، ﴿إنا كفونا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾، موجب للريبة موقع للتهمة.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾، هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه، ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، خالقهما^(٥)، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، أي: ذنوبكم و«من» صلة،

(١) أخرجه عبدالرزاق، والفرجاني، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وصححه الحاكم في المستدرک، قال الهيثمي: «رواه الطبراني عن شيخه عبدالله بن محمد وهو ضعيف» انظر: الدر المنثور: ١٠/٥، زاد المسير: ٣٤٨/٤، جمع الزوائد: ٤٣/٧.

(٢) انظر: زاد المسير: ٣٤٩/٤، البحر المحیط: ٤٠٨/٥.

(٣) انظر: الدر المنثور: ١٠/٥، وقد عزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولأبي عبيد وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) انظر: البحر المحیط: ٤٠٨/٥.

وقال الطبري في التفسير: (٥٣٥/١٦): «وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل هذه الآية: القول الذي ذكرناه عن عبدالله بن مسعود: أنهم ردوا أيديهم في أفواههم، فعضوا عليها، غيظاً على الرسل، كما وصف الله جل وعز به إخوانهم من المنافقين، فقال: (وَإِذَا تَخَلَّوْا عَنْكُمْ الْآنَامِلُ مِنَ الْغِيْظِ) (سورة آل عمران - ١١٩)، فهذا هو الكلام المعروف، والمعنى المفهوم من «رد اليد إلى الفم».

(٥) في «ب»: خالق السموات والأرض.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ
وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾، إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب .
﴿قالوا﴾، للرسول: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾، في الصورة، ولستم ملائكة وإنما، ﴿تريدون﴾،
بقولكم، ﴿أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسطان مبین﴾، حجة بينة على صحة دعواكم .
﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾، بالنبوة
والحكمة، ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (١) .
﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ وقد عرفنا أن لا تنال شيئاً إلا بقضائه وقدره، ﴿وقد هدانا
سبلنا﴾، بين لنا الرشد، وبصراً طريق النجاة. ﴿ولنصبرن﴾، اللام لام القسم، مجازة: والله لنصبرن،
﴿على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ .
﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا﴾، يعنون: إلا أن
ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا (٢) .
﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ أي: من بعد هلاكهم.

(١) أي: وما كان لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان على ما ندعوكم إليه «إلا بإذن الله»، يقول: إلا بأمر الله لنا بذلك «وعلى الله
فليتوكل المؤمنون» يقول: وبالله فليثق به من آمن به وأطاعه، فإننا به نثق، وعليه نتوكل .

انظر: تفسير الطبري: ٥٣٨/١٦ .

(٢) قال الرازي: فإن قيل: كيف قالوا لرسولهم «أو لنعودن..» والرسول لم يكونوا على ملة الكفار قط... فالجواب من وجوه :
الأول : أن العود في كلام العرب يستعمل كثيراً بمعنى الصيرورة، يقولون: عاد فلان يكلمني، وعاد لفلان مالاً، وأشباه
ذلك. ومنه قوله تعالى: «حتى عاد كالرجون القديم» .

الثاني : أنهم خاطبوا الرسول بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسول كانوا أولاً على ملل قومهم، ثم انتقلوا عنها .
الثالث : أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد .

انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل ص (١٥٩) .

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

﴿ذلك لمن خاف مقامي﴾ أي: قيامه بين يدي كما قال: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» (الرحمن - ٤٦)، فأضاف قيام العبد إلى نفسه، كما تقول: ندمت على ضربك أي على ضربي إياك، ﴿وخاف وعيد﴾ أي عقابي .

قوله عز وجل: ﴿واستفتحوا﴾ أي: استنصروا. قال ابن عباس ومقاتل: يعني الأمم، وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، نظيره قوله تعالى: «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» (الأنفال - ٣٢) .

وقال مجاهد وقتادة: واستفتحوا يعني الرسل وذلك أنهم لما يمسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب، كما قال نوح عليه السلام: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» (نوح - ٢٦) وقال موسى عليه السلام: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم»، الآية (يونس - ٨٨) .

﴿وخاب﴾، خسر. وقيل: هلك، ﴿كل جبار عنيد﴾ والجبار: الذي لا يرى فوقه أحداً. والجبرية: طلب العلو بما لا غاية وراءه^(١). وهذا الوصف لا يكون إلا لله عز وجل .

وقيل: الجبار: الذي يجبر الخلق على مراده، والعنيد: المعاند للحق ومجانبه. قاله مجاهد . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو المعرض عن الحق . قال مقاتل: هو المتكبر .

وقال قتادة: «العنيد»: الذي أرى أن يقول لا إله إلا الله^(٢) .

﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامه، كقوله تعالى «وكان وراءهم ملك» (الكهف - ٧٦) أي: أمامهم^(٣) .

(١) ومن «الجبار»، تقول: هو جبار بين الجبرية، والجبرية، والجبروة، والجبروت، والجبروت . انظر: تفسير الطبري: ٥٤٣/١٦ .

(٢) انظر في هذه الأقوال: الدر المنثور: ١٤/٥-١٥، والطبري: ٥٤٣/١٦-٥٤٥ .

(٣) وكان بعض نحوي أهل البصرة يقول: إنما يعني بقوله: «من وراءه» أي من أمامه، لأنه وراء ما هو فيه، كما يقول لك: «وكل هذا من وراءك»، أي سيأتي عليك، وهو من وراء ما أنت فيه، لأن ما أنت فيه قد كان قبل ذلك وهو من وراءه . وكان بعض نحوي أهل الكوفة يقول: أكثر ما يجوز هذا في الأوقات، لأن الوقت يمر عليك، فيصير خلفك إذا جزئه... انظر: تفسير الطبري: ٥٤٧/١٦ .

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمِيتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قال أبو عبيدة: هو من الأضداد^(١).

وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يريد أنه سيأتيك، وأنا من وراء فلان يعني أصل إليه^(٢).

وقال مقاتل: «من ورائه جهنم» أي: بعده^(٣).

﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: من ماءٍ هو صديدٌ، وهو ما يسيل من أبدان الكفار من القيح والدم^(٤).

وقال محمد بن كعب: ما يسيل من فُروج الزناة، يُسْقَاهُ الكافر^(٥).

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يتحسَّاهُ ويشربه، لا بمرّة واحدة، بل جرعة جرعة، لمرارته وحرارته، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾، و«يكاد»: صلة، أي: لا يسيفه، كقوله تعالى: «لم يكد يراها» (النور - ٤٠) أي: لم يرها.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا يميزه.

وقيل: معناه يكاد لا يسيفه، ويسيفه فيغلي في جوفه.

(١) انظر: الطبري: ٥٤٧/١٦، وقال الزجاج: وراء يكون بمعنى الخلف والقدام... وليس من الأضداد. انظر: زاد المسير: ٣٥٢/٤.

(٢) انظر التعليق قبل السابق.

(٣) قال ابن الأنباري: «من ورائه» أي: من بعد يأمنه، فدلّ «خاب» على اليأس، فكأنه عنه، وحملت «وراء» على معنى «بعد»، كما قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً • وليس وراء الله للمرء مذهب

أراد: ليس بعد الله مذهب.

انظر: زاد المسير: ٣٥٢/٤.

(٤) انظر: الطبري ٥٤٨/١٦، الدر المنثور: ١٥/٥ وعزاه فيه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث والنشور» عن مجاهد.

وانظر: زاد المسير: ٣٥٣-٣٥٢/٤.

(٥) في زاد المسير: (٣٥٣/٤) عن محمد بن كعب: هو غسالة أهل النار، وذلك ما يسيل من فروج الزناة. وقال ابن قتيبة: المعنى: يسقى الصديد مكان الماء، كأنه قال: يُجْعَلُ ماؤه صديداً، ويجوز أن يكون على التشبيه، أي: يُسْقَى ماءً كأنه صديد.

انظر: القرطبي، أو كتابي مشكل القرآن وغيره لابن قتيبة، جمع بينهما: ابن مطرف الكناي: ٢٣٦/١.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن يسر، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قوله: «ويسقى من ماء صديد يتجرعه»، قال: يقرب إلى فيه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، حتى يخرج من دُبُرِهِ، يقول الله عز وجل: «وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم» (محمد - ١٥)، ويقول: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه»^(١) (الكهف - ٢٩).

وقوله عز وجل: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، يعني: يجذهم الموت والله من كل مكان من أعضائه.

قال إبراهيم التيمي: حتى من تحت كل شعرة من جسده.

وقيل: يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، فيستريح، قال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرتة فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتتنفعه الحياة. نظيرها «ثم لا يموت فيها ولا يحيى» (الأعلى - ١٣).

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾، أمامه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، شديد، وقيل: العذاب الغليظ الخلود في النار.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: أعمال الذين كفروا بربهم - كقوله تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» (الزمر - ٦٠) - أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة، ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، وصف اليوم بالعصف، والعصف من صفة الريح لأن الريح تكون فيها، كما يقال: يوم حار ويوم بارد، لأن الحر والبرد فيه.

وقيل: معناه: في يوم عاصف الريح، فحذف الريح لأنها قد ذكرت من قبل. وهذا مثل ضربه

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٥٤٩/١٦-٥٥٠، والترمذي في أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار: ٣٠٣/٧-٣٠٤، وقال: «هذا حديث غريب، هكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بسر، ولا يعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث».

وأخرجه الحاكم في المستدرک: ٣٥١/٢، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢٦٥/٥، والمصنف في شرح السنة: ٢٤٣/١٥-٢٤٤. وضعفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح: ١٥٨١/٣.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾

الله لأعمال الكفار، يريد: أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذرّته الريح لا ينتفع به، فذلك قوله تعالى :

﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾، يعني: الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾، في الدنيا، ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾، في الآخرة، / ﴿ذَلِكَ﴾ ١٩٣/أ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «خالق السموات والأرض» وفي سورة النور «خالق كل دابة» مضافاً .

وقرأ الآخرون ﴿خلق﴾ على الماضي ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وكلّ بالنصب .
﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً وإنما خلقهما لأمرٍ عظيم، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، سواكم أطوع الله منكم .

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، منيع شديد، يعني أن الأشياء تسهل في القدرة، لا يصعب على الله تعالى شيء وإن جَلَّ وَعَظُمَ .

قوله عز وجل : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعاً] ^(١) ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾، يعني: الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، أي: تكبروا على الناس وهم القادة والرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع تابع، مثل: حرس وحارس، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾، دافعون، ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ .

﴿قَالُوا﴾، يعني القادة المتبوعين: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾، أي: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهدى، فلما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة ^(٢)، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾، مهرب ولا منجاة .

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) في «أ»: الضلال .

قال مقاتل: يقولون في النار: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام، فلا ينفعهم الجزع، ثم يقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فحينئذ يقولون: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص»^(١).

قال محمد بن كعب القرظي^(٢): بلغني أن أهل النار استغاثوا بالخزنة . فقال الله تعالى: «وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب» (غافر - ٤٩)، فردت الخزنة عليهم: «أَو لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى»، فردت الخزنة عليهم: «ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» (غافر - ٥٠) فلما يسوا مما عند الخزنة نادوا «يا مالِك ليَقْضِرْ عَلَيْنَا رَبُّكَ» (الزخرف - ٧٧) سألوا الموت، فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ستون وثلاثمائة يوماً، واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين إنكم ما كنتم ما كنتم، فلما يسوا مما قبله قال بعضهم لبعض: إنه قد نزل بكم من البلاء ما ترون فهلوموا فلنصبر، فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم، فأجمعوا على الصبر، فطال صبرهم ثم جزعوا فنادوا: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»، أي: من منجاة .

قال: فقام إبليس عند ذلك فخطبهم، فقال: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا: «لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتُكْفَرُونَ» (غافر - ١٠) قال فنادوا الثانية: «فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون»، فرد عليهم: «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» الآيات (السجدة - ١٢، ١٣) فنادوا الثالثة: «ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل» (إبراهيم - ٤٤)، فرد عليهم: «أَو لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَالِكُمْ مِنْ زَوَالِ» الآيات (إبراهيم - ٤٤)، ثم نادوا الرابعة: «ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» فرد عليهم: «ألم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير»، الآية (فاطر - ٣٧) قال: فمكث عليهم ما شاء الله، ثم ناداهم: «ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون»، فلما سمعوا ذلك قالوا: الآن يرحمنا، فقالوا عند ذلك: «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون»، قال عند ذلك «اخسؤوا فيها ولا تكلمون» (المؤمنون ١٠٥-١٠٨) فانقطع عند ذلك الرجاء والدعاء عنهم، فأقبل بعضهم على بعض ينجح بعضهم في وجوه بعض، وأطبقت عليهم النار .

(١) رواه الطبراني عن كعب بن مالك مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وفيه أنس بن القاسم. قال ابن أبي حاتم: هو مجهول .

انظر: مجمع الزوائد: ٤٣/٧، الدر المنثور: ١٧/٥، الجرح والتعديل: ٢٨٨/٢ .

(٢) انظر: الدر المنثور: ١٨/٥، تفسير الطبري: ٥٦٤/١٦ .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾، يعني: إبليس، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، أي: فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

قال مقاتل: يوضع له منبر في النار، فيرقاه فيجتمع عليه الكفار باللائمة فيقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾، فوفى لكم به، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، وقيل: يقول لهم: قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار. ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، ولاية. وقيل: لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: لكن ﴿دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾، بمُنْخِشِكُمْ، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾، بمُنْخِشِيَّ.

قرأ الأعمش وحزمة ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ بكسر الياء، والآخرون بالنصب لأجل التضعيف، ومن كسر فلا لقاء الساكنين، حُرِّكَتْ إِلَى الْكُسْرِ، لأن الياء أخت الكسرة، وأهل النحو لم يرضوه، وقيل: إنه لغة بني يربوع. والأصل ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ فذهبت النون لأجل الإضافة، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة^(١).

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كفرت بجعلكم إياي شريكاً في عبادته وتبرأت من ذلك.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾، الكافرين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمود، حدثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن رشدين بن سعد، أخبرني عبد الرحمن بن زياد، عن دحيان الحجري، عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال: «يقول عيسى عليه السلام ذلكم النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي من أطيب ريح شَمَّهَا أَحَدٌ، حتى

(١) انظر: البحر المحيط: ٤١٩/٥، زاد المسير: ٣٥٧/٤.

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

آتي ربي عز وجل فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس، هو الذي أضلنا، فيأتونه فيقولون له: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه أثنى ربح شمها أحد، ثم تعظم جهنم^(١)، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾، الآية^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، يسلم بعضهم على بعض، وتسلم الملائكة عليهم. وقيل: المحيى بالسلام هو الله عز وجل.

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾، ألم تعلم، والمثل: قول سائر لتشبيه شيء بشيء. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، هي قول: لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهي النخلة يريد كشجرة طيبة الثمر^(٣).

(١) في «ب»: «يعظم لجهنم» وكذلك في الطبري. وفي الطبعة البولاقية منه «يعظم نجيبهم». قال الشيخ شاكر: وهو غير ما اتفقت عليه المخطوطة، والدر المنثور، وابن كثير،... وأنا في شك من الكلمة، وظني أنها: «يُقَطَّمُ لجهنم» من قولهم: «قَطَّمُ الشارب»: إذا ذاق الشراب فكرهه، وزوى وجهه، وقطَّب.

(٢) أخرجه الدارمي في الرقائق، باب في الشفاعة: ٣٢٧/٢، وابن جرير الطبري في التفسير: ٥٦٢/١٦-٥٦٣. وعزاه السيوطي لابن المبارك في الزهد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر. وقال: «أخرجوه بسند ضعيف».

وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبدالرحمن بن زياد، وهو ضعيف، وقال الشيخ محمود شاكر: وهذا خبر ضعيف، لا يقوم. ورشدين بن سعد المصري: ضعيف متروك، عنده معاضيل ومناكير. انظر: الدر المنثور: ١٨/٥، مجمع الزوائد: ٣٧٦/١٠، انظر: الدر المنثور: ١٨/٥، مجمع الزوائد: ٣٧٦/١٠، تفسير ابن كثير: ٥٣٠/٢.

(٣) وهذا ما رجحه الطبري في التفسير: ٥٧٣/١٦، لصحة الخبر في ذلك عن رسول الله ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمر رضي عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحذوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبدالله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: «هي النخلة».

أخرجه البخاري في العلم، باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا: ١٤٥/١، وفي البيوع وفي التفسير وفي مواضع أخرى، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة، برقم (٢٨١١): ٢١٦٤-٢١٦٥، والمصنف في شرح السنة: ٣٠٧/١.

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

وقال ظبيان عن ابن عباس^(١): هي شجرة في الجنة^(٢).

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، في الأرض، ﴿وَفَرْعُهَا﴾، أعلاها، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، كذلك أصل هذه الكلمة: راسخٌ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عز وجل. قال الله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» (فاطر - ١٠).

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا﴾، تعطي ثمرها، ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ / والحين في اللغة هو الوقت . ١٩٣ / ب

وقد اختلفوا في معناه هاهنا فقال مجاهد وعكرمة: الحين هاهنا: سنة كاملة، لأن النخلة تثمر كل سنة .

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى صرامها. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها .

وقال سعيد بن المسيب: شهران من حين تؤكل إلى حين الصرام .

وقال الربيع بن أنس: «كل حين»: أي: كل غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، إما تمرأً أو رطباً أو بُسرأً، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره وبركة إيمانه لا تنقطع أبداً، بل تصل إليه في كل وقت^(٣).

والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان .

(١) نقله عنه الطبري: ٥٧٣/١٦، وابن الجوزي في زاد المسير: ٣٥٨/٤، وزاد قولاً ثالثاً فيها، وهو: أنها المؤمن، وأصله الثابت، أنه يعمل في الأرض، ويبلغ عمله السماء، وهذا رواه عطية عن ابن عباس أيضاً .

(٢) في «ب»: الشام .

(٣) انظر هذه الأقوال الخمسة في معنى «الحين»، وقولاً سادساً عن علي: أنه ثمانية أشهر، في: تفسير الطبري: ٥٧٥-٥٧٩، الدر المنثور: ٢٤-٢٥، وزاد المسير: ٣٥٩/٤، البحر المحيط: ٤٢٢/٥ .

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بالحين، في هذا الموضع، غدوة وعشية وكل ساعة؛ لأن الله تعالى ذكره ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كل حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلاً، ولا شك أن المؤمن يُرفع له إلى الله في كل يوم صالح من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو في كل شهرين، فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المثل لا يكون خلافاً للمثل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بيننا صحة ما قلنا . فإن قال قائل: فأني نخلة تؤتي أكلها في كل وقت أكلاً صيفاً وشتاءً؟ قيل: أما في الشتاء: فإن الطلع من أكلها، وأما في الصيف: فالبلح والبسر والرطب والتمر، وذلك كله من أكلها .

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٦﴾

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الحرقى، أنبأنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنبأنا عبدالله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل ابن جعفر، حدثنا عبدالله بن دينار أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرْقُهَا، وَإِنَّمَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ فَحَدَّثُونِي مَا هِيَ؟» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَوْقَ النَّاسِ فِي شَجَرِ الْبُؤَادِيِّ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرٍ، فَقَالَ: لِأَنَّ تَكُونَ قُلْتُ هِيَ النَّخْلَةُ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا»^(١).

وقيل الحكمة في تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار: أن النخلة شبه^(٢) الأشجار بالإنسان من حيث إنها إذا قطع رأسها ييسر، وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رؤوسها^(٣) ولأنها تشبه الإنسان في أنها لا تحمل إلا بالتلقيح ولأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام، ولذلك قال النبي ﷺ: «أَكْرَمُوا عَمَتَكُمْ» قيل: ومن عمتنا؟ قال: «النخلة»^(٤) «ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون»^(٥).

﴿ومثل كلمة خبيثة﴾. وهي الشرك، ﴿كشجرة خبيثة﴾، وهي الخنظل^(٦).

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قبل قليل ص (٣٤٦) تعليق (٣).

(٢) في «ب»: أشبه.

(٣) في «ب»: رأسها.

(٤) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١٢٣/٦، وأبو يعلى في مسنده، وابن أبي حاتم، وابن عدي في «الكامل»: ٢٤٢٤/٦ والعقيلي في «الضعفاء» وابن السني وابن مردويه معاً في الطب.

قال الهيثمي: فيه مسرور بن سعيد، وهو ضعيف. وقال العقيلي: حديثه غير محفوظ.

انظر: مجمع الزوائد: ٣٩/٥، فيض القدير: ٩٥/٢، كشف الخفاء: ١٩٥/١، تمييز الطيب من الخبيث ص (٣٦)، تنزيه الشريعة المرفوعة لابن عراق: ٢٠٩/١.

وانظر في الحكمة من تشبيه الإيمان بالنخلة أيضاً: زاد المسير: ٣٥٩/٤-٣٦٠.

(٥) أي: ويمثل الله الأمثال للناس، ويشبه لهم الأشياء ليتذكروا حجة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزعجوا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان.

انظر: تفسير الطبري: ٥٦٧/١٦.

(٦) قال الطبري: ٥٨٥/١٦. وقد روي عن رسول الله ﷺ بتصحيح قول من قال: هي الخنظل، خبر فإن صَحَّ، فلا قول يجوز أن يقال غيره، وإلا فإنها شجرة بالصفة التي وصفها الله بها. ثم ساق حديثاً للترمذي والحاكم عن أنس ضعفه الشيخ محمود شاكر.

انظر: الطبري: ٥٧٠-٥٧١، ٥٨٥.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

وقيل: هي الثوم .

وقيل: هي الكشوث^(١)، وهي العَشَقَّة^(٢)، ﴿أَجَشَّتْ﴾، يعني انقلعت، ﴿من فوق الأرض ماها من قرار﴾، ثبات .

معناه: ليس لها أصل ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر لا خير فيه، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح .

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا الله ﴿في الحياة الدنيا﴾، يعني قبل الموت، ﴿وفي الآخرة﴾، يعني في القبر. هذا قول أكثر أهل التفسير .

وقيل: ﴿في الحياة الدنيا﴾: عند السؤال في القبر، ﴿وفي الآخرة﴾: عند البعث .
والأول أصح^(٣) .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد ابن عبيدة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»^(٤) .

(١) في «ب»: الكشوب .

وفي لسان العرب: ١٨١/٢: «الكَشُوثُ، والأَكَشُوثُ، والكَشُوثُ: كل ذلك نبات مجتّ مقطوع الأصل. وقيل: لا أصل له، وهو أصفر يتعلق بأطراف الشوك وغيره .

وقال الجوهري هو: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعِزْق في الأرض...» .

(٢) العَشَقَّة: شجرة تخضّر ثم تدق وتصفّر، وهي عند المولدين: اللَّبْلَاب، وجمعها العَشَقُ .

انظر: لسان العرب ٢٥٢/١٠ .

(٣) وهو ما رجحه الطبري، حيث قال: (٦٠٢/١٦): والصواب من القول في ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك، وهو أن معناه: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ «وفي الآخرة» بمثل الذي تثبتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ» .

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، سورة إبراهيم، باب «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت»: ٣٧٨/٨، والمصنف في شرح السنة: ٤١٢/٥ .

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة بهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» قال: نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبي محمد، فذلك قوله تعالى: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» الآية (١).

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ نَعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، لِمُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبَدَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» قال قتادة: وذكر لنا أنه يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ:

وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ، فَيَقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيَقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطْرَقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ» (٢).

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، حدثنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا عنبسة ابن سعيد بن كثير، حدثني جدي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَسْمَعُ حَسَّ النَّعَالِ إِذَا وَلَّى عَنْهُ النَّاسُ مُذْبِرِينَ، ثُمَّ يُجْلَسُ وَيُوضَعُ كَفُّهُ فِي عُنُقِهِ ثُمَّ يُسَأَلُ» (٣).
وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يَنْوَرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ: نَمْ كُنُومَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يَوْقُظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا أَوْ كَافِرًا قَالَ:

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار برقم (٢٨٧١): ٢٢٠١/٤.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: ٢٣٢/٣، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض

مقعد الميت من الجنة أو النار، برقم (٢٨٧٠): ٢٢٠٠/٤-٢٢٠١، والمصنف في شرح السنة: ٤١٥/٥.

(٣) أخرجه ابن حبان، في الجنائز، باب في الميت يسمع ويسأل، ص (١٩٦) من موارد الظمآن، والإمام أحمد في المسند: ٣٤٧/٢، والمصنف في شرح السنة: ٤١٣/٥.

سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التسمي عليه فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معدباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»^(١).
وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن وقال: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك؟ [فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد فينتهرانه ويقولان له الثانية: من ربك وما دينك ومن نبيك]^(٢) وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فيبته الله عز وجل، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٣) / .

أ. ١٩٤

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام، أنبأنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي، حدثنا إبراهيم بن موسى^(٤) الفراء أبو إسحاق حدثنا هشام ابن يوسف حدثنا عبد الله بن يحيى عن هانيء مولى عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت، فإنه الآن يسأل»^(٥).
وقال عمرو بن العاص في سياق الموت وهو يكي: فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسنؤا على التراب سنأ ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها حتى أستاذس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي .

قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يهدي الله المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر
﴿ويفعل الله ما يشاء﴾، من التوفيق والخذلان والتثبيت وترك التثبيت .

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: ١٨١/٤-١٨٤، وقال: وهو حديث حسن غريب. وفي الباب عن علي، وزيد بن ثابت، وابن عباس والبراء بن عازب، وأبي أيوب، وأنس، وجابر، وعائشة، وأبي سعيد كلهم رووا عن النبي ﷺ في عذاب القبر .

وأخرجه ابن حبان في الجنائز، باب الميت يسأل ويسمع، ص (١٩٧) من موارد الظمان .
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، وقال: هو على شرط مسلم: ٤٧/١ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه أبو داود في السنة، باب المسألة في القبر: ١٣٩/٧-١٤١، والحاكم في المستدرک: ٣٧/١، ٣٩، والإمام أحمد في المسند: ٢٩٥-٢٩٦. وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة: ٤٨/١ .
وأخرجه الطبري في التفسير من عدة طرق انظر: ٥٨٩/١٦-٥٩٥ .

(٤) في «ب»: ابن محمد .

(٥) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت: ٣٣٩/٤ والبيهقي في السنن الكبرى: ٥٦/٤، وحسنه النووي في الأذکار ص (١٣٧)، وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح: ٤٨/١ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله عز وجل : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية .

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس [في قوله تعالى] (١) ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، قال: هم والله كفار قريش (٢) . وقال عمرو: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله (٣) .

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: البوار يوم بدر، قوله ﴿بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: غيروا نعمة الله عليهم في محمد ﷺ حيث ابتعته الله تعالى منهم = كفراً كفروا به فأحلُّوا، أي: أنزلوا، قومهم من تابعهم على كفرهم دار البوار الهلاك، ثم بيّن البوار فقال : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، يدخلونها ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، المستقر .

وعن علي كرم الله وجهه: الذين بدلوا نعمة الله كفراً: هم كفار قريش نَحَرُوا يوم بدر (٤) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين (٥) .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا﴾، أمثلاً، [وليس لله تعالى ند] (٦)، ﴿لِيُضِلُّوهُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج وسورة لقمان والزمزم: ﴿لِيُضِلُّ﴾ وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس، ﴿عَنِ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا﴾، عيشوا في الدنيا، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم، باب: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا»: ٣٧٨/٨، بلفظ: هم كفار أهل مكة .

وانظر: الدر المنثور: ٤١/٥، الطبري: ٢٢٢/١٣ (طبع الحلبي) .

وسائر الإحالات الآتية إلى تفسير الطبري ستكون - إن شاء الله تعالى - إلى هذه الطبعة، حيث كنا فيما سبق - غالباً - نغزو إلى طبعة دار المعارف بتحقيق الشيخ محمود شاكر .

(٣) عزاه السيوطي لابن جرير عن عطاء بن يسار: ٤٢/٥ .

(٤) عزاه السيوطي لابن جرير، وابن المنذر، والحاكم في «الكنى»، الدر المنثور: ٤٢/٥ .

(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ» وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه. انظر: الدر المنثور: ٤١/٥ .

(٦) ساقط من «ب» .

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، قال الفراء: هو جزم على الجزاء، ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، مخاللة وصدقة. [قرأ ابن كثير، وابن عمرو، ويعقوب: «لا بيع فيه ولا خلال» بالنصب فيهما على النفي العام. وقرأ الباقون: «لا بيع ولا خلال» بالرفع والتنوين] ^(١).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾، ذللها لكم، تجرؤونها ^(٢) حيث شئتم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾، يجران فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفتران، قال ابن عباس دؤوبهما في طاعة الله عز وجل ^(٣).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، يتعاقبان في الضياء والظلمة، والنقصان والزيادة. ﴿وَأَتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، [يعني: وآتاكم من كل شيء سألتموه] ^(٤) شيئاً، فحذف الشيء الثاني اكتفاءً بدلالة الكلام، على التبويض.

وقيل: هو على التكثير نحو قولك: فلان يعلم كل شيء، وآتاه كل الناس، وأنت تعني بعضهم،

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: تجرؤها.

(٣) الطبري: ٢٢٥/١٣ (طبع الحلبي).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

نظيره قوله تعالى: «فتحنا عليهم أبواب كل شيء» (الأنعام - ٤٤) .
 وقرأ الحسن ﴿من كل﴾، بالتثنية ﴿ما﴾ على النفي يعني من كل ما لم تسألوه، يعني: أعطاكم
 أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها^(١) .
 ﴿وإن تعدوا نعمة الله﴾، أي: نعم الله، ﴿لا تحصوها﴾، أي: لا تطبقوا عدّها ولا القيام
 بشكرها .

﴿إن الإنسان لظلم لظلوم كفار﴾، أي: ظالم لنفسه بالمعصية، كافر بربه عز وجل في نعمته .
 وقيل: الظلوم، الذي يشكر غير من أنعم عليه، والكافر: من يبعد منعمه .
 قوله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد﴾، يعني: الحرم، ﴿آمناً﴾ ذا أمن
 يؤمن فيه، ﴿واجنبني﴾، أبعدني، ﴿وبني أن نعبد الأصنام﴾، يقال: جنبته الشيء، وأجنبته جنباً،
 وجنبته تجنيباً واجتنبه اجتناباً بمعنى واحد .

فإن قيل: قد كان إبراهيم عليه السلام معصوماً من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟
 وقد عبد كثير من بنيه الأصنام فأين الإجابة؟
 قيل: الدعاء في حق إبراهيم عليه السلام لزيادة العزمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه: فأراد بنيه
 من صلبه، ولم يعبد منهم أحد الصنم .
 وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه^(٢) .

﴿رب إنهم أضللن كثيراً من الناس﴾، يعني: ضل بهن كثير [من الناس]^(٣) عن طريق الهدى حتى
 عبدوهن، وهذا من المقلوب نظيره قوله تعالى: «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه» (آل عمران - ١٧٥)،

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٢٦/١٣ .

(٢) وقال محمد بن أبي بكر الرازي قيل: «إنما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم - بالعزمة عن الكفر
 وعبادة الأصنام - لأن الأنبياء - عليهم السلام - أعلم الناس بالله، فيكونون أخوفهم منه، فيكون معذوراً بسبب ذلك .
 وقيل: إن في حكمة الله تعالى وعلمه أن لا يتلى نبياً من الأنبياء بالكفر، بشرط أن يكون متضرعاً إلى ربه طالباً منه ذلك،
 فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العزمة» .

انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، ص (١٦٤) .

(٣) ساقط من «ب» .

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

أي: يخوفهم^(١) بأوليائه .

وقيل: نسب الإضلال إلى الأصنام لأنهن سبب فيه، كما يقول القائل: فتنتني الدنيا، نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها سبب الفتنة^(٢) .

﴿فمن تبعني فإنه مني﴾، أي: من أهل ديني، ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾، قال السدي: معناه: ومن عصاني ثم تاب .

وقال مقاتل بن حيان: ومن عصاني فيما دون الشرك .

وقيل: قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك^(٣) .

قوله عز وجل: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي﴾، أدخل «من» للتبويض، ومجاز الآية: أسكنت من ذريتي ولدًا، ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾، وهو مكة؛ لأن مكة وادٍ بين جبلين، ﴿عند بيتك المحرم﴾، سماه محرمًا لأنه يحرم عنده مالا يحرم عنده غيره .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب السخيتاني وكثير بن [أبي كثير بن]^(٤) المطلب بن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير [قال]^(٥): قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام، وبانها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً،

(١) في «ب»: يخوفكم .

(٢) وانظر: مسائل الرازي وأجوبتها ص (١٦٤) .

(٣) في «ب»: أن يشرك به .

(٤) ليس في «ب» .

(٥) ساقط من «ب» .

١٩٤/ب

وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيّعنا / ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّيْنَةِ حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه، فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾، حتى بلغ «يشكرون» .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبّط أو قال يتلوّى، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً» .

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله، بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان موضع البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك، حتى مرّت بهم رُفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، ولعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريئاً أو جريئين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء، قالوا: نعم .

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك زوجه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي
لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

إسماعيل يطالع تركته^(١)... ذكرنا تلك القصة في سورة البقرة^(٢).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾، الأفئدة: جمع الفؤاد ﴿تمهوي إليهم﴾، تشناق ونحن إليهم.

قال السدي: ومعناه أمل قلوبهم إلى هذا الموضع.

قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزامتكم فارس والروم والترك والهند.

وقال سعيد بن جبیر: لحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: «أفئدة من الناس» وهم المسلمون.

﴿وارزقهم من الثمرات﴾، ما رزقت سكان القرى ذوات الماء، ﴿لعلهم يشكرون﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، من أمورنا. وقال ابن عباس ومقاتل: من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾، قيل: هذا صلة قول إبراهيم.

وقال الأكرتون: يقول الله عز وجل: ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾^(٣).

﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر﴾، أعطاني، ﴿إسماعيل وإسحاق إنَّ ربي لسميع الدعاء﴾، قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد إسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة.

وقال سعيد بن جبیر: بُشِّرَ إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة^(٤).

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب يزقون التسلان في المشي: ٣٩٦/٦-٣٩٨.

(٢) انظر فيما سبق: ١٤٧/١-١٤٨.

(٣) في البحر المحيط: ٤٣٣/٥ جاءت العبارة أوضح فقال: وقيل «وما يخفى...» الآية، من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله تعالى: «كذلك يفعلون».

(٤) انظر: الحرر الوجيز: ٢٥٦/٨.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ
لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٥﴾ وَلَا تَحْسَبِ اللَّهُ غَافِلًا
عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٦﴾

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، يعني: ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾،
يعني: اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة .

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾، أي: عملي وعبادتي، سَمَى العبادة دعاءً، وجاء في الحديث: «الدعاء مخ
العبادة» (١) .

وقيل: معناه: استجب دعائي .

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾، فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين؟ قيل قد قيل
إن أمه أسلمت .

وقيل: أراد: إن أسلمنا وتابا (٢) .

وقيل: قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه، وقد بين الله تعالى عذر خليله ﷺ في استغفاره
لأبيه في سورة التوبة (٣) .

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: اغفر للمؤمنين كلهم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، أي: يبدو ويظهر. وقيل:
أراد يوم يقوم الناس للحساب، فاكفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً .

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، الغفلة معنى يمنع الإنسان من
الوقوف على حقيقة الأمور، والآية لتسلية المظلوم وتهديد للظالم .

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك، في الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء: ٣١١/٨، وقال: «هذا
حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة» .

وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون
عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» (سورة غافر - ٤٠) .

أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء: ١٤١/٢، والترمذي في الدعوات نفسه: ٣١١/٩-٣١٢، وقال: «هذا حديث
حسن صحيح» وفي التفسير أيضاً، وابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، برقم (٣٨٢٨): ١٢٥٨/٢، وصححه ابن حبان
ص (٥٩٥) من موارد الظمان للهيتمي، والحاكم في المستدرک: ٤٩١/١، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢٧٦/٤. وذكره
المصنف البيهقي في مصابيح السنة: ١٣٨/٢ كتاب الدعوات في الحسان .

(٢) انظر: مسائل الرازي وأجوبتها، ص (١٦٦) .

(٣) انظر فيما سبق ص (١٠١) من سورة التوبة .

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ
يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ
وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾، أي: لا تغض من هول ما ترى في ذلك اليوم،
وقيل: ترتفع وتزول عن أماكنها .

﴿مهطعين﴾، قال قتادة: مسرعين .

قال سعيد بن جبیر: الإهطاع التسلان كعدو الذئب .

وقال مجاهد: مديمي النظر .

ومعنى «الإهطاع»: أنهم لا يلتفون يمينا ولا شمالا، ولا يعرفون مواطن أقدامهم .

﴿مقنعي رؤوسهم﴾، أي: رافعي رؤوسهم .

قال القتيبي: المقنع: الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه^(١) .

وقال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد .

﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، وهي شاخصة قد

شغلهم ما بين أيديهم .

﴿وأفئدتهم هواء﴾، أي: خالية. قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم، فصارت في

حناجرهم، لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها، فالأفدة هواء لا شيء فيها، ومنه سُمي ما

بين السماء والأرض هواء لخلوه .

وقيل: خالية لا تعي شيئا ولا تعقل من^(٢) الخوف .

وقال الأخفش: جوفاء لا عقول لها، والعرب تسمي كل أجوف خاو هواء .

وقال سعيد بن جبیر: «وأفئدتهم هواء» أي: مترددة، تمور في أجوافهم، ليس لها مكان تستقر فيه .

وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم .

﴿وأنذر الناس﴾، خوفهم، ﴿يوم﴾، أي: يوم، ﴿يأتهم العذاب﴾، وهو يوم القيامة، / ١٩٥ / أ

﴿فيقول الذين ظلموا﴾، أشركوا، ﴿ربنا أخرجنا﴾، أمهلنا، ﴿إلى أجل قريب﴾، هذا سؤالهم الرد

(١) قال في غريب القرآن (٢٣٧/١) من القرطبي لابن مطرف الكناني: «والمقنع رأسه: الذي رفعه، وأقبل بطرفه على ما بين يديه. والإقناع في الصلاة هو إتمامها» .

(٢) «من» للتعليل .

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

إلى الدنيا، أي: ارجعنا إليها، ﴿نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾، فيجابون :
﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، حلفتم في دار الدنيا، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾، عنها أي:
لا تبعثون. وهو قوله تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَيِّنَاتٍ» (النحل - ٣٨) .
﴿وَسَكَنْتُمْ﴾، في الدنيا، ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، بالكفر والعصيان، قوم نوح
وعاد وثمود وغيرهم. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُنْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾، أي: عرفتم عقوبتنا إليهم، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ
الْأَمْثَالَ﴾، أي: بينا أن مثلكم كمثلهم .

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، أي: جزاء مكرهم، ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾، قرأ
علي وابن مسعود: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بالبدال، وقرأ العامة بالنون .

﴿لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾، قرأ العامة لتزول بكسر اللام الأولى ونصب الثانية .
معناه: وما كان مكرهم .

قال الحسن: إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال .
وقيل: معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال .

وقرأ ابن جريج والكسائي: ﴿لَتَزُولَ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معناه: إن مكرهم وإن
عظم حتى بلغ محلاً يزيل الجبال لم يقدرُوا على إزالة أمر محمد ﷺ .

وقال قتادة: معناه وإن كان شركهم لتزول منه الجبال وهو قوله تعالى: «وتخر الجبال هداً أن
دعوا للرحمن ولداً» (مريم - ١٩) .

ويُحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معنى الآية: أنها نزلت في عمرو الجبار الذي
حاج إبراهيم في ربه، وذلك أنه قال: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد السماء
فأعلم ما فيها، فعمد إلى أربعة أفرخ من النسر فربأها حتى شبت واتخذ تابوتاً، وجعل له باباً من
أعلى وباباً من أسفل، وقعد عمرو مع رجل في التابوت، ونصب خشبات في أطراف التابوت، وجعل
على رؤوسها اللحم وربط، التابوت بأرجل النسر، فطرن وصعدن طمعاً في اللحم، حتى مضى
يوم وأبعدن في الهواء، فقال عمرو لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربناها، ففتح

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبْدُلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

[الباب ونظر] (١) فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها؟ ففعل، فقال: أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان، فطارت النصور يوماً آخر، وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران، فقال لصاحبه: افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها، وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، فنودي: أيها الطاغية أين تريد؟

قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل معه القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطحاً بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء - وقيل: طائر أصابه السهم - فقال: كفيت شغل إله السماء .

قال: ثم أمر غمroud صاحبه أن يصوب الخشبات وينكص اللحم، ففعل، فهبطت النصور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنصور، ففزعت وظنت أنه قد حدث حدث من السماء، وأن الساعة قد قامت، فكادت تزول عن أماكنها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٢).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ .
قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ .

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا خالد بن مخلد، عن محمد بن جعفر بن أبي كثير، حدثني أبو حازم بن دينار عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ الثَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ» (٣) .

(١) ساقط من (ب) .

(٢) روى الطبري هذه القصة عن علي، وسعيد بن جبیر: ٢٤٤/١٣-٢٤٥. وضعف هذه القصة ابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٦٥/٨ فقال: «وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعبء أن يغرر أحد بنفسه في مثل هذا» .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة: ٣٧٢/١١، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور، برقم (٢٧٩٠): ٢١٥٠/٤، والمصنف في شرح السنة: ١١٢/١٥ .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن خالد - هو ابن يزيد - عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفوها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر، نُزلاً لأهل الجنة»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب^(٣). وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبيرة: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه^(٤).

وقيل: معنى التبديل جعل السموات جناتاً وجعل الأرض نيراناً. وقيل: تبدل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة، وهي تسيير جبالها، وطمّ أنهارها، وتسوية أوديتها وقطع أشجارها، وجعلها قاعاً صفصفاً، وتبديل السموات: تغيير حالها بتكوير شمسها، وخسوف قمرها وانتشار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن مسهر، عن داود - وهو ابن أبي هند - عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات» فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله؟ فقال: «على الصراط»^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق: ٣٧٢/١١، ومسلم في الموضع نفسه، برقم (٢٧٩٢): ٢١٥١/٤، والمصنف في شرح السنة: ١١٣/١٥.

(٢) أخرجه البزار، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» مرفوعاً، وأخرجه موقوفاً: عبدالرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في «العظمة»، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في البعث.

قال البيهقي: «والموقوف أصح». انظر: الدر المنثور: ٥٦/٥ - ٥٧.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور: ٥٧/٥.

(٤) أخرجه ابن جرير عنهما، انظر: التفسير: ٢٥٢/١٣ (طبع الحلبي).

(٥) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، برقم (٢٧٩١): ٢١٥٠/٤. والمصنف في شرح السنة: ١٠٨-١٠٧/١٥.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَعْشَى
 وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِيَذْكُرَ
 أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

وروى ثوبان أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض
 غير الأرض؟ قال: «هم في الظلمة دون الجسر» (٥).

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا﴾، خرجوا من قبورهم، ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، الذي يفعل ما يشاء
 ويحكم ما يريد.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ﴾، مشدودين بعضهم ببعض، ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾، في القيود
 والأغلال، واحداً صَفْد، وكل من شدته شداً وثيقاً فقد صفده.

قال أبو عبيدة: صَفَّدْتُ الرجل فهو مصفود، وصفدته بالتشديد فهو مصفد.
 وقيل: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، بيانه قوله تعالى: «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم»
 (الصافات - ٢٢)، يعني: قرناءهم من الشياطين.

وقيل: معناه مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد والقيود، ومنه قيل للجلل: قَرَن.
 ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾، أي: قُمَصُهُمْ، واحداً سربال. ﴿مِنْ قَطَرَانٍ﴾ هو الذي تنهأ به الإبل.

وقرأ عكرمة ويعقوب ﴿مِنْ قَطَرَانٍ﴾ على كلمتين منونتين / والقطر: النحاس، والصفير المذاب،
 والآل: الذي انتهى حره، قال الله تعالى: «يطوفون بينها وبين حميم آن» (الرحمن - ٤٤).

﴿وَتَعْشَى وَجُوهُهُمُ النَّارُ﴾، أي: تعلقو.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾، من خير وشر، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿هَذَا﴾، أي: هذا القرآن، ﴿بَلَاغٌ﴾، أي: تبليغ وعظة، ﴿لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾، وليخوفوا، ﴿بِهِ
 وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، أي: ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى: ﴿وَلِيَذْكُرَ أُولَئِكَ
 الْأَلْبَابِ﴾، أي: ليتعظ أولو العقول.

(١) قطعة من حديث طويل، أخرجه مسلم في الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، وأن الولد مخلوق من مائهما، برقم
 (٣١٥): ٢٥٢/١.

سُورَةُ الْحَجِّ

سُورَةُ الْحَجَرِ

مكية (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يَوْدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

﴿الر﴾ قيل: معناه: أنا الله أرى^(٢)، ﴿تلك آيات الكتاب﴾، أي: هذه آيات الكتاب، ﴿وقرآن﴾ أي: وآيات قرآن، ﴿مبين﴾، أي: بين^(٣) الحلال من الحرام والحق من الباطل .
فإن قيل: لِمَ ذكر الكتاب ثم قال ﴿وقرآن مبين﴾ وكلاهما واحد؟
قلنا: قد قيل كل واحد يفيد فائدة أخرى، فإن الكتاب: ما يكتب، والقرآن: ما يجمع بعضه إلى بعض .

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وبالقرآن هذا الكتاب .
﴿ربما﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدها، وهما لغتان، ورُبُّ للتقليل وكم للتكثير، ورُبُّ تدخل على الاسم، ورُبَّمَا على الفعل، يقال: رُبُّ رجل جاءني، ورُبَّمَا جاءني رجل، وأدخل ما هاهنا للفعل بعدها. ﴿يودُّ﴾، يتمنى، ﴿الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ .
واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام .
قال الضحاك: حالة المعاينة^(٤) .

(١) مكية بالاتفاق، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير. انظر: الدر المنثور: ٦١/٥ .

(٢) انظر فيما سبق: ٥٨/١-٥٩ .

(٣) في «ب»: بين .

(٤) وفيه نظر، إذ لا يقين للكافر حيثئذ بحال المسلمين. انظر: المحرر الوجيز: ٢٧٩/٨ .

ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

وقيل: يوم القيامة .

والمشهور أنه^(١) حين يخرج الله المؤمنين من النار .

وروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألسن مسلمين؟ قالوا بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيغضب الله تعالى لهم [بفضل رحمته]^(٢)، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين^(٣) .

فإن قيل: كيف قال «ربما» وهي للتقليل وهذا التمني يكثر من الكفار؟

قلنا: قد تذكر «ربما» للتكثير، أو أراد: أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم أحياناً .

﴿ذرهم﴾، ياعلمد، يعني: الذين كفروا، ﴿ياكلوا﴾ في الدنيا، ﴿ويتمتعوا﴾، من لذاتهم^(٤) ﴿ويلهيم﴾، يشغلهم، ﴿الأمَلُ﴾، عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ﴿فسوف يعلمون﴾، إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد .

وقال بعض أهل العلم: «ذرهم» تهديد، وقوله: «فسوف يعلمون» تهديد آخر، فمتى^(٥) يهناً العيش بين تهديدين .

والآية نسختها آية القتال^(٦) .

(١) في «ب»: وهو المشهور، أنه .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير: ٢/١٤ (طبع الحلبي) وابن أبي عاصم في «السنة»: ٤٠٥/١-٤٠٦، والحاكم في «المستدرک»: ٤٤٢/٢، وقال: صحيح ولم يخرجاه .

قال الهيثمي في «المجمع»: (٤٥/٧): «رواه الطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك. قال الذهبي: هذا تجاوز في الحديث، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره - وبقي رجاله ثقات» .

وعزاه في «كنز العمال»: (٥٤١/١٤) أيضاً لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور». وانظر: تفسير ابن كثير: ٥٤٧/٢ .

وصححه الألباني في «ظلال الجنة في تخریج السنة»: ٤٠٦/١ .

(٤) في «ب»: في لذاتها .

(٥) في «أ»: فكيف .

(٦) ذكر هذا كثير من المفسرين، انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ص (٥٨)، المحرر الوجيز: ٢٨١/٨، =

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُزِّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

﴿وما أهلكنا من قرية﴾، أي: من أهل قرية، ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾، أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه، ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه، ولا يتأخر عنهم .

﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ «من» صلة، ﴿وما يستأخرون﴾، أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب المضروب .

﴿وقالوا﴾ يعني: مشركي مكة، ﴿يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر﴾، أي: القرآن، وأرادوا به محمداً ﷺ، ﴿إنك لمجنون﴾، وذكروا تنزيل الذكر على سبيل^(١) الاستهزاء .

﴿لوما﴾، هلا ﴿تأتينا بالملائكة﴾، شاهدين لك بالصدق على ما تقول، ﴿إن كنت من الصادقين﴾، إنك نبي^(٢) .

﴿ما نزل الملائكة﴾، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بنونين «الملائكة» نصب، وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاي «الملائكة» رفع وقرأ الباقون بالتاء وفتحها^(٣) وفتح الزاي «الملائكة» رفع. ﴿إلا بالحق﴾ أي: بالعذاب ولو نزلت يعني الملائكة لعجلوا بالعذاب، ﴿وما كانوا إذا منظرين﴾ أي: مؤخرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله تعالى بهذا. ومعناه: إنهم لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال وعُذِّبُوا في الحال .

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾، يعني القرآن، ﴿وإننا له لحافظون﴾، أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن

= زاد المسير: ٣٨٢/٤ .

هذا، وقد أُلْحِنَا في موضع سابق من هذا التفسير إلى أن بعض العلماء توسعوا كثيراً في الحكم على كثير من آيات الصبر والمسالمة والإعراض عن المشركين وعهدهم بالعذاب = بالنسخ، وجعلوا آية القتال أو آية السيف ناسخة لأكثر من مائة آية في القرآن الكريم. وفي هذا غلو في القول بالنسخ، وخروج به عن مفهومه الصحيح .

انظر: علوم القرآن، لأستاذنا الدكتور عدنان محمد زرزور ص (٢١٠-٢١٢) وقرأ الفصل بكامله عن «الناسخ والمنسوخ» .

(١) في «ب»: طريق .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) في «ب»: وضمها .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٥﴾

يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه، أو يبدلوا، قال الله تعالى: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» (فصلت - ٤٢) والباطل: هو إبليس، لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه . وقيل الهاء في «له» راجعة إلى محمد ﷺ أي: إنا لمحمد لحافظون ممن أراحه بسوء كما قال جل ذكره: «والله يعصمك من الناس» (المائدة - ٦٧) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾، أي: رسلاً، ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: في [الأمم والقرون الماضية] ^(١) .

والشيعه: هم القوم المجتمعون ^(٢) المتفقة كلمتهم .

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كما فعلوا بك، ذكره ^(٣) تسلياً للنبي ﷺ .
﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾، أي: كما سلطنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسول ^(٣) في قلوب شيع الأولين، كذلك [نسلكه: ندخله] ^(٣)، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾، يعني: مشركي مكة قومك. وفيه ردٌ على القدرية ^(٤) .

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، يعني: لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾، مضت، ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: وقائع الله تعالى بالإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية، يخوف أهل مكة .
﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يعني: على الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة، ﴿بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: فضلت الملائكة يعرجون فيها، وهم يرونها عياناً، هذا قول الأكثرين .

(١) في «ب»: أم الأولين الماضية .

(٢) في «أ»: الجماعة .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) القدرية هم الذين ينكرون القدر، فيقولون: لا قدر والأمر أئف، ويزعمون أن كل عبد خالق لفعله، فالأمور يستأنف العلم بها، وتستأنف - بالتالي - إرادتها، وكأنهم بهذا ينفون الإرادة الأزلية والعلم الأزلي ليخرجوا فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخلاق العليم .

انظر: الوصية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيقنا، ص (٥٧) تعليق (٥) .

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ
بُرُوجًا وَزَيَّنَّا لِلنَّظِيرِ ﴿١٦﴾

وقال الحسن: معناه فظل هؤلاء الكفار يعرجون فيها أي: يصعدون .
والأول أصح^(١) .

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾، سُدَّتْ، ﴿أَبْصَارُنَا﴾، قاله ابن عباس^(٢) .

وقال الحسن: سحرت .

وقال قتادة: أخذت^(٣) .

وقال الكلبي: عميت^(٤) .

وقرأ ابن كثير ﴿سُكِّرَتْ﴾ بالتخفيف، أي: حُبِسَتْ ومُنِعَتْ النظر كما يسكر النهر لحبس الماء .

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، أي: عمل فينا السحر فسحرنا محمد - ﷺ - .

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾، والبروج: هي النجوم الكبار، مأخوذة

من الظهور، يقال: تبرجت المرأة أي: ظهرت .

وأراد بها: المنازل التي تنزلها الشمس، والقمر، والكواكب السيارة، وهي اثنا عشر برجاً:

الْحَمَلُ، وَالثَّوْرُ، وَالْجُوزَاءُ، وَالسَّرَّطَانُ، وَالْأَسَدُ، وَالسَّنْبُلَةُ، وَالْمِيزَانُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْقَوْسُ، وَالْجَدْيُ،

وَالدِّلُو، وَالْحَوْتُ^(٥) .

وقال عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس^(٦) .

(١) وهو مروي عن ابن عباس، وابن جريج، وقتادة، والضحاك، وإليه ذهب الطبري. واعتمد ابن كثير قول الحسن، وهو ما قاله ابن عطية كذلك .

انظر: تفسير الطبري: ١٠/١٤-١١ (طبع الحلبي)، تفسير ابن كثير: ٥٤٨/٢، المحرر الوجيز: ٢٨٨/٨، زاد المسير: ٣٨٦/٤ .

(٢) وهو قول مجاهد والضحاك. انظر: تفسير الطبري: ١٢/١٤ .

(٣) وهما قولان متقاربان، وأخرجهما الطبري عن ابن عباس وقتادة أيضاً .

(٤) أخرجه الطبري: ١٣/١٤ .

وقد رجح الطبري قول من قال إن معنى ذلك: «أخذت أبصارنا وسُحرت، فلا تبصر الشيء على ما هو به، وذهب حدُّ إِبْصَارِهَا، وانطفأ نوره، كما يقال للشيء الحار إذا ذهب فورته وسكن حدُّ حرِّه: قد سكر يسكر .

(٥) وهو قول ابن عباس وأبي عبيدة وآخرين .

انظر: زاد المسير: ٣٨٧/٤، الدر المنثور: ٦٩/٤ .

(٦) كان في المطبوع «ابن عطية» وكذلك في البحر المحيط، وليس هذا الكلام لابن عطية، وإنما هو: «عطية» كما في زاد المسير،

وهو مروي أيضاً عن ابن عباس. وقال ابن قتيبة: يقال هي اثنا عشر برجاً، وأصل البرج: القصر والحسن .

انظر: زاد المسير: ٣٨٧/٤، مشكل القرآن لابن قتيبة: (٢٣٨/١) من القرطين لابن مطرف، الدر المنثور: ٦٩/٤ .

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾

﴿وزيناه﴾، أي: السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿لِلنَّاطِرِينَ﴾ .

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾، مرجوم. وقيل: ملعون .

قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام / منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات أجمع، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب، فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس، فقال (١) : لقد حدث في الأرض حدث، قال: فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن، فقالوا: هذا والله ما حدث (٢) .

أ/١٩٦

﴿إلا من استرق السمع﴾، لكن من استرق السمع، ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾، والشهاب: الشعلة من النار .

وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة، فيرمون بالكواكب فلا تخطيء أبداً، فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضل الناس في البوادي (٣) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها

(١) في «ب»: فقالوا .

(٢) نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط: ٤٤٩/٥ وابن الجوزي في زاد المسير ٣٨٩/٤، كلاهما دون قوله: فما منهم من أحد...

الخ وانظر: تفسير القرطبي: ١٢/١٠، الدر المنثور: ٣٠٣/٨ .

(٣) اختلف في الشهاب، هل يقتل أم لا ؟ .

فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل .

وقال الحسن وطائفة: يقتل. فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان :

أحدهما - أنهم يقتلون قبل إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة .

والثاني : أنهم يقتلون بعد إلقاء السمع ما استرقوه إلى غيرهم من الجن، ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق. ذكره الماوردي .

قال القرطبي: والقول الأول أصح .

انظر: تفسير القرطبي: (١١/١٠) .

خُضْعَانَا^(١) لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع أحدهم الكلمة فيلقها إلى من تحته، ثم يلقها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن، وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذبُ معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء^(٢).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن أبي مريم، حدثنا الليث، حدثنا ابن جعفر، عن محمد بن عبدالرحمن، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر الذي قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهّان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»^(٣).

واعلم أن هذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي ﷺ، ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساساً لنبوته عليه السلام^(٤).

وقال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: إن أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحى من ثقيف وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أهدي^(٥) العرب، فقالوا له: ألم تر ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معاشهم هي التي يرمى بها فهي - والله - طي الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها، وإن كانت

(١) «خضعاناً» بفتحين، من الخضوع. وفي رواية بضم أوله وسكون ثانية، وهو مصدر بمعنى: خاضعين.

انظر: فتح الباري: ٥٣٨/٨.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: «حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير»: ٥٣٧/٨، وفي باب «إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين»: ٣٨٠/٨.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: ٣٠٤/٦، وفي مواضع أخرى.

(٤) قال ابن عطية في «الحرر الوجيز»: (٢٩٢/٨): «وفي الأحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية، ولكنه اشتد في وقت الإسلام، وحفظ السماء حفظاً تاماً».

وقال الزجاج: لم يكن إلا بعد النبي ﷺ، بدليل أن الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام. وذكر الزهري عن أبي رجاء العطاردي: كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام.

وانظر تفصيلاً أوسع في القرطبي: ١٢/١٠، ١٣/١٩، ١٥/٦٦-٦٧.

(٥) في «ب»: أدهى.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

نجوماً غيرها وهي والله ثابتة على حالها فهذا الأمر أراد الله تعالى بهذا الخلق^(١).
قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى:
«وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ» الآية. (الجن - ٦)؟ قال: غَلَّظْتُ وَشَدَّدْتُ أَمْرَهَا حين بعث النبي
ﷺ^(٢).

وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه - ﷺ - ولكن لم يكن [مثله]^(٣) في شدة الحراسة
بعد مبعثه^(٤).

وقيل: إن النجم ينقض فيرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه، والله أعلم.
قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، بسطناها على وجه الماء، يقال: إنها مسيرة خمسمائة سنة في
مثلاها دحيت من تحت الكعبة^(٥)، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، جبلاً ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى
أن أرساها الله بالجبال، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾، أي: في الأرض، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾، مقدَّر معلوم.
وقيل: يعني في الجبال، وهي جواهر من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، حتى
الزرنخ والكحل كل ذلك يوزن وزناً.
وقال ابن زيد: هي الأشياء التي توزن وزناً^(٦).

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾، جمع معيشة، قيل: أراد بها المطاعم والمشارب والملابس [وهي
ما]^(٧) يعيش به الآدمي^(٨) في الدنيا، ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾، أي: جعلنا فيها من لستم له برازقين
من الدوابِّ والأنعام، أي: جعلناها لكم وكفيناكم رزقها و«من» في الآية بمعنى «ما» كقوله تعالى:
«فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ» (النور - ٤٥).

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٢/١٠.

(٢) رواه عبدالرزاق عن معمر. انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة ص (٤٢٩) تحقيق السيد صقر.

(٣) استدركنها من «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة واضطربت العبارة في المطبوع اضطراباً كثيراً، وفيها زيادات، ليست في
«تأويل المشكل»، ولا في النسخ الخطية.

(٤) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة ص (٤٣٠).

(٥) انظر: البحر المحيط: ٤٥٠/٥. وذكر المصنف ذلك بصيغة التمرىض، ولا دليل ثابت عن المعصوم ﷺ في ذلك.

(٦) والمعنى الأول أعم وأحسن. انظر: المحرر الوجيز: ٢٩٣/٨.

(٧) في «أ»: وقيل.

(٨) في «ب»: المرء.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿١١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١٢﴾

وقيل: «من» في موضعها؛ لأنه أراد الممالك مع الدواب .

وقيل: «من» في محل خفض عطفاً على الكاف والميم في «لكم» .

﴿وإن من شيء﴾، [أي: وما من شيء] ^(١)، ﴿إلا عندنا خزائنه﴾، أي مفاتيح خزائنه .

وقيل: أراد به المطر .

﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، لكل أرض حدٌ مقدر، ويقال: لا تنزل من السماء قطرة إلا
ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله عز وجل ويشاء . . .

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: في العرش مثال جميع ما خلق الله في البر والبحر،
وهو تأويل قوله تعالى: «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه» ^(٢) .

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي: حوامل، لأنها تحمل الماء إلى السحاب، وهو جمع لاقحة، يقال:
ناقة لاقحة إذا حملت الولد .

قال ابن مسعود: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب، فيدر كما تدر اللقحة ثم
تمطر ^(٣) .

وقال أبو عبيدة: أراد باللواقح الملاقح واحداً ملقحة، لأنها تلقح الأشجار .

قال عبيد بن عمير: يبعث الله الريح المبشرة فتقم الأرض قمّاً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب،
ثم يبعث الله المؤلفة السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر ^(٤) .

وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه،
فالصَّبَا تهيجه، والشَّمَال تجمععه، والجنوب تذرّه، والدُّبُور تفرقه .

وفي الخبر أن: اللقح رياح الجنوب .

(١) ساقط من «أ» .

(٢) نقله القرطبي في التفسير: ١٥/١٠ .

(٣) أخرجه ابن جرير: ٢٠/١٤، والبيهقي في السنن: ٣/٣٦٤، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والخراطي في «مكارم
الأخلاق». انظر: الدر المنثور: ٧٢/٥ .

قال الهيثمي في «جمع الزوائد»: (٤٥/٧): «رواه الطبراني، وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف» .

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري: ٢١/١٤، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة .

انظر: الدر المنثور: ٧٣/٥ .

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٤٣﴾

وفي [بعض] الآثار: ما هبت ريح الجنوب إلا وبعث عينا غدقة^(١).
وأما الريح العقيم: فإنها تأتي بالعذاب ولا تلقح.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا من لا أتهم بحديثه، حدثنا العلاء بن راشد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما هبت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً. قال ابن عباس: في كتاب الله عز وجل: «إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً» (القمر - ١٩) «إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم» (الذاريات - ٤١)، وقال: «وأرسلنا الرياح لواقح» (الحجر - ٢٢)، وقال: «أن يرسل الرياح مبشرات»^(٢) (الروم - ٤٦).

قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، أي: جعلنا المطر لكم سقياً، يقال: أسقى فلان فلاناً: إذا جعل له سقياً، وسقاه: إذا أعطاه ما يشرب. وتقول العرب: سقيت الرجل ماءً ولبناً إذا كان لسقيه^(٣) / فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه ودوابه تقول: أسقيته.

﴿وَمَا أَنْعَمَ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾، يعني المطر في خزاننا لا في خزائنكم. وقال سفيان: بمانعين.
﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾، بأن نميت جميع الخلائق، فلا يبقى حي سوانا.
والوارث من صفات الله عز وجل. قيل: الباقي بعد فناء الخلق.
وقيل: معناه إن مصير الخلق إليه^(٤).

(١) أخرج البيهقي في السنن: ٣٦٣/٣ عن عبدالله مرفوعاً: «ما عام بأمطر من عام، ولا هبت جنوب إلا سال وادي». وقال: كذا روي مرفوعاً، والصحيح أنه موقوف.

(٢) أخرجه الشافعي في المسند: ٧٥/١، وفيه العلاء بن راشد وهو مجهول، ورواه الطبراني، ومسدد، وأبو يعلى، والبيهقي في «الدعوات الكبير».

قال الهيثمي: وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش، وهو متروك. وقال البوصيري: رواه مسدد وأبو يعلى بسند ضعيف لضعف حسين بن قيس.

انظر: مجمع الزوائد: ١٠/١٣٦، المطالب العلية: ٣/٢٣٨، مشكاة المصابيح: ١/٤٨١.

(٣) في «ب»: لشفته.

(٤) قال البيهقي في «الأسماء والصفات»: (٤١/١): «الوارث: ومعناه الباقي بعد ذهاب غيره. وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة؛ لأنه

يبقى بعد ذهاب الملاك الذين أمتعهم في هذه الدنيا بما آتاهم، لأن وجودهم ووجود الأملاك كان به، ووجوده ليس بغيره. وهذا الاسم مما يؤثر عن رسول الله ﷺ في خير الأسماء».

وانظر: «المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي: ١/١٨٩.

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾، قال ابن عباس: أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء .

قال الشعبي: الأولين والآخرين .

وقال عكرمة: المستقدمون^(١) من خلق الله والمستأخرون^(٢) من لم يخلق الله .

قال مجاهد: المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد ﷺ .

وقال الحسن: المستقدمون في الطاعة والخير، والمستأخرون المبطلون عنها^(٣) .

وقيل: المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها. وذلك أن النساء كن يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال، ومن النساء من كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال. فنزلت هذه الآية^(٣) .

وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»^(٤) .

وقال الأوزاعي: أراد المصلين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره .

وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال .

وقال ابن عيينة: أراد من يسلم ومن لا يسلم^(٥) .

(١) في «ب»: المستقدمين، المستأخرين. في سائر المواضع في تفسير الآية .

(٢) انظر في هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها: تفسير الطبري: ٢٦-٢٣/١٤، البحر المحيط: ٤٥١/٥، زاد المسير: ٣٩٧-٣٩٦/٤، الدر المنثور: ٧٦-٧٣/٥ .

(٣) أورد السيوطي جملة آثار في ذلك منها ما أخرجه الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في السنن من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس، قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله.. فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لتلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله «ولقد علمنا المستقدمين منكم والمستأخرين» .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله عن هذا الأثر: «حديث غريب جداً...» وقال أيضاً: «وهذا الحديث فيه نكارة شديدة... والظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذي: هذا أشبه أن يكون أصح» . وقال ابن عطية: ما تقدم وما تأخر من الآية يضعف هذه التاويلات لأنها تذهب لإصال المعنى .

انظر: تفسير ابن كثير: ٥٥١-٥٥٠/٢، الدر المنثور: ٧٣/٥، المحرر الوجيز: ٣٠٣/٨، الكافي الشاف لابن حجر ص ٩٣ .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، برقم (٤٤٠٠): ٣٢٦/١، والمصنف في شرح السنة: ٣٧١/٣ .

(٥) قال الطبري: (٢٦/١٤): «وأولى الأموال عندي في ذلك بالصحة، قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم =

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، على ما علم منهم .

وقيل: يميت الكل، ثم يحشرهم، الأولين والآخرين .

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن، أخبرنا أبو سعيد الصيرفي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من مات على شيء بعثه الله عليه»^(١) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، يعني: آدم عليه السلام، سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه. وقيل: من النسيان لأنه عهد إليه فنسي. ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾، وهو الطين اليابس الذي إذا فقرته سمعت له صلصلة، أي: صوتاً .

قال ابن عباس: هو الطين الحر، الذي نضب عنه الماء تشقق، فإذا حرك تققق . وقال مجاهد: هو الطين المتين. واختاره الكسائي، وقال: هو من صَلَّ اللحم وَأَصَلَّ، إذا أنتن^(٢). ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾، والحماء: الطين الأسود، ﴿مَسْنُونٍ﴾ أي: متغير. قال مجاهد وقناة: هو المتين المتغير .

= يابني آدم فتقدم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم، ممن هو حي، ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد، للدلالة ما قبله من الكلام وما بعده على أن ذلك كذلك .
وجائز أن تكون الآية نزلت في شأن المتقدمين في الصف لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عز وجل عم بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال جل ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومن هو حي منكم، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرها، وأحصينا جميع ذلك، ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كلأ بأعماله، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشرأ، فيكون ذلك تهديداً ووعداً للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء، ولكل من تعدى حُدَّ الله، وعمل بغير ما أذن له به، ووعداً لمن تقدم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک: ٣١٣/٤ عن جابر رضي الله عنه، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣١٣/٣ عن جابر، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: ٢٩/١، والمصنف في شرح السنة: ٤٠١/١٤ .

وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٢٨٣): ٥١٠/١، وانظر: كنز العمال: ٦٨١/١٥ .
وأخرج مسلم من طريق جرير عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، برقم (٢٨٧٨): ٢٢٠٦/٤ .

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٣٠٣-٣٠٥، البحر المحيط: ٤٥٣/٥ .

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾

وقال أبو عبيدة: هو المصبوب. تقول العرب: سننت الماء أي صببته .
قال ابن عباس: هو التراب المبتل المتن، جعل صلصالاً كالْفَخَارِ^(١) .
وفي بعض الآثار: إن الله عز وجل خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيراً أسود، ثم خلق منه آدم عليه السلام^(٢) .

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾، قال ابن عباس: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر .

وقال قتادة: هو إبليس خلق قبل آدم .
ويقال: الجانّ: أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين .
وفي الجن مسلمون وكافرون، ويحيون ويموتون، وأما الشياطين؛ فليس منهم مسلمون، ويموتون إذا مات إبليس .

وذكر وهب: إن من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون [بمنزلة الآدميين]^(٣)، ومن الجن من هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون .
﴿من نار السَّمُومِ﴾، والسَّمُومُ ريح حارة تدخل مسام الإنسان فتقتله. ويقال: السَّمُومُ بالنهار والحرور بالليل .

وعن الكلبي عن أبي صالح: السَّمُومُ نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء وبين الحجاب، فإذا أخذت الله أمراً خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت، فالهدة التي تسمعون في خرق ذلك الحجاب .

وقيل: نار السَّمُومُ لهب النار .

وقيل: من نار السَّمُومِ أي: من نار جهنم .

وعن الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السَّمُومِ^(٤)، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأما الملائكة فإنهم خلقوا

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٣٠٥/٨-٣٠٦، زاد المسير: ٣٩٧/٤-٣٩٨ .

(٢) أخرج نحواً من هذا مطولاً: ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه، وما انفرد به ابن عساكر فهو ضعيف غالباً .

انظر: الدر المنثور: ٧٧/٥ .

(٣) ساقط من «أ» .

(٤) انظر: فيما سبق، تفسير سورة البقرة: ٨٠/١-٨١ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

من النور (١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا﴾، أي: سأخلق بشراً، ﴿مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، عدلتُ صورته، وأتممت خلقه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، فصار بشراً حياً، والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان، وأضافه إلى نفسه تشريفاً، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، سجود تحية لا سجود عبادة.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾، الذين أمروا بالسجود، ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

فإن قيل: لِمَ قال ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة؟ قلنا: زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيداً.

وذكر المبرد: أن قوله ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ كان من المحتمل أنه سجد بعضهم فذكر «كلهم» ليزول هذا الإشكال، ثم كان [يحتمل أنهم سجدوا] (٢) في أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله «أجمعون» (٣). وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عز وجل قال للجماعة من الملائكة: اسجدوا لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم قال للجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا (٤).

(١) أخرج الإمام مسلم في صحيحه: (٢٢٩٤/٤) عن عائشة رضي الله عنها قلت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

(٢) في «ب»: من المحتمل أن يسجدوا.

(٣) جاء هذا الجواب أوضح في «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل» ص (١٦٧-١٦٨)، قال: «قال سيبويه والخليل: هو تأكيد بعد تأكيد، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن، فلا يكون تحصيل الحاصل، بل تكون نسبة «أجمعون» كنسبة «كلهم» إلى أصل الجملة».

وقال المبرد: قوله تعالى: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في زمان السجود، و«كلهم» يدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكة كلهم معاً في زمان واحد. واختار ابن الأنباري هذا القول. واختار الزجاج وأكثر الأئمة قول سيبويه، وقالوا: لو كان الأمر كما زعم المبرد لكان «أجمعون» حالاً، لوجود حدّ الحال فيه، وليس بحال؛ لأنه مرفوع، ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير: ٣١/١٤. وقال ابن كثير: (٥٥١/٢): وفي ثبوت هذا عنه نظر، والظاهر أنه اسرائيلي ووصفه بأنه أثر غريب عجيب.

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْنَئُ بَلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ .
 ﴿قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين﴾ .
 ﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من حمأ مسنون﴾ ، أراد: أنا [أفضل] ^(١) منه لأنه طيني، وأنا ناري، والنار تأكل الطين .
 ﴿قال فاخرج منها﴾ أي: من الجنة ﴿فإنك راجم﴾ ، طريد .
 ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ ، قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السماء والأرض .
 ﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ ، أراد الخبيث أن لا يموت .
 ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ ، أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى .
 ويقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة وهي ما بين النفختين .
 ويقال: لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له، بل كانت زيادة في بلائه وشقائه .
 ﴿قال رب بما أغويتني﴾ ، أضللتني . وقيل: خيبتني من رحمتك، ﴿لأزوين لهم في الأرض﴾ ، حب الدنيا ومعاصيك، ﴿ولأغوينهم﴾ ، أي: لأضلّهم، ﴿أجمعين﴾ .
 ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ، المؤمنين الذي أخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح اللام، أي: من أخلصته بتوحيديك واصطفيته .

(١) في «ب»: خير .

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ
 اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ
 بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

﴿قال﴾، الله تعالى، ﴿هذا صراطٌ عليّ مستقيم﴾، قال الحسن: معناه صراط إلى مستقيم .
 وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله تعالى، وعليه طريقه، ولا يعوج عليه شيء .
 وقال الأخفش: يعني: عليّ الدلالة على الصراط المستقيم .
 قال الكسائي: هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه: طريقك عليّ، أي: لا
 تفلت مني، كما قال عزّ وجلّ: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر - ١٤) .
 وقيل: معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية .
 وقرأ ابن سيرين، وقتادة، ويعقوب: عليّ، من العلوّ أي: رفيع، وعبر بعضهم عنه: رفيع أن
 يُنال، مستقيم أن يُمال .

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ /، أي: قوة .

١٩٧ / أ

قال أهل المعاني: يعني على قلوبهم .

وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقّهم في ذنب
 يضيق عنه عفوي، وهؤلاء ثنية الله الذين هدامهم واجتباهم. ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ .
 ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يعني موعِد إبليس ومن تبعه .
 ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾، أطباق .

قال علي رضي الله عنه: تدرون كيف أبواب النار؟ هكذا، ووضع [شعبة] إحدى يديه على
 الأخرى^(١)، أي: سبعة أبواب بعضها فوق بعض وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران
 بعضها فوق بعض .

قال ابن جريج: النار سبع دركات: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم
 الجحيم، ثم الهاوية .

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾، أي: لكل دركة قوم يسكنونها .

وقال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار، يعذبون بقدر ذنوبهم ثم

(١) أخرجه الطبري: ٣٥/١٤، ومنه زدنا كلمة «شعبة» وهو الراوي الذي حكى الإشارة بيديه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾

يخرجون، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» (النساء - ١٤٥).

وروي عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سَلَّ السيف على أمتي أو قال على أمة محمد»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: في بساتين وأنهار. ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم ادخلوا الجنة، ﴿بِسَلَامٍ﴾، أي: بسلامة ﴿ءَامِينَ﴾، من الموت والخروج والآفات.

﴿وَنَزَعْنَا﴾، أخرجنا، ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾، هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد، ﴿إِخْوَانًا﴾، نصب على الحال، ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾، يقابل بعضهم بعضاً، لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه.

وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا ودَّ أن يلقي أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾، لا يصيبهم، ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾، أي: تعب، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، هذه أنصُرُ آية في القرآن على الخلود.

قوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، قال ابن عباس: يعني لمن تاب منهم. وروي أن النبي ﷺ خرج يوماً على نفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أَتَضْحَكُونَ وبين أيديكم النار»، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية، وقال: «يقول لك ربك يا محمد لَمْ تَقْنَطْ عِبَادِي مِنْ رَحْمَتِي»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحجر: ٥٥١/٨-٥٥٢، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول، والإمام أحمد في المسند: ٩٤/٢.

وعزاه السيوطي للبخاري في «التاريخ»، ولابن مردويه. انظر: الدر المنثور: ٨١/٥.

(٢) أخرجه الطبري عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: ٣٩/١٤، وعزاه السيوطي لابن مردويه، الدر المنثور: ٨٦/٥، وذكره =

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥١﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٢﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا لَا نَؤْجِلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴿٥٥﴾

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ قال قتادة: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه» (١).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلَّهُمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَبْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ» (٢).

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن أضيافه. والضيف: اسم يقع على الواحد والاثنتين والجمع والمذكر والمؤنث، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبرأوا إبراهيم عليه السلام بالولد، ويهلكوا قوم لوط.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ﴾، إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾، خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه. ﴿قَالُوا لَا تَؤْجِلْ﴾ لا تخف، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، أي: غلام في صِغَرِهِ، عليم في كِبَرِهِ، يعني: إسحاق، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كِبَرِهِ وكِبَرِ امرأته.

﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي﴾ أي: بالولد ﴿عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾، أي: على حال الكبر، قاله على طريق التعجب، ﴿فِيمَ يُبَشِّرُونِ﴾، فبأي شيء تبشرون؟ قرأ نافع بكسر النون وتخفيفها أي: تبشرون، وقرأ ابن كثير بتشديد النون أي: تبشرونني، أدغمت نون الجمع في نون الإضافة، وقرأ الآخرون بفتح النون وتخفيفها.

= الواحدي في «أسباب النزول» ص (٣٢٠)، والقرطبي في التفسير: ٣٤/١٠، وأبو حيان في البحر: ٤٥٧/٥.

وروى نحوه دون ذكر نزول جبريل، الطبراني عن عبدالله بن الزبير، وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد: ٤٦/٧.

(١) رواه الطبري عن قتادة بلاغاً: ٣٩/١٤، وزاد السيوطي نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

انظر: الدر المنثور: ٨٦/٥.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرجاء مع الخوف: ٣٠١/١١، والمصنف في شرح السنة: ٣٧٨/٢٤.

قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرًا تَهُدُّ قَدَرْنَا إِنِّهَا لَمِنَ الْغَايِبِ ﴿٦٠﴾

﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾. ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب: بكسر النون، والآخرين بفتحها، وهما لغتان: قَنَطَ يَقْنَطُ، وَقَنَطَ يَقْنَطُ^(١)، أي: من ييأس، ﴿مَنْ رَحِمَةَ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، أي: الخاسرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكروه^(٢).

﴿قَالَ﴾ إبراهيم لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، ما شأنكم، ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾، مشركين. ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾، أتباعه وأهل دينه، ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، خفف الجيم حمزة والكسائي، وشدده الباقون.

﴿إِلَّا أَمْرًا تَهُدُّ قَدَرْنَا﴾، أي: امرأة لوط، ﴿قَدَرْنَا﴾، قضينا، ﴿إِنِّهَا لَمِنَ الْغَايِبِ﴾، الباقين في العذاب،

(١) رد أبو عبيدة القراءة بكسر النون، فقال ابن عطية في الحرر الوجيز: ٣٢٧/٨، وليس كما قال، لأنهم لا يُجمعون إلا على قَوِيٍّ في اللغة مرويًا عندهم، وهي قراءة فصيحة.

(٢) روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من رُوح الله، والأمن من مكر الله».

أخرج عبد الرزاق في «المصنف»: (٤٦٠/١٠) عن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رُوح الله» وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: «إسناده صحيح»؛ مجمع الزوائد: (١٠٤/١).

وقال الطحاوي: «الأمن والإيأس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل الإسلام»، فيجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خِيفَ منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجع لثوابه، أو رجل أذنب ذنبًا، ثم تاب منه إلى الله، فهو راجع لمغفرته.

أما إذا كان الرجل متداعيًا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتفني والرجاء الكاذب. وقد مدح الله تعالى أهل الخوف والرجاء بقوله: «أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ، وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» (الزمر - ٩) وقال: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا» (السجدة - ١٦) فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أُنْمَأَ، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا. وكل أحد إذا خففته، هربت منه، إلا الله تعالى، فإنك إذا خففته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه...^(٣).

انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص (٣٥٧-٣٥٨).

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنِفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَهُ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين .

قرأ أبو بكر «قدرنا» هاهنا وفي سورة التل بتخفيف الدال. والباقون بتشديدها .

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ .

﴿قال﴾، لوط لهم، ﴿إنكم قوم منكرون﴾ أي: أنا لا أعرفكم .

﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾، أي: يشكون أنه نازل بهم، وهو العذاب، لأنه

كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه .

﴿وأتيناك بالحق﴾، باليقين. وقيل: بالعذاب، ﴿وإننا لصادقون﴾ .

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم﴾ أي: سر خلفهم، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾،

حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم .

وقيل جعل الله ذلك علامة لمن ينجو من آل لوط .

﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾، قال ابن عباس: يعني الشام. وقال مقاتل: يعني زُغَر^(١). وقيل:

الأردن .

﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾، أي: فرغنا إلى آل لوط من ذلك الأمر، أي: أحكمنا الأمر الذي

أمرنا في قوم لوط، وأخبرناه: ﴿أن دابر هؤلاء﴾، يدل عليه قراءة عبدالله: وقلنا له إن دابر هؤلاء،

يعني: أصلهم، ﴿مقطوع﴾، مستأصل، ﴿مُصْبِحِينَ﴾، إذا دخلوا في الصبح .

(١) في «ب»: «زُغَر» - بالعين المهملة الساكنة، أوله مفتوح - موضع بالحجاز، قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»

(١٤٢/٣-١٤٣): «زُغَر»: بالعين المعجمة، بوزن زُفَر - قرية بمشارف الشام وإياها عنى أبو داود الإيادي حيث قال :

كُتَابَةُ الرُّغَرِيِّ غَشَا * هَا مِنْ الذَّهَبِ الدُّلَامُصُ

وقيل: «زُغَر» اسم بنت لوط، عليه السلام، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها، وقال حاتم الطائي :

سَقَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ سَحًا وَدِيْمَةً * جَنُوبَ السَّرَاةِ مِنْ مَّأْبٍ إِلَى زُغَرٍ

وجاء ذكر «زُغَر» في حديث الجساسة، الذي أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٤٢): ٢٢٦١-٢٢٦٤ .

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

﴿وجاء أهل المدينة﴾، يعني سدوم، ﴿يستبشرون﴾، بأضياف لوط، أي: يبشر بعضهم بعضاً، طمعاً في ركوب الفاحشة منهم .

﴿قال﴾، لوط لقومه، ﴿إن هؤلاء ضيفي﴾، وحق على الرجل إكرام ضيفه، ﴿فلا تفضحون﴾

فيهم .

﴿واتقوا الله ولا تخزون﴾، ولا تُخجلون .

﴿قالوا أولم ننهك عن العالمين﴾، أي: ألم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين .

وقيل: ألم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة، فإننا نركب منهم الفاحشة .

﴿قال هؤلاء بناتي﴾ أزواجهن إياكم إن أسلمتم^(١)، فأتوا الحلال ودعوا الحرام، ﴿إن كنتم

فاعلين﴾، ما أمركم به .

وقيل: أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمة .

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، يا محمد أي وحياتك، ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾، حيرتهم وضلاتهم،

﴿يعمّهون﴾، يترددون .

قال قتادة: يلعبون .

روي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه من

محمد ﷺ، وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياته^(٢) .

(١) قال ابن عطية بعد أن ذكر الخلاف في تأويل قوله «بناتي»: ... ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جداً .

وقال: ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله: «هؤلاء بناتي» بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إباحة بناته، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستئزال من جهة ما، واستدعاء الحياء منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: «ولو كَفَفَصَ قَطَاةً».. إلى غير هذا من الأمثلة .

انظر: المحرر الوجيز: ٣٣٨-٣٣٧/٨ .

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ٤٤/١٤، والحارث بن أبي أسامة في مسنده، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل». وسكت عليه البوصيري .

انظر: الدر المنثور: ٨٩/٥، المطالب العالية لابن حجر: ٣٤٧/٣ .

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

ب/١٩٧

/ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، أي: حين أضاءت الشمس، فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا، وتماه حين أشرقوا.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال ابن عباس: للناظرين.

وقال مجاهد: للمتفرسين.

وقال قتادة: للمعتبرين.

وقال مقاتل: للمتفكرين^(١).

﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قرى قوم لوط، ﴿لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: بطريق واضح.

وقال مجاهد: بطريق معلم^(٢)، ليس يخفى ولا زائل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

﴿وَإِنْ كَانَ﴾، وقد كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾، الغيضة، ﴿لِظَالِمِينَ﴾، لكافرين، واللام للتأكيد،

وهم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف، وكان عامة شجرهم الدَّوم، وهو المقل^(٤).

(١) وهذه المعاني كلها متقاربة، فالله تعالى يقول: إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم، وأحللنا بهم من العذاب لعلامات ودلالات

للمتفرسين المعتبرين بعلامات الله وعبره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به، وإنما يعني - تعالى ذكره - بذلك قوم نبي الله ﷺ من قريش، يقول: فليقومك يا محمد في قوم لوط، وما حلَّ بهم من عذاب الله حين كذبوا رسولهم، وتنادوا في غيهم وضلالهم، معتبر.

انظر: تفسير الطبري: ٤٥/١٤.

(٢) في «ب»: معلوم.

(٣) «يقول تعالى ذكره: إن في صنعنا بقوم لوط ما صنعنا بهم، لعلامة ودلالة بيّنة لمن آمن بالله، على انتقامه من أهل الكفر به، وإنقاذه من عذابه، إذا نزل بقوم، أهل الإيمان به منهم».

انظر: تفسير الطبري: ٤٧/١٤.

(٤) في «المعجم الوسيط»: (٣٠٥/١): «الدَّوم»: شجر عظام، من الفصيلة النخيلية، يكثر في صعيد مصر، وفي بلاد العرب، وثمرته

في غلظ التفاحة ذات قشر صلب أحمر، وله نواة ضخمة ذات لب أسفنجي.

وفيه أيضاً: (٨٨١/٢): «المقل»: حَمْلُ الدَّوم، وهو يشبه النخل.

فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَآيِنْنَاهُمْ عَايِنَتْنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

﴿فانتقمنا منهم﴾، بالعذاب، وذلك^(١) أن الله سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام فبعث الله سحابة فالتجؤوا إليها يلتمسون الروح، فبعث الله عليهم منها نارا فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: «فأخذهم عذاب يوم الظلة» (الشعراء - ١٨٩) .

﴿وإنهما﴾ يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لبإمام مبين﴾، بطريق واضح مستبين . قوله تعالى: ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر﴾، وهي مدينة ثمود قوم صالح، وهي بين المدينة والشام، ﴿المرسلين﴾، أراد صالحاً وحده^(٢) .

﴿وآتيناهم آياتنا﴾، يعني: الناقة وولدها والبئر، فالآيات في الناقة؛ خروجها من الصخرة، وكبرها، وقرب ولادها، وغزارة لبنها، ﴿فكانوا عنها معرضين﴾ .

﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾، من الخراب ووقوع الجبل عليهم . ﴿فأخذتهم الصيحة﴾، يعني: صيحة العذاب، ﴿مصبحين﴾، أي: داخلين في وقت الصبح . ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾، من الشرك والأعمال الخبيثة .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد ابن يعقوب الكسائي، حدثنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك عن معمر، عن الزهري، أخبرنا سالم بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه لما مر بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»،

(١) في «أ»: روي .

(٢) وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن من كذب بنبي واحد أو كفر، فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، فمن ردَّ نبوته لحسد أو عصبية أو هوًى... يتبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء، وتصديقه له، ليس إيمانا شرعياً .

وانظر تفصيلاً أوسع لهذا في «مجلة البحوث الإسلامية» العدد (١٦) بعنوان «إن الدين عند الله الإسلام» كتبه: عثمان جمعة ضميرية .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَفِ
 الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي
 وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

قال: وتَقَنَّعَ بردائه وهو على الرُّخْل (١).

وقال عبدالرزاق عن معمر: «ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي» (٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾، يعني: القيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿فَاصْصَفِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، فأعرض عنهم وأعف عفواً حسناً. نسختها آية القتال (٣).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [بخلقه] (٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾، قال عمر وعلي: هي فاتحة الكتاب. وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب حدثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم» (٥).

وعن ابن مسعود قال في السبع المثاني: هي فاتحة الكتاب، والقرآن العظيم: هو سائر القرآن (٦). واختلفوا في أن الفاتحة لم تسميت مثاني؟.

قال ابن عباس والحسن وقاتادة: لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة (٧).

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: «وإلى ثمود أخاهم صالحاً» ٣٧٨/٦-٣٧٩، ومسلم في الزهد، باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم» برقم (٢٩٨٠): ٢٢٨٦/٤. والمصنف في شرح السنة: ٣٦١/١٤.

(٢) المصنف لعبد الرزاق: ٤١٥/١، والبيهقي في السنن: ٤٥١/٢.

(٣) انظر فيما سبق، تفسير الآية (٣) من السورة: ص ٧٨ تعليق (٦).

(٤) ساقط من «أ».

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجر، باب «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم»: ٣٨١/٨ وانظر: فتح الباري: الموضع نفسه.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير: ٥٥/١٤، وزاد السيوطي نسبته لابن الضريس، وابن المنذر، وابن مردويه.

انظر: الدر المنثور: ٩٤/٥، زاد المسير: ٤١٣/٤.

(٧) انظر: الطبري: ٥٤/١٤-٥٥، الدر المنثور: ٩٥/٥-٩٦، زاد المسير: ٤١٣/٤-٤١٤، ففيها تفصيل هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها. وراجع فيما سبق: ٤٩/١.

وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين، نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»^(١).

قال الحسين^(٢) بن الفضل: سميت مثاني لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، كل مرة معها سبعون ألف ملك.

وقال مجاهد: سميت مثاني لأن الله تعالى استثنىها وادخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم.

وقال أبو زيد البلخي: [سميت مثاني]^(٣) لأنها تُثني أهل الشر عن الفسق، من قول العرب:

ثنيت عناني.

وقيل: لأن أولها ثناء.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن السبع المثاني هي السبع الطوال، أولها سورة البقرة، وآخرها الأنفال مع التوبة. وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، [أنا أبو إسحاق الثعلبي، حدثنا أبو محمد الحسن ابن أحمد المخلدي]^(٤) أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد وعبدالله بن محمد بن مسلم قالوا: أنبأنا هلال بن العلاء، حدثنا حجاج بن محمد عن أيوب بن عتبة، عن يحيى بن كثير، عن شداد ابن عبدالله، عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفضل»^(٥).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أوتي النبي ﷺ السبع الطوال، وأعطى موسى ستاً فلما ألقى الألواح رفع ثنتان وبقي أربع^(٦).

(١) وتماه: ... ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أننى علي عبدي. وإذا قال: (مالك يوم الدين)، قال: مجدي عبدي، فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، قال: هذا لعبدي ولعبي ما سأل.

أخرجه مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة... برقم (٣٩٥): ٢٩٦/١، والمصنف في شرح السنة: ٤٧/٣، وانظر فيما سبق: ٥٧/١.

(٢) في «ب»: الحسن.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) تقدم تحريجه فيما سبق: ٤١/١، تعليق (٣).

(٦) انظر فيما سبق تعليقا على الروايات عن لقاء موسى للألواح ٢٨٨/٣ تعليق (١).

لَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ

لِلْمُؤْمِنِينَ

قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها .

وقال طاووس: القرآن كله مثاني قال الله تعالى: «الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي» (الزمر - ٢٣) . وسمي القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه .

وعلى هذا القول: المراد بالسبع: سبعة أسباع القرآن، فيكون تقديره على هذا: وهي القرآن العظيم . وقيل: الواو مقحمة، مجازة: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم^(١) .

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ﴾، يا محمد، ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾، أصنافاً، ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الكفار متمنياً لها . نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها [عليها]^(٢) .
﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد ابن العنزي، حدثنا عيسى بن نصر، أنبأنا عبدالله بن المبارك، أخبرنا جهم بن أوس، قال: سمعت عبدالله بن أبي مريم - ومرو به عبدالله بن رستم في موكب، فقال لابن أبي مريم: إني لاشتبهى مجالستك وحديثك، فلما مضى قال ابن مريم - سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تغبطن فاجراً بنعمته، فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته، إن له عند الله قاتلاً لا يموت» فبلغ ذلك وهب بن منبه فأرسل إليه وهب أبا داود الأعور، قال: يا أبا فلان ما قاتلاً لا يموت؟ قال ابن أبي مريم: النار^(٣) .

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري السرخسي، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد ابن الفضل الفقيه، حدثنا أبو الحسن بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن عبدالله العبسي، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا

(١) تقدم فيما سبق أنه ليس في القرآن شيء من الحروف مقحم .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) رواه البخاري في «التاريخ»، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي، قال الميمني: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات. ورواه

المصنف في شرح السنة: ٢٩٤/١٤ - ٢٩٥ .

وضعه الألباني في تعليقه على المشكاة .

انظر: فيض القدير للمناوي: ٤١٣/٦، مجمع الزوائد: ٣٥٥/١٠، مشكاة المصابيح: ١٤٤٥/٣ .

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾
الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم^(١).

وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها لما من الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا .
رُوي أن سفيان بن عيينة / - رحمه الله - تأول قول النبي ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٢) أي: لم يستغن بالقرآن. فتأول هذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿واخفض جناحك﴾، لئن جناحك ﴿للمؤمنين﴾، وارفق بهم، والجناحان لابن آدم جانباه .

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ .

﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ قال الفراء: مجازة: أنذرهم عذاباً كعذاب المقتسمين. حكى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: هم اليهود والنصارى .
﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾، جزؤوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففروقه وبدلوه^(٤).

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٣): ٢٢٧٥/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٩٣/١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: «وأسروا قولكم أو اجهروا به»: ٥٠١/٣ وفي مواضع أخرى .

(٣) أخرج البخاري في فضائل القرآن، باب «من لم يتغن بالقرآن»: (٦٨/٩) عن أبي هريرة مرفوعاً: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغن بالقرآن، قال سفيان: تفسيره يستغني به .

قال في فتح الباري (٦٩/٩) ويمكن أن يستأنس بما أخرجه أبو داود، وابن الضريس، وصححه أبو عوانة عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله بن نبيك قال: «لقيني سعد بن أبي وقاص وأنا في السوق فقال: تُجار كَسِبَ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس منا من لم يتغن بالقرآن». وقد ارتضى أبو عبيد تفسير يتغنى يستغنى - وقال: إنه جائز في كلام العرب، وأنشد الأعشى :
وكنتم امرءاً زمناً بالعراق .
خفيف المناخ طويل التغنى

أي: كثير الاستغناء. وقال المغيرة بن حنبل:

كلنا غني عن أخيه حياته .
ونحن إذا متنا أشد تغانياً

قال: فعلى هذا يكون المعنى: من لم يستغن بالقرآن عن الإكثار من الدنيا، فليس منا، أي: على طريقتنا. وأيد ابن كثير تفسير سفيان بن عيينة للحديث فقال: وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث. انظر: ابن كثير: ٥٥٨/٢ .
ورد الشافعي رحمه الله تفسير ابن عيينة بأنه لو كان معناه على الاستغناء، لكان «يتغاني»، وتحسين الصوت هو يتغنى .
انظر شرح السنة للبيهقي: ٤٨٧/٤، وراجع حكم التغنى بالقرآن واختلاف العلماء فيه وفي معناه في: فتح الباري: ٧٢-٦٩/٩، تفسير القرطبي: ١١/١ وما بعدها، التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص (٨٧-٩٠) .

(٤) في «أ: بددوه .

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

وقيل: «المقتسمون» قوم اقتسموا القرآن. فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: شعر. وقال بعضهم: كذب، وقال بعضهم: أساطير الأولين .

وقيل: الاقتسام هو أنهم فرقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا: ساحر كاهن شاعر .
وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقْتَسَمُوا عِقَابَ^(١) مكة وطرقها، وقعدوا على أنقابها يقولون لمن جاء من الحجاج: لا تغتروا بهذا الرجل الخارج الذي يدعي النبوة منا. وتقول طائفة منهم: إنه مجنون، وطائفة: إنه كاهن، وطائفة: إنه شاعر، والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكماً فإذا سئل عنه قال: صدق^(٢) أولئك [يعني]^(٣) المقتسمين^(٤) .

وقوله: ﴿عَصِيْنٌ﴾ قيل: هو جمع عضو مأخوذ من قولهم عصيت الشيء تعصية، إذا فرّقه. ومعناه: أنهم جعلوا القرآن أعضاء، فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: كهانة. وقال بعضهم: أساطير الأولين .
وقيل: هو جمع عضة. يقال: عضة وعصين مثل برة وبرين وعزة وعزين، وأصلها: عضة ذهبهاؤها الأصلية، كما نقصوا من الشفة وأصلها شفهة، بدليل: أنك تقول في التصغير شفهة، والمراد بالعضة الكذب والبهتان .

وقيل: المراد بالعصين العضة، وهو السحر، يريد: أنهم سمّوا القرآن سحراً^(٥) .

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يوم القيامة .

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، قال محمد بن إسماعيل قال عُدَّة من أهل العلم: عن قوله «لا إله إلا الله»^(٦) .

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان» (الرحمن - ٣٩) .

قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم، لأنه أعلم بهم منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان، سؤال استعلام، وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: «فيومئذ لا يسأل

(١) عِقَاب: جمع عقبة، والعقبة هي المرق الصَّعب من الجبال .

(٢) في «ب»: سَلَّ .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) انظر هذه الأقوال وتخريجها في الطبري: ٦١/١٤-٦٤، الدر المنثور: ٩٨/٥، زاد المسير: ٤١٧/٤-٤١٨، فتح الباري:

٣٨٢/٨ .

(٥) انظر: زاد المسير: ٤١٨-٤١٩، الطبري: ٦٤-٦٦ .

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٦٧/١٤ .

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ١٤ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٥

عن ذنبه إنس ولا جان» (الرحمن - ٣٩)، يعني: استعلاماً. وقوله: «لنساءلهم أجمعين» يعني توبيخاً وتقريعاً.

وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين: إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف يسألون في بعض المواقف، ولا يسألون في بعضها. نظيره قوله تعالى: «هذا يوم لا ينطقون» (المرسلات - ٣٥)، وقال في آية أخرى: «ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون»^(١) (الزمر - ٣١).
قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، قال ابن عباس: أظهره. ويورى عنه: أمضه.
وقال الضحاك: أعلم.

وقال الأخفش: أفرق، أي: افرق بالقرآن بين الحق والباطل.
وقال سيبويه: اقض بما تؤمر، وأصل الصّدع: الفصل، والفرق: أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة.

وروي عن عبدالله بن عبيدة قال كان مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه^(٢).

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، نسختها آية القتال^(٣).
﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاصدع بأمر الله، ولا تخف أحداً غير الله عز وجل، فإن الله كافيك من عاداك كما كافاك المستهزين، وهم خمسة نفر من رؤساء قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان رأسهم - والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبدالمطلب ابن الحارث بن أسد بن عبدالعزى بن زمعة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: اللهم أغم بصره وأتكله بولده، والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، والحارث بن قيس ابن الطلحة فأتى جبريل محمداً ﷺ، والمستهزؤون يطوفون بالبيت، فقام جبريل وقام النبي ﷺ إلى جنبه، فمر به الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد كيف تجد هذا فقال بئس عبد الله، فقال: قد كُفيتَه، وأوماً إلى ساق الوليد، فمر برجل من خزاعة نبأ يريش نبلاً له وعليه برد يمان، وهو يجر إزاره، فتعلقت شظية من ثبل بإزاره فمنعه الكبر أن يطأ رأسه^(٤)، فبنزعها، وجعلت تضرب ساقه، فخدشته، فمرض منها فمات.

(١) انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب أي التنزيل، ص (١٤٠-١٤١) و(١٦٩)، زاد المسير: ٤١٩/٤-٤٢٠.

(٢) انظر: زاد المسير: ٤٢٠/٤.

(٣) انظر فيما سبق التعليق (٦) في تفسير سورة الحجر، الآية (٣) ص (٣٦٨).

(٤) في «ب»: يطامن.

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

ومرّ به العاص بن وائل فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: بئس عبد الله، فأشار جبريل إلى أخص رجليه، وقال: قد كفيت، فخرج على راحلته ومعه ابنان له ينتزعه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطئ على شريعة فدخلت منها شوكة في أخص رجله، فقال: لدغت لدغت، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه .

ومرّ به الأسود بن المطلب، فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ قال عبد سوء، فأشار بيده إلى عينيه، وقال: قد كفيت، فعمي .

قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عيناه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك .

وفي رواية الكلبي: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك، حتى مات، وهو يقول قتلني رب محمد .

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث، فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: بئس عبد الله على أنه ابن خالي. فقال: قد كفيت، وأشار إلى بطنه فاستسقى [بطنه] ^(١) فمات حيناً .

وفي رواية للكلبي أنه خرج من أهله فأصابه السموم فاسودّ حتى عاد حبشياً، فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب حتى مات، وهو يقول: قتلني رب محمد .

ومرّ به الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: عبد سوء فأومأ إلى رأسه وقال: قد كفيت فامتخط قيحاً فقتله .

وقال ابن عباس: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنقذ بطنه فمات ^(٢)، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، بك وبالقرآن ﴿الَّذِي يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

وقيل: [استهزؤهم] ^(٣) واقتسامهم: هو أن الله عزّ وجلّ لما أنزل في القرآن سورة البقرة،

(١) ساقط من «أ» .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧٢-٦٩/١٤، زاد المسير: ٤٢١/٤-٤٢٣، الدر المنثور: ١٠٠/٥-١٠٢، المحرر الوجيز: ٣٥٩-٣٦١،

البحر المحيط: ٤٦٩/٥-٤٧٠، سيرة ابن هشام: ٤٠٨/١-٤٠٩ .

(٣) ساقط من «ب» .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ
﴿١٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾

وسورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء: هذا في (١) سورة البقرة، ويقول هذا في (١) سورة النحل، ويقول هذا في (١) سورة العنكبوت (٢)، فأنزل الله تعالى : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك﴾، قال ابن عباس: فصل بأمر ربك ﴿وكن من الساجدين﴾ /، من المصلين (٣) المتواضعين .

ب/١٩٨

وقال الضحاك: «فسبح بحمد ربك»: قل سبحان الله وبحمده «وكن من الساجدين» المصلين .
وروي أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٤) .

﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾، أي الموت الموقن به، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم: «وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا» .

أخبرنا المطهر بن علي الفارسي، أخبرنا محمد بن إبراهيم الصالح، أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ، حدثنا أمية بن محمد الصواف البصري، حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا أبي والهيثم بن خارجة قالوا: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، عن أبي مسلم الخولاني عن جبير بن نفير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوحى إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» (٥) .

(١) في «ب»: إلى. وفي البحر المحيط: فمن قائل: البعوض لي، من قائل: النمل لي، وقائل العنكبوت لي، استهزاء .

(٢) انظر: البحر المحيط: ٤٦٨/٥ .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل: ٩٤/٢ عن حذيفة، بلفظ: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى» قال المنذري: وذكر بعضهم أنه روي مرسلًا .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣٨٨/٥، والبيهقي في الدلائل في قصة الخندق مطولاً، انظر: الكافي الشاف ص (٧)، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ٢٧٤/٦ .

وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١٥٥/٤، وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة: ٤١٦/١ .

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١٣١/٢ مرسلًا، ورواه السهمي موصولاً في تاريخ جرجان ص (٣٤٢) عن ابن مسعود. وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (١٠٥/٥) لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، والذيل في «الفردوس»، وابن عدي في الكامل: ١٨٩٧/٥ .

وأخرجه المصنف في شرح السنة: ٢٣٧/١٤، وفيه شرحبيل بن مسلم، وضعفه ابن معين. انظر: الجرح والتعديل: ٣٤٠/٤ .

وروي عن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه أهاب كبش قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي قد نور الله قلبه لقد رأيت بين أبويه يغذيانه»^(١) بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلة شراها، أو شريت له، بمائتي درهم، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترونه»^(٢). والله أعلم.

(١) في «ب»: يغذوانه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١٠٨/١، وانظر: المغني عن حل الأسفار للعراقي ٢٨٧/٤.